

مجلة مجمع اللغة العربية



الجزء السابع والستون
ربيع الآخر سنة ١٤١١ هـ
نوفمبر سنة ١٩٩٠ م



مجمع اللغة العربية بالقاهرة
١٥ شارع عزيز أباطة
المعهد السويسرى سابقا (بالزمالك

مجلة مجمع اللغة العربية

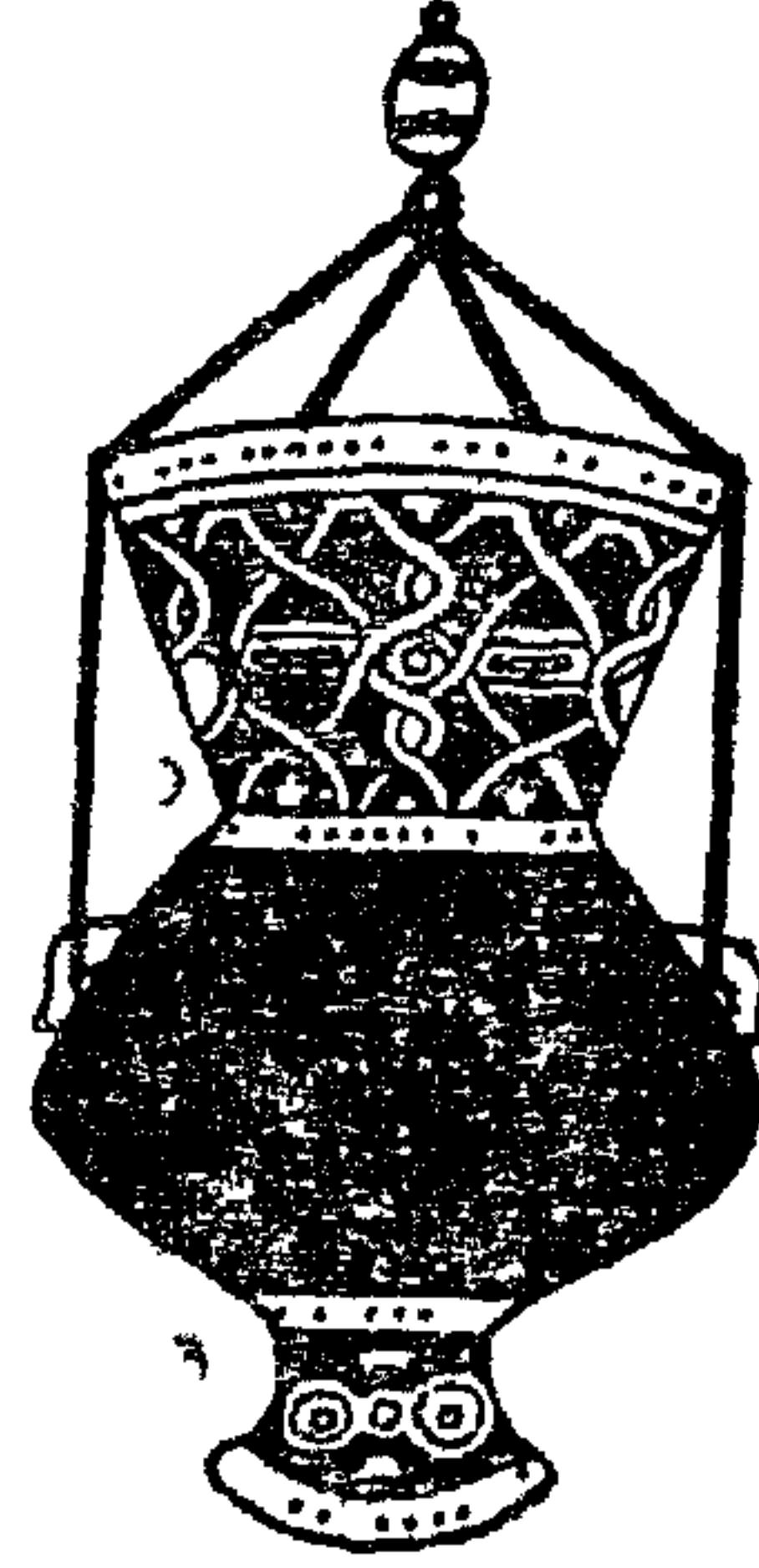
(تصدر مرتين في السنة)

الجزء السابع والستون
ربيع الآخر سنة ١٤١١ هـ
نوفمبر سنة ١٩٩٠ م

المشرف على المجلة:
الدكتور مهدي علام

رئيس التحرير:
إبراهيم التريز

أمين التحرير:
سعد توفيق



-
- التربية المثلى للشباب في ضوء الاسلام
للدكتور حسن الفاتح قريب الله
ص ١٢١
 - الفكر العلمى العربى وحضارة الغرب
للدكتور يوسف عز الدين
ص ١٣٠
 - العلاقات الثقافية بين القاهرة وتونس
من خلال رسائل الزيدى صاحب تاج
العروس
للدكتور ابو القاسم محمد كرو
ص ١٤٥
 - الاطار التاريخى لسورة براءة
للدكتور حسين مؤنس
ص ١٥٠
 - فى آفاق لغة الوحي
للاستاذ حسن عبد الله القرشى
ص ٢١١

مع العربية ومجمع اللغة في القاهرة قصيدة للدكتور إبراهيم السامرائي

رَبِعَتْ فَضِيمَ بَرْرَمٍ - أَوْ رَقُ
بَبْقِيَّةٍ مِنْ سَحَرٍ يَابِغَةٍ
تَرَكَتْ عَرِيضَ الرُّوضِ ظَامِثَةً
وَذَوَى عَلَى أَعْلَاقِهَا عَبَقُ
لَغْنَةٍ سَعَيْتُ لِمَا شَقِيقَتُ لَهُ
وَشُعِلَتْ مِنْهَا شُعْلَ ذِي أَرْبِ
أَنَا بَعْضُ فَرْمٍ نَالَهُمْ نَصَبُ
أَضْمَنَاهُمْ الدَّرْبُ الَّذِي طَرَقُوا

وَمَضَتْ بِمَا تَشْقَى وَتَأْتَلِقُ
فَذَنْ يَتَشَى بِنُضْمٍ - أَلَقُ
رَوْحَاتُهُ ، وَاسْتَضْرَخَ الْوَرَقُ
لَمْ يَخْلُ عَنْهُ وَارِفُ أُنُقُ
مِنْهَا ، كَأَنِّي رُحْتُ أَسْتَبِقُ
أَضْمَنَاهُ فِي عَمَرَاتِهِ عَلَقُ
فِيمَا سَعَوْا لَعَلَّاهُمْ - وَشَقُّوا
وَهْدَاهُمْ الْهَدَى الَّذِي صَدَقُوا

* * *

يَا خَالِدِينَ ! وَقَدْ سَعَيْتُ لَكُمْ
أَكْبَرْتُ فِيكُمْ ، كُلُّ مُخْتَرِبِ
وَوَجَدْتُ فِيكُمْ كُلَّ مُدْرِعِ
وَقَبَسْتُ مِنْ « شَيْخٍ » سَمَاحَةٍ مَنْ
وَلَا أَنْتُمْ قَدَرُ لَبَّ - أَرَعِ
أَسْرَى بِكُمْ فِي كُلِّ مُطْلَمَةٍ

بِأَثَارَةٍ فِي طِيَّهَا عَبَقُ
طَالَعْتُهُ كَالسَّيْلِ يَدْفِقُ
بِالْعِلْمِ ، وَهُوَ بِسِرِّهِ حَذِيقُ
يَغْنَى بِأَيِّ هُدًى وَيَعْتَدِقُ
غَنِيَّتُ ، فَلَاخَ وَفُ وَلَا فَرَقُ
فُلُكُ ، فَلَا عَطَبُ وَلَا غَرَقُ

* * *

(*) أُلْقِيَتْ هَذِهِ الْقَصِيدَةُ فِي الْجُلُوسَةِ الثَّلَاثَةِ مِنْ حُلُوسَاتِ الْمَوْثَرِ الْمُنْعَقِدَةِ يَوْمَ الْأَرْبَعَاءِ ٣ مِنْ شَعْبَانَ سَنَةِ ١٤١٠ الْمَوْافِقِ ٢٨ مِنْ فَبْرَايِرِ (شَبَاطِ) سَنَةِ ١٩٩٠ م

أَنَا بَعْضُ جَمْعٍ لَيْسَ بِجَمْعِهِمْ
وَأَمْضُهُمْ هُمْ لِمَا بَعْدَ
مِمَّا حَوَتْ مِنْ فَيْضِهَا مَدَدًا
وَضَمَانَةُ الضَّادِ الْمُنِيرِ وَمَا
وَذَخِيرَةُ كُنَّا بِحُرْمَتِهَا
وَبِمَا تَحَدَّرَ مِنْ سَمَاحَتِهَا
وَبِمَا هَدَيْنَا مِنْ رَحَابَتِهَا
وَسَعَتْ إِلَى أُمَمٍ أَضَرَّ بِهَا
وَدَنَتْ إِلَى رَشَدٍ تَلُوحُ بِهِ
أَلَوْتُ بِنَا غِيًّا وَنَفَسْتُ تَرْقُ
أَفْتَعَدَ مَا ضَمَّاقَتْ بِنَا حِلَالُ
شِمْنَا الرَّجَاءِ الْمُسْتَنِيرِ إِلَى

إِلَّا الَّتِي بَيَّانَهَا نَطَقُوا
تَلَقَى ، فَلَا تَشْتَقِي وَتَخْتَنِقُ
تَقْـوَى بِهِ ، وَتَرُوحُ تَرْتَفِقُ
« لِلذِّكْرِ » مِنْ نَفْحَاتِهِ نَسَقُ
بِأَجَلٍ مَا نُمْنَى وَنَفْتَرِقُ
حِكْمُ تَضَى لَنَا وَتَتَسَقُ
طَبَعَ مَشَى فِي سَمْعِهِ خَلَقُ
خُلْفُ ، وَعَمَّ سَبِيلَهَا غَسَقُ
فِيمَا تَلَى مِنْ خَطْبِهَا طُرُقُ
وَمَشَتْ بِنَا هَلْدِيًا وَنَتَفِقُ
وَتَوَزَّعَتْ بِشَّةً تَاتِنَا فِرْقُ
فَجَرَّ أَضَاءَ بِنُورِهِ أَوْقُ

* * *

إِنِّي ، وَقَدْ أَذْرَكْتُ مِنْ رَشَدٍ
لَأُطِيلَ مِنْ نَفْسٍ لِعَافِيَةٍ
وَأُزِيحُ عَنِّي كُلَّ غَاشِيَةٍ
عَوْدًا إِلَى دَرْبِ تَهْيِيئِي
وَمَعَ الَّذِينَ بِبَأْسِهِمْ وَصَلُوا
أَوْلَاءَ مَنْ شَرُّوا بِمَا صَدَقُوا
بِلِسَانٍ صَدَقَ غَيْرُ ذِي عِوَجٍ
تَلَقَّاهُمْ السَّاعِينَ فِي حَرَدٍ

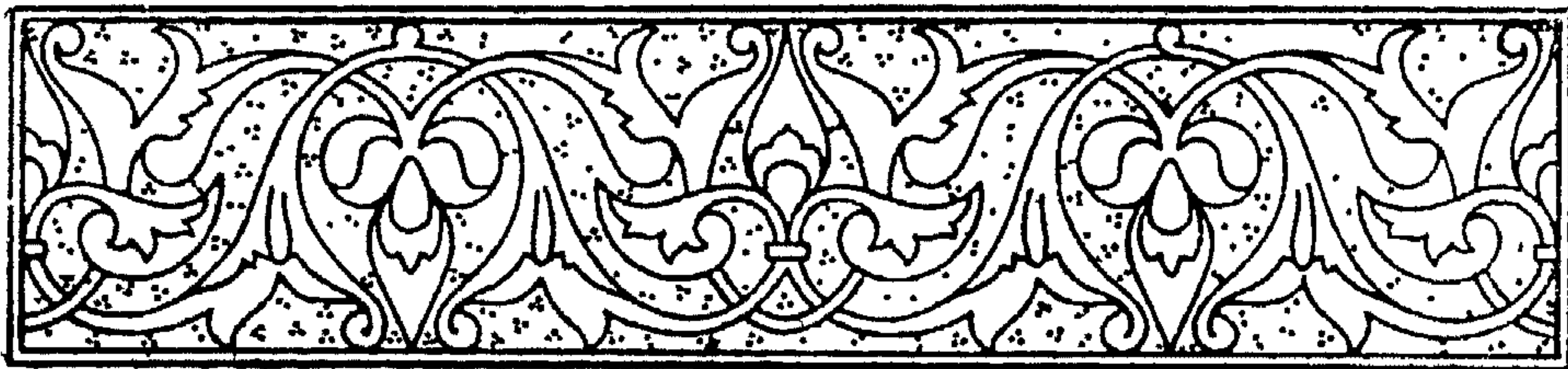
وَأَرَقْتُ فِيهِ وَنَابَنِي أَرَقُ
وَأَصْدُ مَا يُؤْمِي بِهِ رَمَقُ
لَوْلَا الْهُدَى ، قَدْ كِدْتُ أَحْتَرِقُ
مِمَّا دَجَا فِي وَعْثِهِ لَشَقُ
بِمَسِيرَةٍ قَدْ رُحْتُ أَلْتَحِقُ
وَلَأَنْتَ فِي هَلْدِي بِمَا نَطَقُوا
وَلَذَاكَ أَوْفَرُ مُنَّةٍ رُزُقُوا
لِلْجِدِّ ، كُلُّ مُفْصِحٍ لَبَقُ

بِحَمِّ-اسَّةٍ ذَهَبَتْ بِهِمْ رَشْدًا وَلَهُمْ بِذَلِكَ مِقْدٌ ذَلِيقُ
إِنْ كَانَ ذَاكَ فَانَّتْ بَعْضُهُمْ وَلَأَنْتَ فِيهِمْ مُعْجَلٌ تَثِيقُ

* * *

قَسَمًا بِمَا تَمَرَّتْ مِنْ قِيَمٍ وَبِمَا أَنْجَلِي مِنْ هَدْيِهَا فَلَقُ
مَا كُنْتُ أَعْلِلُ عَنْ هَوَى أَبْدَا لِلْحَزْمِ ، لَا دَعْوَى وَلَا مَلَقُ
هَمْ شَقِيقَتُ بِهِ وَأَحْسَبُنِي أَنْ لَوْ صَبَرْتُ لَزُحِجَ الْقَلَقُ
وَلَنِعَمَ مَا يَلْقَاهُ دُوْمَقَةٌ فِي سَعْيِهِ مِمَّا بِهِ يَثِيقُ

ابراهيم السامرائي
عضو المجمع (من العراق)



حديث عن الإنسان في القرآن الكريم

للدكتور محمد رشاد الطويل
عضو الجمع

قدراته العقلية والحسدية ما يتفوق به على
سائر المخلوقات ، حتى أصبح بمصل من
الله وحكمة ، سيد المخلوقات جميعاً دون
منارع ، وأصبحت له السيطرة الكاملة على
محريات الأمور في هذا العالم المتسع الأرجاء .
ولذلك فقد تراعى لي أن أحص هـذا
الإنسان العاقل بحديث مستقل أستمد
عناصره وأساسياته من القرآن الكريم ،
فكان حديث اليوم .

الإنسان ، الناس ، البشر :

إن لفظ « الإنسان » يطلق على كل
من الذكر والأنثى من بني آدم كما ورد
في « معجم ألفاظ القرآن الكريم » الذي
أخرجه مجمع اللغة العربية بالقاهرة ،

سبق لي أن تحدثت في العام الماضي
أمام هذا المجلس الموقر عن « دواب الأرض
في القرآن الكريم » ، وأوضحت في ذلك
لحديث أن تلك الدواب تبدأ من النملة
الصغيرة حتى الإنسان العاقل ، فكلها من
المخلوقات التي تدب على سطح الأرض ،
تأكل من رزق الله وتُسبِّح بحمده ، وقد
ورد في القرآن الكريم ما يستدل منه على
أن هذا الإنسان العاقل إن هو إلا أحد تلك
الدواب كما في الآية الكريمة التالية :

« وَلَوْ يُوَاسِدُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ
عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَهْلٍ
مُّسَمًّى » . (٦١ / النحل)

ولكن الله سبحانه وتعالى قد ميز الإنسان
العاقل بالفتنة والذكاء ، وجعل له من

(*) ألقى هذا البحث في الجلسة الثانية من جلسات المؤتمر المعقودة يوم الثلاثاء ٢ من شعبان سنة ١٤١٠ هـ
الموافق ٢٧ من فبراير (شاط) سنة ١٩٩٠ م .

وصدرت طبعته الأولى سنة ١٩٥٣ (ألف
وتسعمائة وثلاث وخمسين) وقد ورد هذا
اللفظ بدون أداة التعريف مرة واحدة في
القرآن الكريم ، وذلك في قوله سبحانه
وتعالى :

« وَكُلُّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ »

(صدق الله العظيم)

(١٣ / الإسراء)

أما مع أداة التعريف فقد ورد ذكره في
كثير من الآيات السينات نذكر منها على
سبيل المثال :

« وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا »

(٨ / العنكبوت)

« أَيْحَسِبُ الْإِنْسَانُ أَنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ »

(٣ / القيامة)

« يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ » .

(١٠ / القيامة)

« يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ مَا سَعَى » .

(٣٥ / النازعات)

« خَلَقَ الْإِنْسَانَ * عَلَّمَهُ الْبَيَانَ »

(٣ ، ٤ / الرحمن)

« إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا » .

(صدق الله العظيم)

(١٩ / المعارج)

وعده هذه الآيات البينات إحدى وستون
آية (٦١) ، كما ورد في معجم ألفاظ -
القرآن الكريم . تضاف إليها ثلاث آيات
أخرى (٣) المقصود فيها بلفظ الإنسان
هو آدم عليه السلام ، وتلك الآيات -
الثلاث هي :

« وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ

حَمِإٍ مَّسْنُونٍ » . (٢٦ / الحجر)

« وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ »

(٧ - السجدة)

« خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ »

(صدق الله العظيم)

(١٤ / الرحمن)

ومعنى ذلك أن هناك أربعاً وستين (٦٤)

آية ورد فيها لفظ « الإنسان » معرفاً ،
كما ورد في معجم ألفاظ القرآن الكريم .

عند قراءة هذه الآيات البينات استعداداً
لكتابة هذا البحث عثرت على خطأ يسير
غير مقصود في سرد الآيات السابق ذكرها
ويكون لي اليوم شرف تصحيح هذا الخطأ .
ففي قائمة الآيات الخاصة بالإنسان عامة
وجدت الآية رقم « ١٢ / المؤمنون » ضمن

هذه القائمة . وتلك الآية هي كما يلي .
« وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ
طِينٍ » . (صدق الله العظيم)
(١٢ / المؤمنون)

ولما كانت هذه الآية الكريمة المقصود
فيها أيضاً بلفظ « الإنسان » هو آدم
عليه السلام ، فيجب ضمها إلى الآيات
الثلاث الأخرى المتعلقة بآدم ، وبذلك
يكون العدد الحقيقي للآيات الخاصة بالإنسان
عموماً هي ستون آية (٦٠) ، وتلك التي
تشير إلى آدم عليه السلام هي أربع آيات
(٤) بدلاً من ثلاث .

يضاف إلى تلك الآيات السابقة ست
آيات أخرى (٦) ورد فيها لفظ « الإنسان »
مجروراً باللام ، كما في قوله تعالى :

« إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ » .

(صدق الله العظيم)

(٥ / يوسف)

ولما كانت كلمة « الناس » تطلق كما
هو معروف على « الجماعة من الإنسان »
فلا بد لنا من التعرف على ورود هذا اللفظ
في القرآن الكريم ، وخصوصاً أنه أكثر
الألفاظ دلالة على بني البشر ، إذ أنه ورد

في مختلف الآيات القرآنية مائتين وأربعين
مرة (٢٤٠) ، نذكر منها على سبيل المثال
الآيات التالية :

« أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ
أَنْفُسَكُمْ » . (٤٤ - البقرة)

« فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ
وَالْحِجَارَةُ » . (٢٤ / البقرة)

« فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا
النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ » . (٨٥ / الأعراف)

« رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ
فِيهِ » . (٩ - آل عمران)

« وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا
بِالْعَدْلِ » . (صدق الله العظيم)
(٥٨ / النساء)

فإذا انتقلنا بعد ذلك إلى لفظ آخر
يدل على الإنسان وهو « البشر » لوجدنا
أنه ورد كثيراً في القرآن الكريم ، ومن
أمثلة الآيات التي ورد فيها هذا اللفظ -
الآيات التالية

« قَالَتْ رَبِّ أَنِّي بِكُونِي لِي وَلَدٌ وَلَمْ
يَحْمَسْنِي بَشَرٌ » . (٤٧ / آل عمران)

« قَالَ لَسَمَ أَكُنْ لَأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ » .

(٣٣ / الحجر)

« قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ »

(صدق الله العظيم)

(١١٠ / الكهف)

الذكر والأنثى :

لست في حاجة إلى القول إن الإنسان أو الناس أو البشر منهم الذكر ومنهم الأنثى ولولا وجودهما معاً لما استمرت الحياة على ظهر هذه الأرض من عهد آدم إلى يومنا هذا ، وكانت الأقوام في العهود الغابرة وخصوصاً أيام الجاهلية الأولى يفضلون الذكر على الأنثى ، وربما كان هذا الشعور العدائى نحو ولادة الأنثى من رواسب المعتقدات القديمة التى توارثها الإنسان جيلاً بعد جيل . فقد عُرف مثلاً أن العرب فى الجاهلية ، أى قبل ظهور الإسلام كانوا يعتبرون ولادة الأنثى كارثة تنخلع لها قلوبهم ، وليس أدل على ذلك من الوصف الذى أورده القرآن الكريم بهذا الخصوص ، كما يتضح من الآية الكريمة التالية :

« وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنْثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ

مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ * يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ ، أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ » .

(صدق الله العظيم)

(٥٨ ، ٥٩ / النحل)

وكان العرف السائد حينئذ هو التخلص من المولودة الأنثى ، وكانهم يتخلصون من داءٍ وبيل ، وكان مبعث هذا الشعور هو الخوف مما قد ترتكبه تلك الأنثى من الفساد عندما تشب وتنضج ، أو من وقوعها فى الأسر فى أيدي أعدائهم ، حيث كانت القبائل البدوية فى حروب شبيهة مستمرة .

وكانت القبيلة المنتصرة تأخذ الأسلاب من ممتلكات القبيلة المهزومة ، كما كانت تأخذ نساءها أسرى حرب أو سبائاً ، ولذلك كانوا يتخلصون من الأنثى بعد ولادتها مباشرة بدفنها حية فى التراب ، مما كان سبباً فى نزول الآية الكريمة التالية :

« وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ * بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ »

(صدق الله العظيم)

(٨ ، ٩ / التكوين)

ولم يكن الانزعاج من ولادة بنت ، مقصوراً على الرجال وحدهم ، بل يتعداهم

إلى النساء أيضًا ، وقد نتلمس شيئًا من هذا القبيل فيما ورد ذكره في القرآن - الكريم عن « امرأة عمران » في الآية الكريمة التالية :

« فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا
أُنْثَىٰ » (صدق الله العظيم)
(٣٦ - آل عمران)

ثم تستمر بعد ذلك في مخاطبة المولى عز وجل قائلة :

« وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَىٰ »
(صدق الله العظيم)
(٣٦ / آل عمران)

وقد نستشف من ذلك أنها غير قانعة تمامًا بتلك المولودة ، أو أنها غير راضية عنها وإن لم يرد ذلك صراحة في تلك الكلمات ، بل إنها كانت تفضل المولود الذكر ، لأنه في عرفها أفضل من الأنثى

وقد تلاشت تمامًا تلك الأفكار القديمة في عصرنا الحاضر ، أو كادت ، ولم يعد هناك أي تمييز أو تفضيل بين الذكر والأنثى في مضمار الحياة ، مصداقًا لقوله سبحانه وتعالى :

« يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ » (صدق الله العظيم)
(٤٩ - الشورى)

الأساس العلمي للذكورة والأنوثة :

إن ولادة الذكور أو الإناث تسير في نظام محدد ثابت منذ بدء الخليقة إلى الآن ، فقد وضع الله سبحانه وتعالى في حساباته الدقيقة أن تكون ولادة الذكور مساوية تمامًا لولادة الإناث . فلا يطغى أحدهما على الآخر عددًا ، مما قد يؤدي إلى اختلال في موازين الوجود والبقاء على سطح الأرض .

وتدل جميع الإحصائيات في مختلف بلاد العالم أن عدد الذكور مساو تقريبيًا لعدد الإناث . ومع ذلك فقد وجد مثلاً أن هناك بعض العائلات التي تلد نساؤها ذكورًا أكثر من الإناث ، وهناك عائلات أخرى تلد نساؤها إناثًا أكثر من الذكور . ولكن المجموع الكلي للذكور يكون مساويًا لمجموع الإناث في نفس هذا المجتمع .

وعلى أية حال فقد ثبت عاميًا في الوقت الحاضر أن المرأة غير مسؤولة إطلاقًا عن ولادة الذكور أو الإناث . وذلك ، لأن

جميع البويضات (ova) التى تخرج من المبيض - والتى يتكون منها الجنين بعد إخصابها - من نوع واحد فقط ، وهذا النوع الوحيد من البيض قادر على إنتاج الذكور أو الإناث ، فهو يحتوى بداخله على نوع واحد فقط من الصبغيات الجنسية أو الكروموسومات (Chromosomes) يطلق عليه اسم الكروموسوم السيني (س) ، ويرمز له باللغات الأجنبية بالحرف (X)

أما الماء الدافق الذى « يخرج من بين الصلب والترائب » فهو يحتوى على خلايا جنسية من نوعين مختلفين ، يحمل أحدهما بداخله الكروموسوم السيني (س) ، بينما يحمل النوع الثانى كروموسوماً جنسياً آخر هو الكروموسوم الصادى (ص) ويرمز له باللغات الأجنبية بالحرف (Y)

إن هذه الخلايا الجنسية دقيقة الحجم تماماً إذا قورنت بحجم البويضة . ويوجد منها ما يقرب من الثلاثمائة مليون فى الدفقة الواحدة ، وعند وصولها إلى داخل الرحم فإنها تتسابق جميعاً نحو البويضة - إن وجدت - لإخصابها ، تدفعها فى ذلك قوة غامضة يطلق عليه العلماء اسم « التوجه

الكيميائى » (Chemotaxis) ، ويكون الفوز للمتسابق الأول الذى يصل إلى البويضة قبل غيره ، إذ أنه يندمج معها تماماً ، ويقال للبويضة عندئذ : إنها قد أخصبت . ولما كانت تلك الخلايا الجنسية توجد بأعداد متساوية تماماً ، تكون الفرصة سانحة لأى من النوعين : (س) أو (ص) لكى يؤدي إلى إخصاب البويضة .

وبذلك يكون هناك احتمالان فقط ، لاثالث لهما :

الاحتمال الأول :

بويضة + حيوان منوى $\xrightarrow{\text{عملية الإخصاب}}$ بويضة مخصبة
س س س س

ويكون المولود أنثى

الاحتمال الثانى :

بويضة + حيوان منوى $\xrightarrow{\text{عملية الإخصاب}}$ بويضة مخصبة
س ص س ص

ويكون المولود ذكراً

وتبعاً لقانون الاحتمالات يكون نصف

المواليد (٥٠ /) من الأولاد ، والنصف الآخر من البنات . وهو ما يشاهد في مختلف بلاد العالم بصفة عامة

وأحب أن أنوه هنا أن بعض علماء الوراثة قد قاموا بعدة محاولات المتحكم في جنس الجنين في الإنسان . وكانت آخر هذه المحاولات تعتمد على فصل الحيوانات المنوية المنتجة للذكور (وهى الحاملة للكروموسوم ص) عن تلك المنتجة للإناث (وهى الحاملة للكروموسوم س) بعد تكويتها داخل الخصية . ثم إتاحة الفرصة للنوع الأول منها لإخصاب السويضة دون النوع الثانى وذلك في حيوانات التحارب تمهيداً لاستخدامها بعد نجاحها في حالة الإنسان . ولكن لم يكتب لمثل تلك المحاولات أى نجاح على الإطلاق ، ويظل الأمر كانه في يد الخالق العلى المتدبر ، كما تحدثنا الآية الكريمة

« يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ » . (صدق الله العظيم) (٤٩ / الشورى)

مراحل العمر

الطفل ، الصبى ، الغلام .

إن كل هؤلاء المواليد سواء كانوا من

الذكور أو الإناث يمرون خلال حياتهم بمراحل متعددة لكل منها في القرآن ذكر ، وأل هذه المراحل هى مرحلة الطهولة ، ولم يرد لفظ « الطفل » في القرآن الكريم إلا بمعنى الوليد (كما هو واضح من معجم ألفاظ القرآن الكريم) . ومن ذلك على سبيل المثال الآية الكريمة التالية .

« هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْءَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً » . (صدق الله العظيم) (٦٧ / غافر)

وآية أخرى مماثلة .

« وَيُقَرِّئُ فِي الْأَرْحَامِ مَا شَاءَ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً » . (صدق الله العظيم) (٥ / الحج)

ثم يأتي بعد ذلك الصبى ، وقد عُرِفَ في « المحم الوسيط » بأنه الصغير دون الغلام ، أو من لم يفطم بعد ، وعرف في معجم ألفاظ القرآن الكريم بأنه « من لم يبلغ الحلم » ، وقد وردت عنه في القرآن الكريم آيتان فقط . إحداهما

هى الآية الكريمة التالية :

« يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتِنَاهُ
الْحُكْمَ صَبِيًّا » . (صدق الله العظيم)
(١٢ / مريم)

هناك بعد ذلك الغلام ، وقد عرف في
معجم القرآن الكريم والمعجم الوسيط. بأنه
« الصبى من حين يولد إلى أن يشب » ،
ووردت عنه في القرآن الكريم عدة آيات
نذكر منها على سبيل المثال :

« قَالَ يَا نُشْرَى هَذَا غُلَامٌ »
(١٩ / يوسف)

« فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ » .
(١٠١ / الصافات)

« فَإِذَا طَلَقَا حَتَّى إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ »
(٧٤ / الكهف)

النضوج الجنسى :

أما بعد بلوغ الحُلُم أو بعد مرحلة
البلوغ فيكون هناك تمييز واضح بين الذكر
والأنثى ، أو بين الرجل والمرأة نتيجة ،
لظهور ما يعرف « بالصفات الجنسية
الثانوية » ، وتنتج هذه الصفات بتأثير

هرمونات معينة تفرزها الخصية عند الرجال
أو المبيض عند النساء .

والمعروف أن الصبى أو الغلام عندما
يقترّب من سن البلوغ أو عند اجتيازها
تظهر عليه عدة تغييرات جسدية منها على
سبيل المثال عمق الصوت وخشونته نتيجة
لنمو الحنجرة والأحبال الصوتية ، وخشونة
الجلد بعد أن كان ناعم الملمس كجلد
الفتيات ، ثم البدء في نمو الشعر على الوجه
لتكوين الشارب واللحية . ونمو عضلات
الجسم وتضخمها وخصوصاً عضلات الأذرع
والسيقان ، ولا يكون هناك تركيز لتوزيع
المواد الدهنية تحت الجلد في الصدر وعند
الأرداف كما هى الحال عند الإناث .

أما الفتاة الصغيرة فمن أظهر صفاتها
الجنسية الثانوية نمو الأثداء بطريقة تؤهلها
للقيام بوظيفتها المستقبلية ، وهى إدرار
اللبن لإرضاع المولود وكذلك توزيع المواد
الدهنية تحت الجلد بصورة تؤكد أنوثة
الأنثى . وخصوصاً عند الأرداف . وهو
ما يعنيه الشاعر بقواه :

هيفاء مقبلة عجزاء مدبرة
لا يشتكى قصر منها ولا طول

أى أنها نحيفة البطن ممتلئة العجز ،
مما يجعلها فى صورة تختلف تماماً عن صورة
الرجل .

هذا بالإضافة إلى نعومة فى الصوت ،
فلا يختلف كثيراً عن صوت الطفل ،
ونعومة فى الجلد فيظل ناعم الملمس ،
ولا تدركه الخشونة الموجودة فى جلد الرجال .

وفى القرآن الكريم آيات كثيرة ذكر
فيها كل من الرجل أو المرأة على حدة ،
نذكر منها على سبيل المثال :

« أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ » .

(٧٨ / هود)

« وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَى »

(٢٠ / القصص)

« وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ » .

(٢٨ / غافر)

« إِنَّ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فْتَرَبِّصُوا بِهِ »

حَتَّىٰ حِينٍ » . (صدق الله العظيم)

(٢٥ / المؤمنون)

أما المرأة فقد ورد ذكرها فى القرآن
الكريم للدلالة على الأنثى من بنات آدم ،

كما فى قوله تعالى :

« إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ
مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ » .

(صدق الله العظيم)

(٢٣ / النمل)

ولكن الأغلب والأعم هو ورودها بمعنى
الزوجة ، وتكون مقرونة باسم زوجها ،
كما فى الآيات التالية :

« إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي
نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا » .

(٣٥ / آل عمران)

« وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ
تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ » .

(٣٠ / يوسف)

« وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرْتُ عَيْنِي لِي
وَلَكَ » . (صدق الله العظيم)

(٩ / القصص)

الكهل ، الشيخ :

ويصل كل من الرجل والمرأة إلى دور
الكهولة ، ويطلق لفظ « الكهل » كما جاء
فى معجم ألفاظ القرآن الكريم على من
جاوز الثلاثين إلى نحو الخمسين وخطه
الشيب ، وقد ورد هذا اللفظ فى القرآن

أبيض وأسود :

نعرف جميعاً أن آدم عليه السلام ، وزوجته حواء كانا يعيشان في الجنة ولكنهما استمعا إلى وسوسة الشيطان وأكلا من الشجرة المحرمة ، فطردا من الجنة كما توضح الآية الكريمة التالية : « قَالَ أَهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ » . (صدق الله العظيم) (١٢٣ / طه)

ومنذ ذلك التاريخ السحيق وأبناؤهما يضربون في مجاهل الأرض ، من الشمال إلى الجنوب ، ومن الشرق إلى الغرب ، حتى امتلأت بهم الدنيا على سمعتها ، وأصبحوا يساغون الخمسة آلاف من الملايين على وجه التقريب ، كما أصبحوا شعوباً وقبائل ، يتباينون في صفاتهم وطبائعهم ، كما يتباينون أيضاً في لغاتهم وألوانهم ، كما توضح الآية الكريمة التالية :

« وَمِنْ آيَاتِهِ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاحْتِلَافُ أَلْوَانِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ » . (صدق الله العظيم) (٢٢ / الروم)

الكريم في آيتين فقط في معرض الحديث عن عيسى عليه السلام :

« وَيَكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهَادِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ » . (٤٦ / آل عمران)

« إِذْ أَيْدَتْكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهَادِ وَكَهْلًا » (صدق الله العظيم) (١١٠ / المائدة)

أما الشيخ فتعريفه في معجم ألفاظ القرآن الكريم « من الخمسين إلى آخر عمره ، وقيل إلى الثمانين » . وقد ورد هذا اللفظ في القرآن الكريم ثلاث مرات فقط في الآيات التالية :

« أَلِدْ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا » . (٧٢ / هود)

« لَأَنْسُقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرَّعَاءُ^(١) وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ » (٢٣ / القصص)

« ثُمَّ لِيَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِيَكُونُوا شُيُوخًا » . (صدق الله العظيم) (٦٧ / غافر)

(١) يصدر الرعاء — يسقى الرعاة دوابهم ويصرفوها عن الماء .

المقصود « بالألسنة » هنا هو « اللغات »
التي يتكلم بها بنو البشر في مختلف أرجاء
العالم ، كما هو معروف ، وقد أشرت في
حديثي السابق إلى أن اللغة إن هي إلا أصوات
ينطق بها اللسان ، فتستقبلها الأذن وتدرك
المقصود منها ، وأن الإنسان يتعلم في
طفولته جميع الكلمات التي ينطق بها كل
من يحوله من البشر ، أي أنه يتعلم اللغة
تعليمًا ، ولا يولد على معرفة بها على الإطلاق .

ولذلك فإن الطفل الصغير المصاب -
بالصمم لا يستطيع سماع الأصوات والكلمات
التي نتبادلها فيما بيننا ، ولذلك فإنه يصبح
فيما بعد من اليكم الذين لا يتكلمون ،
ونستطيع أن نتلمس العلاقة بين الصمم
والبكم في كثير من الآيات القرآنية -
الكريمة ، ومنها مثلاً :

« صَمٌّ بِكُمْ عُمَىٰ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ » .
(١٨ / البقرة)

« وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ
لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ » . (صدق الله العظيم)
(٧٨ / النحل)

أما الألوان فالمقصود بها على الأرجح لون
الجسم من بياض أو سمرة أو سواد أو غيرها
وقد وردت في القرآن الكريم عدة آيات
تدل على اللون عمومًا ، منها على سبيل
المثال :

« يَخْرُجُ مِنْ بَطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ
أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ » .

(٦٩ / النحل)

« فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا »

(٢٧ / فاطر)

« قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْنُهَا »

(صدق الله العظيم)

(٦٩ / البقرة)

وسوف أقصر هنا في كلامي على لون
الإنسان دون الألوان الأخرى ، ففي الأقاليم
الشمالية الباردة حيث تكون أشعة الشمس
ضعيفة نسبيًا ، ويكون عدد الأيام المشمسة
قليلاً على مدار العام ، نجد أن الجلد
لا يحتوي إلا على كمية قليلة من صبغ
الميلانين^(١) (Melanin) مما يؤدي إلى
بياض البشرة وإلى وجود العيون الزرق ،

(١) الميلانين صبغ أسود أو بني داكن يستقر داخل الجلد عند قاعدة البشرة في خلايا خاصة تسمى
خلايا الميلانين .

والشعر الأصفر ، كما هي الحال في البلاد
الإسكندنافية على سبيل المثال .

فإذا انتقلنا نحو الجنوب نجد أن لون
الجلد والشعر والأعين يزداد سمرة بالتدريج
حتى نشاهد اللون الأسود الداكن في المناطق
الاستوائية وهي المناطق التي لا تكاد تغيب
عنها الشمس طول العام ، كما تكون
الأشعة الضوئية في أعلى معدلاتها قوة ،
وانششاراً ، وهو ما يوضح لنا أن كمية
الصبغ الأسود الموجود في جلد الإنسان
يتناسب تناسباً طردياً مع كمية الأشعة
الضوئية التي يتعرض لها في حياته اليومية .

والواقع أن صبغ الميلانين له أهمية
قصوى في حماية أنسجة الجلد اللينة من
التأثيرات المدمرة «للأشعة فوق البنفسجية»
الموجودة في الشمس ، ولذلك تتكون من
هذا الصبغ طبقة داكنة تمنع وصول تلك
الأشعة إلى داخل الجلد ، ولذلك تكون هناك
اختلافات واضحة في كمية الميلانين
الموجودة في الجلد في مختلف السلالات
البشرية تبعاً للبيئات التي تعيش فيها كل
من تلك السلالات .

ويتضح من ذلك أن اللون الأسود نعمة
لا نقمة ، وحسنة لا سيئة ، قدرها الله
سبحانه وتعالى لعباده الذين يعيشون في
أقاليم قد تتعرض فيها جلودهم ، وبالتالي
أنفسهم للهلاك بفعل أشعة الشمس ،
فالمعروف أن الجلد هو خط الدفاع الأول
في وقاية الإنسان من « الغزو الميكروبي »
للجسم ، ولعل البيض في جنوب إفريقيا
يعون هذه الحقائق ، وتتفتح أبصارهم
وقلوبهم على الحق والعدل

تلك نبذة قصيرة عن « الإنسان في
القرآن الكريم » ، تناولت فيها قليلاً
من الحقائق المتعلقة بحياة هذا المخلوق
الذي كرمه الله سبحانه وتعالى ممثلاً في
آدم عليه السلام ، حيث طلب من
الملائكة أن يسجدوا له إجلالاً وتعظيماً ،
كما يتضح من الآية الكريمة التالية :

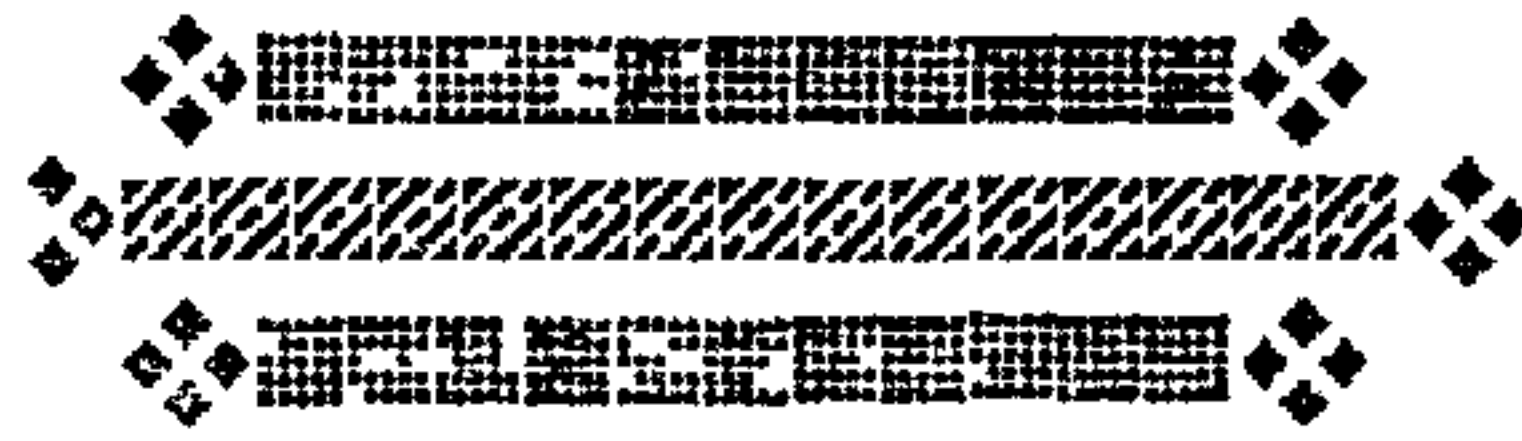
« وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ
فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ
مِنَ الْكَافِرِينَ » .

(صدق الله العظيم)

(٣٤ / البقرة)

ثم في قوله سبحانه وتعالى :
﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾
(٤ / التين)
توضح المنزلة الرفيعة التي اختصه بها ،
سبحانه وتعالى دون سائر المخلوقات .
ولعلّي أكون قد وفقت في عرض هذا
الحديث .
وغير ذلك من الآيات البينات التي

محمد رشاد الطوبى
عضو المجمع



المختصرات وطريقة أدائها باللغة العربية للدكتور عبد الكريم خليفة

يهدف هذه الكلمة إلى طرح قضية من قضايا كثيرة ، تخص اللغة العلمية العربية في العصر الحديث . وعلى الرغم من الجهود الخيرة التي قامت بها مجامع اللغة العربية ولا سيما مجمعنا بالقاهرة في مجال المصطلحات العلمية ، فإن قضايا اللغة العلمية لم تحط بعد بال العناية اللازمة ، وما زالت تنتظر مزيداً من الدراسة والتحليل في ضوء المعطيات والمناهج العلمية الحديثة ، ووضع الحوار المناسبة والقواعد الضرورية لإثراء اللغة العلمية العربية . والهدف الكبير الذي ما زلنا نتطلع إليه يتجسد في تحقيق ، تعريب العلوم والمعرفة ، وتصحيح العربية لغة التدريس الجامعي في مختلف مستوياته وفي جميع فروعها ، ولغة البحث العلمي والتقنيات الحديثة . وهذا الأسلوب وحده تستعيد العربية سيادتها في أوطانها . وتصبح عاملاً فاعلاً في رقي أمتنا وتحررها .

وإنه لمن البدهي القول باختلاف اللغة الأدبية عن اللغة العلمية من حيث أساليبها ووضوح مدلولاتها وتحديد مرادفها . فاللغة العلمية تتحدد بصورة رئيسية بالقواعد التي تنتظم منهجية المصطلح العلمي وأدوات التعبير الأخرى من رموز علمية ومختصرات ومعادلات رياضية وأشكال إيضاحية ورسوم بيانية وغيرها من أشكال الاحتزال ، والتركيب والرمز . . .

وقد بدلت جهرد كبيرة ، منذ مطلع هذا القرن . ولا سيما في العقود القليلة الماضية . في مجال وضع المصطلحات العلمية

(هـ) ألقى هذا البحث في الجلسة الثالثة من جلسات المؤتمر المنعقدة يوم الأربعاء ٣ من شعبان سنة ١٤١٠ الموافق ٢٨ من فبراير (شباط) سنة ١٩٩٠ .

باللغة العربية . وتحديد منهجية تركز إلى قواعد ومبادئ محددة ، تنظم عملية التعريب . وفي هذه العملية واجه علماءنا قضايا ومشكلات في النقل من اللغات الحديثة المتقدمة التي أنتجت هذا السيل الضخم من العلوم والمعارف الإنسانية في شتى المجالات . وبدأت المحامع اللغوية العربية وبعض المؤسسات العلمية والغياري من علماء هذه الأمة ، يتلمسون طريقهم للتغلب على هذه الصعاب . دون أن تكون هنالك سياسة محددة ومناهج واضحة ودقيقة ، متفق عليها ، تلتزمها الجامعات والمؤسسات العلمية العربية في التطبيق . وكان نتيجة ذلك ما أشار إليه زميلنا العالم الجليل الدكتور محمود مختار ، في محاضراته القيمة التي ألقاها في ندوة عمان التي عقدها اتحاد المجامع اللغوية العلمية العربية في المدة الواقعة بين ٢٧ من جمادى الأولى - ٢٩ من جمادى الأولى سنة ١٤٠٧هـ الموافق ٢٧ كانون الثاني - ٢٩ كانون الثاني - يناير سنة ١٩٨٧ م ، إذ يقول :

« ولكن يؤسفني أن أقول : إن هذه المعاجم (يشير إلى مانشر من معاجم

للمصطلحات العلمية) لم تخل من الشوائب التي أصابت اللغة العلمية ذاتها بشيء من الوهن والقصور ... والتي كان من آثارها ظهور المصطلح الواحد المتخصص ، بعدد من المقابلات العربية ، وهو ما ترفضه اللغة العلمية تماماً ، لما ينشئه من بلبلة ولبس بين العلميين ... »

وإن قضية الرموز العلمية العربية ، التي كانت موضوع الدراسة في تلك الندوة ، كانت في الواقع إحدى المشكلات التي واجهت مجمع اللغة العربية الأردني منذ أواخر السبعينات ، عندما بدأ حملته ، لتعريب التعليم العلمي الجامعي . فقد أقر المتخصصون أن الترجمة برموز أجنبية إنما هي مجرد ترجمة ، وليست تعريباً للعلم وإن التعريب ، إنما يتطلب إنبات العلم في بيئة عربية خاصة^(١) . وأن للرموز إيجازات خاصة لا تنقل بانتقال الرمز من لغة إلى أخرى .

وأدى تسارع الحركة العلمية منذ الحرب العالمية الثانية ، إلى دخول فيض كبير من المصطلحات العلمية والتسميات بكلمات

(١) انظر : مشروع مجمع اللغة العربية الأردني للرموز العلمية ، ص ٧ .

متعددة وعبارات طويلة في اللغات الأجنبية المتقدمة مثل - الإنجليزية والفرنسية ، والألمانية والروسية . وقد رأوا في مؤسساتهم اللغوية والعلمية أن ينشأوا عن تكرار هذه العبارات الطويلة ، توفيراً الموقت والجهد وتيسيراً للفهم والإفهام فلجأوا إلى أسلوب المختصرات (Abbreviations) ، وذلك بوضع أشكال معينة للتعبير عن المعنى بصورة رمزية مختزلة ، وفق قواعد محدّدة ومتعارف عليها ، فاختصروا الكلمات في حروف تكون عادة أوائل كلمات المصطلح .

لقد دلت نتائج البحوث اللغوية ، أن الاتجاه العام لجميع اللغات هو نحو تقصير الصيغ للكلمات . وأن هذا الاتجاه واضح كل الوضوح في مسيرة العربية عبر تاريخها التُّرْاثي الطويل . واعتبر « النحت » في العربية جنساً من « الاختصار » . فكانت العرب تنحت من كلمتين كلمة واحدة ، كقولهم : « رجل عبشمي » منسوب إلى اسمين ، وقولهم : « حيلة » من حَيٍّ على ، وتسارع هذا الاتجاه نحو « الاختصار »

بعد ظهور الإسلام ، فقالوا : « البسملة » من عبارة « باسم الله » ، و « الهيلة » من « لا إله إلا الله » ، والحوالة والحوالة من « لا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ » و « الحمدلة » من « الحمد لله » و « الجعفدة » من جعلت فداك والسبحة أي من « سبحان الله » ... وأصبحت « الحيلة » تعني قول المؤذن : « حَيٍّ على الصلاة ، حَيٍّ على الفلاح » (١) ...

وما زال « النحت » في اللغة يراوح مكانه في هذا المجال المحدود ، وهو مع ذلك يكون رافداً من روافد إماء العربية . وما فتئت العربية أن وجدت نفسها . منذ بداية القرن العشرين تستيقظ على طوفان من المصطلحات العلمية في مختلف مجالات المعرفة . ولذا كان على العربية أن تستخدم جميع أدوات التعبير من أجل استيعاب المصطلحات ، والمعاني الجديدة .. وكان النحت والاشتقاق والنقل والمجاز والاختزال والتركيب ، والتعريب ، من أهم الأدوات ، ولا سيما في موضوع إيجاد المقابلات العربية للمصطلحات والرموز العلمية والمختصرات ... وعلى

(١) انظر : السيوطي ، المزهري ، ح ١ ص ٤٨٢ - ٤٨٥ .

لرغم من دراسات التي عالجت هذه القضايا
الدعوية المهمة . إلا أنها لم تصل إلى مرحلة
التنظيم وفق قواعد محددة فكتيراً ما تختلط
مناهج أدوات التعبير مثل النحت والاختزال
والمختصرات والرموز .. إلخ . ولا سيما
أما ذات طبيعة متداخلة .

وللغة العربية تحريرة حصية في استعمال
مختلف أدوات التعبير هذه . وإن دراسة
هذه التجربة التراثية ، لتشكل أساساً في
وضع القواعد المحددة للإفادة من الاستعمال
النواسع للرموز والمختصرات العلمية في
العصر الحديث

شاع استعمال « المختصرات » في اللغات
الحية في هذا القرن . لا سيما منذ الحرب
العالمية الثانية . وهي في اللغات الأجنبية
المتقدمة تخضع لقواعد محددة ، بصورة
عامة . وتُستعمل عادة أوائل حروف
الكلمات التي تكون العبارة أو المصطلح .
وتكتب وفق نظام متمق عليه . وأصبح
هذا الأسلوب يجد طريقة إلى كتاباتنا

لعربية . ولا سيما العلمية منها في العصر
الحديث . ولكن غياب الدراسات اللغوية
لنواحي المختصرات ، هذه . وعدم

الترصّل إلى وضع قواعد تحدد استخدامها
في الكتابة العربية . قد أعاق انتشارها
من ناحية ، وأوقع الفوضى والتناقضات
من ناحية أخرى ، والعفوية والاجتهادات
الفردية ، ما زالت مع الأسف هي الطريق
الرئيسي . الذي تشيع من خلاله أدوات
التعبير العلمية الحديثة ، سواء أكان ذلك
في مجال العلوم التطبيقية والإنشائية أم في
مجال الحياة الحضرية .

فإذا كانت الرموز العلمية ، تتصف
بالخصوصية والثبات ، فإن « المختصرات »
تتصف بالشمولية والتغير إنها تتجاوز
مجال العلوم إلى دلالات الحياة بأوسع
معانيها . وهي في الوقت ذاته ، أداة تعبر
عن دلالات آنية . تحتفي من الاستعمال
باختفاء هذه المدلولات من واقع الحياة .
فهذا « المختصر » مثلاً الذي يدل على
حلف عسكري أو دولي معين ، يختفي من
الاستعمال بانتهاء هذه الأحلاف وتلك
المنظمات .

وأدت العفوية في دخول « المختصرات »
إلى الكتابة العربية الحديثة إلى فوضى في
الاجتهاد وتناقضات تصل إلى حد التفكك

أحياناً وأحياناً أخرى تفتح الباب إلى إدخال الحروف الأجنبية بلفظها الأعجمي في سياق الكتابة العربية وإن هذا الحال لشيء مؤسف حقاً ، والأمثلة على ذلك كثيرة .

لنأخذ مثلاً اسم إحدى المنظمات العربية والمختصرات التي شاعت للدلالة عليها ، فالمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ، أشاعت من حيث الواقع « المختصر » (ALECSO) وهذا المختصر بحروفه الأجنبية قد تطور من الكتابة بحروف كثيرة ، يفصل بينها النقط إلى كلمة واحدة ، إنجليزية اللفظ والدلالة ... ثم تجاوز الأمر إلى كتابتها بالحروف العربية (ألكسو) على طريقة التعريب من حيث إدخال الكلمة الأعجمية كما هي في العربية ، وتطبيق فواعد العربية عليها . لا شك أن هذا اللون من التعريب ، تقبله العربية من حيث المبدأ ويشكل واحداً من الروافد المهمة الكثيرة التي تمد العربية بالحياة المتجددة واستيعاب كل ما يصل إليه الفكر الإنساني من معارف وعلوم ولكنه في هذا المقام يدعو إلى العجب . وإن نظرة فاحصة

لهذا المسار الذي سلكته « المختصرات » ، على نهج المثال الذي أوردناه تسين لما مقدار عقم هذا الأسلوب ، وتناقضه واستخفافه برواق العربية وخصوصياتها من حيث هي لغة دامية ومتطورة . فإن حروف (ALECSO) ، هي الحروف الأولى - للكلمات التي يتألف منها اسم المنظمة العربية باللغة الإنجليزية وهو : Arab League Educational Cultural and Scientific Organization

وإن كل حرف يوحي باللفظة التي ينتسب إليها ، وأنه بسبب الشبوع أصبح المختصر كلمة واحدة ، وسقطت النقط ، ومع ذلك بقيت إلى حد ما موحية تذكر بأصولها الإنجليزية . ولكنها عندما انتقلت إلى العربية بلفظها الأعجمي ، وكتبت بالحروف العربية (ألكسو) أصبحت لمحة صماء ، مقطوعة الجدور والأصول ، فصلا عن الهجئة التي تكتنفها .

ومثل ذلك يقال في « المختصر » الذي أشيع استعماله في تسمية « المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة » . فقد سلك « المختصر » الأسلوب ذاته وسار على الطريق إياه . فقد وضع « المختصر » لاسم المنظمة

باللغة الإنجليزية واسمها باللغة الإنجليزية هو :

Islamic Educational, Scientific and Cultural Organization

فوضع المختصر بأن أخذ الحرف الأول من كل كلمة من هذه التسمية ماعدا حروف العطف فأصبح على هذا الشكل : (I.S.E.S.C.O.) ثم سقطت النقط ليكون كلمة واحدة مؤلفة من الحروف الكثيرة فأصبحت هكذا (ISESCO) ، ثم وجدت طريقها مع الأسف إلى الكتابة العربية بلفظها الأعجمي فأصبحت تكتب بالحروف العربية (اسيزكو) .

سار هذا الأسلوب في هذين المختصرين على غرار الأسلوب الذي اتخذته منظمات الأمم المتحدة السياسية والثقافية والاقتصادية والاجتماعية... وإن المثالين اللذين أوردناهما قد استوحيا تسمية المنظمة الدولية (U.N.E.S.C.O.) . فقد شاع هذا «المختصر» ، ودخل في كتابة جميع اللغات تقريباً في العصر الحديث . ودخل فيما دخل في الكتابة العربية ، وقد عُرِّب بكتابته بالحروف العربية . وإدخال « ال » التعريف عليه .

ونحن نجد في هذا المسار ، أسلوباً صحيحاً ، وطريقاً سليماً في استيعاب العربية هذه المختصرات التي أصبح لها وجود عالمي والأمثلة كثيرة على ذلك . فقد أصبح كثير من هذه المختصرات كلمات لا توحى بأصولها ولا تنم عن جذورها ، وبدأت تكون مصطلحات ذات دلالات علمية محدّدة مثل : الليزر والإيدز... إلخ

وإنه لمن العبث الذي يدعو إلى الاستهجان والحزن عندما تستعمل كثير من الأدبيات في الوطن العربي اسم « اليونسكو العربية » للدلالة على « المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم » أو « اليونسكو الإسلامية » ، للدلالة على المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة ... أو أنها تشيع المختصرات بألفاظها الأعجمية مكتوبة بحروف عربية !

ونحن نعتقد أن هذه الفوضى التي تكتنف المختصرات ، مثل ماتكتنف كثيراً من أدوات التعبير الحديثة ، وهذا التخبط الذي نلمسه في أساليب استخدامها يهيب بنا إلى دراسة جميع المشكلات الخاصة بأدوات التعبير ، والأساليب التي تغني العربية وتجعلها قادرة على مواكبة المسيرة.

العلمية الحديثة ، في عصر التفجر العلمي ،
ونحن نحث الخطى نحو فجر القرن
الحادى والعشرين ..

فإشاعة أسلوب « المختصرات » في
كتاباتنا العربية يقضى بأن تأخذ المجامع
والهيئات اللغوية العربية على عاتقها دراسة
المشكلات التى تنشأ عن دىوع استخدام
المختصرات ، ووضع قواعد محددة تنظم
كيفية صياغتها ، وإضفاء رونق العربية
عليها ، ونظمها فى سياق الجملة العربية
السليمة . فيتناول البحث المختصرات
الأجنبية التى شاع استعمالها فى حياتنا
العامة مثل : اليونسكو والليزر ... إلخ ،
وكذلك المختصرات التى تتداولها اللغات
الأجنبية المتقدمة ، ولما يشع استعمالها فى
لغتنا . فما السبيل إلى استيعابها ؟ أىكون
ذلك بأخذ هذه المختصرات بحروفها ،
الأعجمية أم المحافظة على نطقها الأعجمى
وكتابتها بالحروف العربية ؟ وهل تكتب
هذه الحروف العربية بشكلها المقطع ،
مفصولة بعضها عن بعض ، وهل تكون
الفاصلة نقطة أم شولة ! أم أن تكتب هذه
الحروف العربية بشكلها المتصل مكونة
كلمة أو مقطعا من كلمة !

وربما نتحول إلى أسلوب آخر ، ينطلق
من ترجمة المصطلح أو الاسم إلى العربية ،
سواء أكان مؤلفاً من كلمة واحدة أم عدة
كلمات ، وأن يؤخذ الحرف الأول من كل
كلمة عربية ، بعد تجريد هاء من ال التعريف
ويكون من أوائل هذه الكلمات مجموعة
من الحروف ، تكتب بشكلها الهجائى
المقطع (ا . ب ت ث ج ... إلخ) وهنا
أيضاً يرد التساؤل ، فهل يكتب المختصر
بهذه الحروف المقطعة مع فواصل بينها ،
سواء أكانت نقطة أم شولة .. أم أنها
تكتب دون فواصل ، ويجرى نطقها بأسماء
الحروف (ألف باء جيم دال ... إلخ) ،
أم أنها تكتب بالحروف المتصلة وتنطق
كلمة دالة على معنى اصطلاحى معين ؟
لنأخذ مثلاً على ذلك وليكن المختصر
(حماس) فهو « مختصر » (حركة
المقاومة الإسلامية) ... إلخ ، وربما كان
لطبيعة الحروف المحتمة وما تؤديه أحياناً
من لفظ . يخف على السمع ويسهل على
اللسان ، دور فى صياغة المختصر على شكل
ألفاظ مقبولة أو بقائها حروفاً تنطق
بأسمائها (حاء ، ميم ، سين) ، وإذا كان
الإجماع تاماً على تحريد الأسماء من ال

التعريف ، عندما يؤخذ الحرف الأول من كل منها ، فإن التساؤل ما زال باقياً حول حروف الجر وأدوات الشرط والاستفهام والضمائر المنفصلة وأسماء الإشارة والأسماء الموصولة وظروف الزمان والمكان ... إلخ ، التي قد تولف جزءاً من تلك التسمية ، أو ذلك المصطلح الذي نريد وضع « مختصر » له . وربما تدعو الحاجة إلى استعمال « النسبة » إلى هذا الاسم أو المصطلح ، فكيف تتم النسبة ؟ ومتى تستساغ النسبة إلى « المختصر » ؟ ومتى يمكن أن تكون النسبة إلى التراكييب والعبارات ؟ وما هي القواعد اللغوية التي تصبى ذلك كله ؟ ... إلخ .

وجملة القول ، فإن ذلك كله يتطلب من المجامع اللغوية العربية وضع قواعد محدّدة ومنهجية مازمة ، يتم الاتفاق عاينها تحدد طريقة وضع « المختصرات » .
وغيرها من أدوات التعبير التي راح استعمالها في اللغات الأجنبية المتقدمة ، وتوضح أساليب استعمالها في الكتابة العربية .
وقد هداني الاهتمام بهذا الموضوع والاطلاع على بعض ما كتب حوله ، قديماً وحديثاً

أن أتقدم إلى مؤتمري العتيد ببعض الأفكار التي يمكن أن تشكل الخطوط العريضة لقواعد محدّدة يتم الاتفاق عليها ، تنظم طريقة أداء « المختصرات » وكيفية استعمالها باللغة العربية وقبل أن أجمل هذه الأفكار ، أقول :

عرّفت العربية منذ تاريخها المكر أدوات التعبير المحتاجة من رموز ومختصرات وغيرها ولكن ظروف استعمالها كانت محدودة في مجالات معينة . وإن التطور العلمي الحديث وتفجر المعرفة وتسارعها ، يحتم علينا إيجاد قواعد محدّدة يلتزم بها في وضع الرموز والمختصرات وتعميمها في الكتابة العربية ، من أجل أن تفي العربية بمتطلبات العصر الحديث وتواكب مسيرة اللغات الأجنبية المتقدمة . فالعربية الخالدة ، لغة القرآن الكريم ، ثابتة من حيث نحوها وصرفها ، ولكنها لغة نامية . ومتطورة من حيث أساليبها ومفرداتها فلها من حصائصها الذاتية وأدوات التعبير ، ما يجعلها قادرة على استيعاب كل ما يحد من معارف في مختلف العصور

وإنني إذ أعزو الفضل لأصحابه من

العلماء والباحثين الذين تناولوا هذا الموضوع من جوانبه المختلفة ، لأود أن أورد القواعد العامة التي ربما تصلح أن تكون منطلقاً ، للاتفاق على قواعد محددة توضح كيفية وضع « المختصرات » وأساليب استعمالها في الكتابة العربية ، وذلك على الشكل التالي .

أولاً : يؤخذ ما جاء في التراث من « مختصرات » كما هي ، سواء أكانت عن طريق النحت أم عن طريق التركيب أو الاختزال أو الرمز ، باعتبارها تقليدية سماعية ، لا يقاس عليها ، ولا نخضعها لقواعد « المختصرات » الحديثة ، مثال ذلك . البسملة والحوقة ، والحمدلة والحيعة ... إلخ . ونقول بعدم القياس في وضع هذه الكلمات ، كي نتجنب الخروج عن القاعدة والدخول في فوضى الاجتهادات الفردية .

ثانياً : قبول « المختصرات » الأجنبية التي أصبح لها وجود عالمي في اللغات المتقدمة ، وإدخالها في الكتابة العربية باعتبارها كلمات أعجمية ، دون النظر إلى أصولها أو إيجازاتها . وتكتب بالحروف

العربية المتصلة ، وذلك على سبيل « التعريب » . وتحرى عليها قواعد العربية من حيث التعريف والتنكير والتثنية والجمع والنسبة عند الحاجة ، ومن حيث السياق والتركيب ، فنقول : اليوننسكو والليزر والرادار والإيدز . . إلخ ، ونقول في النسبة : « الليزري والراداري واليونسكي . . إلخ » .

ثالثاً : قبول « المختصرات » الأجنبية لأسماء الأعلام ، كما هي ، وكتابتها ، بالحروف العربية وفق نطقها الأعجمي . رابعاً : يوضع « المختصر » للتسميات العربية ، سواء أكانت هذه التسميات عربية الأصل والمنشأ أم أنها تستعمل في الدوائر الرسمية أو الجيش أو المؤسسات العامة والخاصة أو الشركات أو يكثر استعمالها وتردادها في الحياة العامة ، وذلك وفق القواعد التالية :

١- يؤخذ الحرف الأول من كل اسم بعد تجريده من « ال » التعريف ، ومن كل كلمة بعد تجريدها من « الزوائد » . ويكتب المختصر بالحروف المنفصلة دون وضع إشارة فصل بينها . وتلفظ الحروف

العربية بأسمائها ، فنقول مثلاً : (جيم ميم عين) ، عند كتابة (ج م ع)^٣ . وإذا كان المختصر يشكل كلمة واحدة سهلة اللفظ ، سائغة الاستعمال ، فتكتب بالحروف المتصلة ، وتلفظ الحروف ، بأصواتها في بنية الكلمة . فنقول مثلاً : « مآب » بدلاً من « مؤسسة آل البيت »

وإذا كان المصطلح أو الاسم كلمة واحدة يؤخذ الحرف الأول والثاني من الكلمة ، بعد تحريرها من ال التعريف والزوائد . ويكتب بأشكال الحروف المتصلة ، وتلفظ الحروف بأسمائها فنقول :

« سين ميم » للمختصر « سم » بدلاً من « سنتيمتر » .

و « تاء عين » للمختصر « تع » بدلاً من « تعاونية » .

و « ميم خاء » للمختصر « مخ » بدلاً من « مخطوطة » .

ومكذا ...

٢ - لا ينظر في العبارة التي تكون التسمية أو المصطلح ، إلى حروف الجر والعطف وأدوات الاستفهام والشرط والتنبية ،

وأدوات النداء ، ولا إلى الضمائر وأسماء الإشارة والأسماء الموصولة . . .] :

٣ - يؤخذ الحرفان الأول والثاني من الكلمات الدالة على الظرف ، وتلفظ الحروف بأصواتها أي باعتبار بنية الكلمة وتكتب بالحروف المتصلة ، مثال ذلك :

« قَبْ » بدلاً من « قبل » .

و « تَحْ » بدلاً من « تحت » .

و « شَمْ » بدلاً من « شمال » .

و « بَعْ » بدلاً من « بعد » .

خامساً : وبالنسبة للمختصرات الأجنبية

التي تدعو الحاجة إلى استعمالها في الكتابة العربية ، فيتم ترجمة المصطلح أو التسمية كما هو في الأصل ، إلى اللغة العربية . ثم يعامل في كيفية وضع « المختصر » ، معاملة التسميات العربية كما ورد في البند الرابع . مثال ذلك : المختصر الانجليزي (M.O.) يعنى بدلاً من المصطلح الانجليزي (Money Order) ، فيترجم هذا المصطلح إلى العربية ، ويصبح : « حوالة مالية » ، ثم يوضع له المختصر باللغة العربية ، وفق القواعد التي ذكرناها

فيكون على الشكل التالي (ح م) ويلفظ.
بأسماء الحروف أى : (حاء، ميم) ...

وإذا كان المصطلح أو الاسم كلمة واحدة
وأردنا أن نضع له مختصراً ، فتجرب عليه
القواعد نفسها التي ذكرت سابقاً . مثال
ذلك : فإن المختصر « باللغة الإنجليزية »
(M.S.) يعنى بدلاً من التسمية الإنجليزية
(Manuscript) . يترجم هذا المصطلح
الأنخير إلى العربية فيصبح « مخطوطة » ،
ننضم يوضع له « المختصر » باللغة العربية :
« مخ » ، بأن يؤخذ الحرف الأول والثاني
من كلمة « مخطوطة » ، ويكتبان
بالحروف المتصلة ، ويلفظان حسب أسماء
الحروف ، وقد يوحى « المختصر » ، بأن
تلفظ عبارة المصطلح بكاملها ، إذا أصبح
ذلك شائعاً ، كما هو الحال في مختصر (ص) .
فيكون النطق دائماً بلفظ العبارة « صلى الله
عليه وسلم » . وهنا يتداخل مفهوم
« الرمز » مع مفهوم « المختصر » ...

سادساً : الالتزام باستعمال قواعد وضع

« المختصرات » واستعمالها في الكتابة
العربية ، وأن تحتوى المعاجم والموسوعات
والكتب العلمية العربية المتخصصة والعامة

نبتاً بالمختصرات التي استعملت في هذه
المصنفات ، ترجمة أو تأليفاً ...

سيدى الرئيس الجليل ، أيها الأساتذة
العلماء ، لا أزعج أننى أتيت بشئ جديد ،
بما عرضته من أفكار عامة وخطوط عريضة
في محاولتي تلمس الطريق في هذه المسألة
اللغوية ، ولكننى أرجو أن أكون قد وفقت
في جلب الانتباه إلى ضرورة دراسة
المشكلات التي تواجهها العربية ، ونحن
نستشرف القرن الحادى والعشرين ، حيث
يلوح في الأفق البعيد فجر حضارة جديدة .
وإن أمتنا العربية المدعوة إلى اللحاق بركب
الحضارة ، والمشاركة المبدعة فيها ، وأنه
لا يجوز لها التخلف أو التقصير والاختلاف
بالقضية تمس هويتها ووجودها الحضارى .
وإنها مدعوة بكل إمكاناتها ، لتجاوز مرحلة
التبعية الفكرية والاستعمار العلمى الذى
أبعد العربية من أن تمارس سيادتها في
أوطانها ، وأن تكون لغة التدريس العلمى
الجامعى ولغة البحث العلمى في جميع
مستوياته ، ولغة التقنيات الحديثة .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

عبد الكريم خليفة
عضو المجمع (من الأردن)

المصادر

- ١- إبراهيم السامرائي ، المختصرات والرموز في التراث العربي ، مجلة مجمع اللغة العربية الأردني ، العدد (٣٢) ، عمان ، سنة ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م .
- ٢- سيد رمضان هدارة ، المصطلح العلمي بين الترجمة والتعريب . ندوة عمان (اتحاد الجامعات اللغوية العلمية العربية) ، سنة ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م
- ٣- عبد الرحمن جلال الدين السيوطي ، المظهر في علوم اللغة وأنواعها ، ج ١ - ٢ ، القاهرة سنة ١٣٧٨ هـ - ١٩٥٨ م .
- ٤- عبد المجيد نصير ، منحوتات البدوء . مجلة مجمع اللغة العربية الأردني ، العدد (٣٢) عمان سنة ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م .
- ٥- مجلة « اللسان العربي » ، مكتب تنسيق التعريب بالرباط ، العدد الرابع والعشرين .
- ٦- محمود شكري الألوسي ، كتاب النحت وبيان حقيقة ونبله من قواعده ، تحقيق محمد بهجة الأثري ، بغداد سنة ١٤٠٩ هـ - ١٩٨٨ م .
- ٧- محمود مختار . اللغة العملية العربية . سماتها ومفرداتها ورموزها . ندوة عمان (اتحاد الجامعات اللغوية العلمية العربية) سنة ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م
- ٨- مشروع مجمع اللغة العربية الأردني للرموز العلمية العربية ، عمان - سنة ١٩٨٥ م .
- ٩- نهاد الموسى . النحت في اللغة العربية ، الرياض سنة ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٤ م .

شعراء مغمورون :

فَارِجَةُ بن فليح الممللي

للاستاذ عبد العزيز أحمد الرفاعي

مقدمة :

الجودة أغرتني أن أتتبع أخباره ما استطعت
بل رأيت ثناء على شعره من بعض الرواة
يُغري بذلك التتبع ، فمارعتني رغبة جامعة
إلى إنصافه ، وجمع أخباره وأشعاره ، وهي
رعة كثيراً ما تستند بي كما وجدت
عبقرية يتكاثر عليها الظلام ليغطي من
لمعائها ، ويحجب من شعاعها .

ولا أزعج أنني بلغت في استقصاء أخبار
هذا الشاعر المدي ، أو انتهيت إلى آخر
الشوط ، ولكنني بذلت ما تيسر لي من جهد .
مؤملاً أن تكون هذه بداية بحث أستكماله
أو يستكماله غيري .. وحسبي الآن من
القلادة ما أحاط بالعنق

والله الموفق .

حارجة بن فليح الممللي شاعر حمازي مُحمّد
عاش في القرن الثاني للهجرة ، لم تتحدّث
عنه كثيراً كتب الأدب الشهيرة ، خاصة
منها الكتب التي عُنيّت بتراجم الشعراء
وطبقاتهم ، فلا ذكر له في (الشعر والشعراء)
لابن قتيبة ، ولا في (طبقات الشعراء)
لابن سلام ، ولم يذكره الزركلي في أعلامه ،
ولا المرزباني في (معجم الشعراء) .. ولأنكاد
نجد له اسماً إلا في مصادر نزرّة . وهذه
لاتورد من أخباره وأشعاره إلا الشيء القليل
الذي لا يشفي الغليل . ونجد أحياناً اسمه
في بعضها قد تصحّف وتحرف ، وجاء المكي
بدلاً من الممللي ، وسيرد الحديث عن ذلك
مفصلاً فيما بعد .

وقد رأيت في شعر هذا الشاعر سمات من

(*) ألقى هذا البحث في الجلسة الرابعة من جلسات المؤتمر الممّعة يوم السبت ٦ من شعبان سنة ١٤١٠ هـ الموافق ٣ من مارس آذار سنة ١٩٩٠ م .

الفصل الأول

ترجمته وأخباره

— اسمه ونسبته :

— والده :

— تصحييف نسبته في المصادر :

— عصره وأخباره :

— مكانته الشعرية :

— اسمه ونسبته :

الجليل (محمود شاكِر) ما هو إلا بعضُ الكتاب لا كله ، وبقي منه بعضٌ لم ينشر بعد ، على نفاسة الكتاب وقيمته الكبرى للتاريخ الأدبي ، وهناك بعضٌ منه ذهبت به الأيام .. فلا يُدرى أين هو ؟

نعرف من الجزء الذي نشر : نسب الشاعر . فهو خارجة بن فليح بن إسماعيل ابن جعفر بن أبي كبير (١) .

ونعلم أنه مولى أسلم . . ذكر ذلك أبو عبد الله محمد بن داود بن الجراح (ت ٢٩٦ هـ) في كتاب (الورقة) ص ٧٤ ، حيث قال : « خارجة بن فليح المَلَى ، مولى أسلم ، حجازي ، شاعرٌ مجيد

إن ندرة أخبار الشاعر ، وتبعثرها هنا وهناك بين مصادر القليلة لم تتح لي معاومات كافية عنه ، فلا حديث عن تاريخ مولده ولا تاريخ وفاته ، ولا ملامح بارزة من حياته ، وليس في مُكنة الباحث إلا أن يستنتج فحسب الفترة الزمنية التي عاش فيها من تلك الأخبار الواردة من معاصريه أو ممدوحيه .

وأقدم من ذكره فيما انتهى إلينا من مصادر هو (الزبير بن بكار) في كتابه (جمهرة نسب قريش) ، فقد كانت وفاته ٢٥٦ هـ ، على أن هذا الكتاب لم يصل إلينا كاملاً ، وما نشره منه الأستاذ الباحث

(١) ص ١٠٨ ، حيث جاء هذا النسب عن (فليح) وقال الأستاذ (محمود شاكِر) محقق الكتاب كأنه هو أبو خارجة بن فليح المَلَى .

كثير الشعر» وقد ذكر (البكرى) (١) في شرح أمالي القالي ص ٦٥ أن فليحا المَلَى هو مولى أسلم

وتدلنا نصوص الزبير بن بكار . أن نسبته (الملى) ، كما جاء في ص ١٣٥ منه حيث قال « وقال خارجة بن فليح المالى يمدح (عبد الله بن مصعب) . ويفسر (البكرى) في شرح الأمالى ص ٦٥ معنى (مَلَى) التى ينتسب إليها الشاعر فيقول : « ملل التى ينسب إليها على مقربة من المدينة فى شق (الروحاء) »

أى أن (ملل) اسم موضع لا اسم رجل أو قبيلة

وأوسع من تحدث عن (ملل) من البلدانيين القدامى هو (البكرى) نفسه فى كتابه الآخر (معجم ما استعجم) فى مادة (الميم واللام) ، ونص أن خارجة بن فليح ينسب إليها ، وجاء بشاهد من شعر جعفر ابن الزبير يرثى ابناً له مات بملل هو قوله .

أحزن على ماء العشيرة والهوى

على ملل ، يالهف نفسى على ملل

وقال : إن الفرش والفريش من مَلَل ، ويدل على قربها من المدينة . ما رواه البكرى أيضاً من أن عثمان بن عفان رضى الله عنه ، صلى الجمعة بالمدينة . وصلى العصر بملل .

ويقول (ياقوت) فى (معجم البلدان) إنه منزل على طريق المدينة إلى مكة على بعد ثمانية وعشرين ميلاً من المدينة . وهو واد ينحدر من (ورقان) جبل مَزِينة . حتى يَصُب فى (الفرش) فرش سويقة .

أقول . والفرش والفريش لا يزالان معروفين بهذا الاسم حتى اليوم . وكان الفريش على الطريق القديم للسيارات بين مكة والمدينة . وقد مرت به . وهو على مقربة من المدينة المنورة .

وقد ورد ذكر (الفرش) فى شعر الشاعر نفسه :

سقى حصبات الفرش كلُّ مُجَلِّحٍ
له نَصْدٌ من مزنه ، وصبير

والده :

إن المصادر التى بين يدي لا تزيد عند

(١) الوزير عبد الله بن عبد العزيز البكرى الأونى ت ٤٨٧ هـ - ١٠٩٤ م .

ذكر الله عن أن تقول إنه (خارجة
بن فليح) . ولا نعلم أي (فليح) هذا ،
وذلك الأستاذ (محمود شاكِر) محقق
كتاب (جمهرة نسب قريش وأحبارها) .
وهو العمدة في أخبار (خارجة) توقف
عند الفقرة (٢١١) من هذا الكتاب .
ص ١٠٨ . فعاق في الهامش بما يدل على
أنه يرجح أن فليحاً هو فليح بن إسماعيل
ابن جعفر بن أبي كبير .

ولكى تتضح الصورة تماماً . فإني أورد
نص هذه الفقرة وتعليق شيخنا عليها .

« ٢١١ - وابنه ثابت بن الزبير بن
نجيب . وكان يتبلى بالرائع . فزاره
فليح بن إسماعيل بن جعفر بن أبي كبير .
فقال فليح :

عنيتم يا ثابت بن الزبير
جئستنا جوب حرار وعور
سقياً نجـئيك وجديهما
ومن له جئكم مثل الزبير »

هذه هي الفقرة ، أما التعليق ، فقد قال
أستاذنا عن فليح : كأنه هو أبر (خارجة
ابن فليح الملقب) .

فإذا صح هذا ، وأحسبه صحيحاً ، فيكون
والد خارجة شاعراً

ولقد وجدت لفليح بن إسماعيل ذكراً
في (مجالس ثعلب) ص ٩٤ ، في هـ . هذا
الخير :

« أخبرنا محمد قال : وثنا أبو العباس
قال : حدثني عبد الله قال : حدثني محمد
ابن عيسى . عن فليح بن إسماعيل قال ؛
حدثني عبد الله بن صالح سنة اثنتين وستين
ومائة قال . حدثني عمي سليمان بن علي ،
عن عكرمة قال : إني لمع ابن عباس بعرفة
إذ فتية أذمان^(١) يحمأون فتى في كساء ،
معروق الوجه ، ناحل البدن ، له حلاوة ،
حتى وضعوه بين يدي ابن عباس وقالوا :
استشف له يا ابن عم رسول الله . قال :

(١) لانه . اسم .

فقال ابن عباس . وما به ؟ فأنشأ الفتي
يقول :

بنا من جوى الأحزان والوجد لوعة

تكاد لها نغمس الشفيع تذبذب

ولكنما أبقى حشاشة معول

على ما به عود هناك صليب

فأقبل ابن عباس على عبد الله بن حميد

ابن زهير بن الحارث بن أسد بن عبد العزى

فقال : أخذ هذا البدوى العود^(١) علينا

وعليك . قال : فحملوه فخفت في أيديهم

فمات . فقال ابن عباس رحمه الله : هذا

قتيل الحب ، لا عقل ولا قود . قال

عكرمة : وما رأيت ابن عباس سأل الله

عز وجل في عشيته حتى المساء إلا العافية

مما ابتلى به الفتي « اه .

ونرى من هذا الخبر أن فليح بن إسماعيل

يحدد سنة روايته ، بسنة اثنتين وستين

ومائة ، وهى الفترة التى عاش بها خارجة .

فاحتمال أنه أبوه ليس مستبعدا .

(١) المراد الصلابة .

(٢) ج ١ - ٢٣٥ .

على أن لهذا الخبر بقية فى كتاب الأغاني
٢٠-١٥٨) هى :

« قال : وسألنا عنه فقل هذا عروة

ابن حزام » .

ولهذا الخبر دلالة فى عناية (فليح

بن إسماعيل) بأخبار الأدب ، مما ينم على

نزعة أدبية ورثها عنه ابنه الذى أصبح

شاعرا .. حاز إعجاب فريق من نقاد الشعر

فى عصره

تصنيف نسبته فى المصادر *

أشرت أن هناك تصحيفا فى نسبه ..

جعل له المكى بدلأ عن الملى ، وقد جاء هذا

التصحيح فى (مجالس ثعلب)^(٢) ، ومع

أن محقق الكتاب هو العلامة المدقق الأستاذ

عبد السلام هارون ، فإنه لم يتعرض لهذا

التصحيح ، بل لم يترجم للشاعر ، أو يدل

على مصادره خلافا لعادته ، ولم يصلح ذلك

فى كتابه (تحقيقات وتنبيهات فى معجم

لسان العرب) ص ١١٠ ، ولكنه عاد فأثبت

الصواب فى تحقيقه الرائع لخزانة الأدب

١٠ / ٤٥٢

وهذا التصحيح وجدته في كتاب
(الأغاني) لأبي الفرج الأصفهاني
(ت ٣٥٦ هـ) ، فقد جاء في ج ٢٠ / ١٥٧
في رواية عن سليمان بن عبد العزيز بن عمران
الرهوي « قال . حدثني خارحة المكي أنه
رأى عروة بن حزام يطاف به حول البيت
قال : فدنوت منه فقلت : من أنت ؟
فقال : الذي يقول :

أفي كل يوم أنت رامٍ بلادها
بعينين إنسه - إناهم - غرقان
ألا فاحملاني بارك الله فيكما
إلى حاضر الروحاء ثم دعاني (١)
فقلت له : زدني ، فقال : لا والله
ولا حرفاً . اه .

هكذا النص في الأصفهاني . ومما يستوقف
النظر فيه ، أن خارحة المكي لا يمكن أن
يكون قد رأى عروة بن حزام ، لأن وفاة
هذا كانت سنة ٣٠ للهجرة ، وعاش
خارحة إلى أواخر القرن الثاني للهجرة .
فلعل هناك راوياً سقط أو أكثر من راو
بعد اسم خارحة .

ومما يستلفت النظر جداً أن الأصفهاني
لم يذكر شيئاً عن الشاعر المكي ، رغم كثرة
رواياته عن الزبير بن بكار ، الذي أورد
مصرصاً شعرياً لخارحة ، بل كان (جمهرة
سبب قريش) هو أكثر المصادر القليلة
إيراداً لأشعاره .

وأشار الأستاذ الدكتور (عبد الله
الحجوري) في هامش الصفحة ٣٤٢ تعاقباً
على الفقرة ١٥١ الخاصة بخارحة بن فليح
المكي ، من كتاب (التذكرة السعدية في
الأشعار العربية) تأليف (محمد
ابن عبد الرحمن بن عبد المجيد العبيدي)
من رجال القرن الثامن الهجري ، وقد
حققه - أشار إلى ورود النسبة في (مجالس
ثعلب) المكي ، وأعقب ذلك بقوله :
« ولعله الصواب » ، قات : بل الصواب
هو المكي .

والأستاذ العلامة (عبد العزيز الميمني)
وهو الذي حقق كتاب (سبط الآلي)
في شرح أمالي القالي ، عاق في هامش
الصفحة ٦٥ التي أشرت إليها من قبل ،
بعد أن أشار إلى ورود اسم خارحة بنسبه

(١) (الروحاء) كما سلف أن شرحت في حوار ملل .

(الملكى) فى ج ٢٠-١٥٧ من الأغاى .
فقال : « إياه ورد مصححاً إلا أن المصحف
لم يبعد لقرب ملل من مكة » .

وأقول : بل لقد أبعاد المصحف ، إن
كان خارجة هذا هو خارجة بن فليح لأن
موقع ملل فرب المدينة - كما بينت من
قبل - وهو يبعد عن مكة ، وإن كان على
الطريق إليها ، فلا تصبح نسبته إلى مكة .

وإذا ذكر الذى همش على كتاب (الأمالى)
ح ١٤/١ ، معلقاً على كلمة (المللى) بأنه
لم يبعد هذه النسبة فى كتب الأنساب .

أما الدكتور (حمود عبد الأمير الحمادى)
الذى حقق كتاب (التعليقات والنوادر)
لأبى على هارون بن زكريا الهجرى (ت نحو
٣٠٠ هـ / ٩١٢ م) ، فقال معلقاً على نص
منسوب إلى (المللى) ، ولم يذكر المؤلف
اسمه : « لم أهتم إليه لعدم الإفادة
عنه » ، وألتمس له العذر ، فكتب الأدب
الكبيرة ضئيلة بذكره .

عصره وأخباره :

نستطيع أن نستنتج من بعض رواية
فليح بن إسماعيل ، ومن مدائح ابنه خارجة
لبعض مشاهير ورجالات عصره - فى

موطنه - أن خارجة عاش بين القرنين
الثانى والثالث للهجرة ، على عهد الخلفاء
المؤسسين من بنى العباس . كالمهدى -
والمصور ، وهارون الرشيد . وهو عهد
مزدهر بالعلم والأدب والشعر .

ومادام لا نجد فى المصادر المتوافرة
معلومات كافية عن شاعرنا . فلنلتصم
هذه المعلومات بقدر الإمكان من شعره . ومن
مناسبات هذا الشعر .

مما يدلنا عليه شعره . أنه كان وثيق
الصلة ببني مصعب من الربيريين . أى
بعبد الله بن مصعب ، وأبى البكار . وهذا
توليا إمارة المدينة المنورة على التتابع أيام
هارون الرشيد ، وكان يمدحهم . ونجد فى
ذلك أكثر من نص . من ذلك قصيدة رائية
طويلة ، يمدح فيها عبد الله بن مصعب
(جمهرة نسب قريش ١ / ١٣٥) . وسيرد
بعضها فى النصوص إن شاء الله تعالى . فقد
صرح صاحب الجمهرة أنها أكثر مما أورد ،
وفيهما يقول له :

لعمرك ما سُدَّتْ على مواردى

الديك ولا ضاقت على المصادر

مما يدل على أنه كان يتردد عليه .
ويمتدحه . ويرتفق بأعطياته ، وذلك
شأنه أيضا مع ابنه أبي بكر أو البكار ،
وقد وليا إمارة المدينة المنورة بالتعاقب .
والدُّ ثم الابن .

ونجده في غزله يلهج بذكر (ليلى) ..
فلا ندرى أهو اسم محبوبته حقا ؟ أو أنه
يتخذ من هذا الاسم رمزا ، ليكتم الاسم
الحقيقى تجنباً للتشهير به :

وأقنع من ليلى بأصقاب دارها
وأخدع فيها بالمنى وهى باطلُ
ويقول :

ألا طرقت ليلى لقي بين أرحل
شجاء الهوى والنأى فهو عميدُ
ويقول :

أحن إلى ليلى وقد شط وليها
كما حنَّ محبوسٌ عن الألف نازع
ويقول :

ومانلت من ليلى وفاءً بعهدها
ومانلت منها العهد إلا تضرعا

ويقول وقد أبدع .

فقد جعلت دواوين الغواني
سوى ديوان ليلى يمحينا
مكانته الشعرية :

لقد وصف (البكرى) في شرح اللآلى
شاعرنا بقوله : « شاعر مطبوع من شعراء
الدولة العباسية »

وقد سبق أن أوردت نص ما قاله عنه
(ابن الجراح) حيث وصفه بأنه (شاعر
مجيد) وساق الرواية التالية :

« أخبرني أحمد بن يحيى النحوى قال :
أخبرني عبد الله بن شبيب قال : حدثني
محمد بن إسماعيل قال : جئت عبد العزيز
ابن عمران الرهوى يوماً ، فلما كنت عند
خوخته سمعته يقول : على أيمان البيعة إن لم
يكن أشعر الناس . فدخلتُ عليه
فقلت : من هذا ؟ قال : خارجة الملى .
قلت : حين يقول ماذا ؟ قال : حين
يقول :

تخايلها طرف السمو لعاشق
هنا هفوة ثم استفاق فأكذبا

ومن قوله :

فهم نياط القلب إذ نشرت به

بنات الهوى فى الصدر ، أن يتقضا

ومن قوله :

ما تذللك الشمس إلا حذو منكبه

فى غاية تحتها الهامات والقصر

آل الزبير نجوم يستضاء بهم

إذا دجى الليل من ظلماته رهروا

قوم إذا شومسوا جد الناس بهم

ذات العناد ، وإن ياسرتههم يسروا

نخص المديح أبا بكر ووالده

وعمهم منك إن غابوا وإن حضروا (١)

ومثل هذه الرواية ترد فى (مجالس ثعلب)

٢٣٥/١ قال : حدثنى عبد الله ابن شبيب

قال : جلس عبيد الله بن الحسن يوماً

— وهو والى المدينة ومكة — للناس . فذكروا

الشعر والشعراء . فقال عبد الملك

ابن عبد العزيز بن الماجشون (٢) فقيه أهل

المدينة : أشعر الناس خارجة بن فايح

المكى (٣) ، حيث يقول فى مديح أبى بكر

بن عبد الله الزبيرى (٤) .

كأن على عرنينه وجبينه

شعاعين لاحا من سماك وفرقد

هو السابق التالى أباه كما تلا

أبوه أراه ، سيد وابن سيد

أهابك إجلالاً وأرحوك للى

تلين بهما للراغب المتردد

قال : فقال أبو عبد الله زبير (٥) : كنت

وحسن بن عبيد الله — وأبوه إذ ذاك وال (٦)

وابن الماجشون جلوساً ، فذكر الشعر

(١) يقصد الشاعر بأبى بكر البكار بن عبد الله بن مصعب ، ت ١٩٥ هـ ٨١١ م ، ووالده عبد الله

ت ١٨٤ هـ ٨٠٠ م .

(٢) عبد الملك بن عبد العزيز بن عبد الله التيمى بالولاء ، أبو مروان بن الماجشون فقيه مالكى فصيح

ت ٢١٢ هـ ٨٢٧ م (الأعلام) .

(٣) تصحيف صحته المالى .

(٤) سلفت ترجمته .

(٥) هو الزبير بن بكار ت ٢٥٦ هـ ٨٧٠ م ، وقد أسلفت ترجمة أبيه .

(٦) أى عبيد الله بن الحسن ، سالف الذكر .

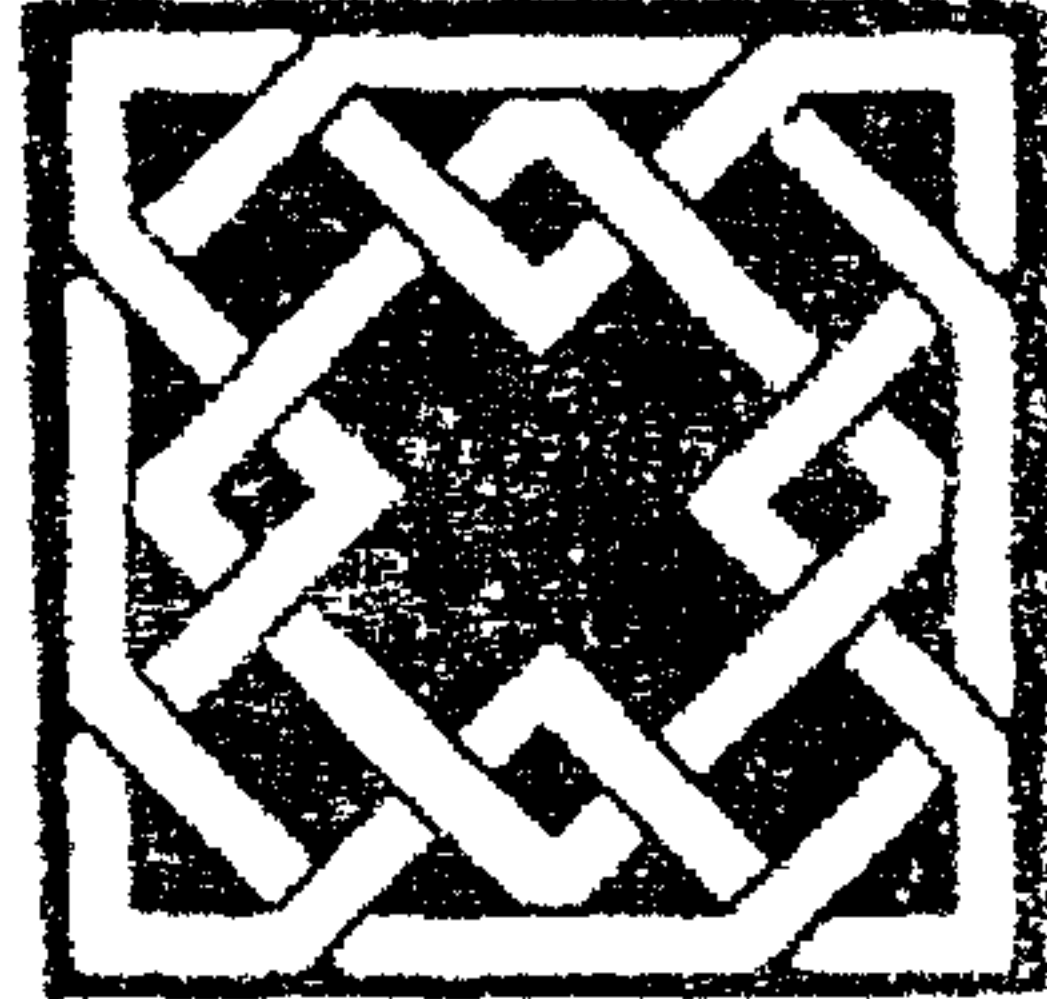
المواطن من الغزل أو المديح عند بعض
متذوقي شعره ، تجعله عندهم أشعر الناس .

وهذا يدل على أنه كان يتمتع بمكانة
شعرية عالية ، كما كان له شعر كثير كما
حدثنا ابن الجراح . ومن العجيب أن لا نجد
له ذكراً موسعاً ، وأن لا نعثر من شعره
إلا على النزر القليل .

والشعراء ، فقال عبيد الملك (١) : خارجه
أشعر الناس في مديح لأبي بكر هذا حين
يقول .

ما تَذُلُّك الشمس إلا حذو منكبه
... إلخ (الأبيات الأربعة السابقة)

ونخلص من هذه الأقوال والروايات أن
خارجه شاعرٌ مُجيد مطبوع ، تستحود
أشعاره على الإعجاب ، فهي في بعض



(١) أي ابن الماجشون .

الفصل الثانى

شعره

(الباء)

- ١ -

قال :

تخايلها طرف السمو لعائـ قـ هـمـا هـفوة ثم استغناق فأكذبـا
النص : هذا البيت مفرد ، جاء فى 'كتاب (الورقة) لابن الجراح ٧٤ ، ساقه مع
الخبر التالى .

(أخبرنى أحمد بن يحيى النحوى : قال : أخبرنى عبد الله بن شبيب قال : حدثنى
محمد بن إسماعيل قال : جئت عبد العزيز بن عمران الرهوى يوماً ، فلما كنت عند
نحوخته سمعته يقول : على أيمان البيعة إن لم يكن أشعر الناس ، فدخلت عليه ، فقلت :
من هذا ؟ فقال : خارجة الملى . فقلت : حين يقول ماذا ؟ ، قال حين يقول : وأورد
البيت) .

- ٢ -

وقال :

فهم نياط القلب إذ نشرت به بنات الهوى فى لصدر أن يتقضبا

النص : هذا البيت مفرد فى (الورقة) لابن الجراح ٧٤

(التساء)

قال :

- ١ - ولقد قالت لأتراب لها كالمها يلعبن في حجرتها :
- ٢ - خدن غنى الظل لا يفزعني ومضت تسعى إلى قبعتها
- ٣ - بنت عشر . لم تعانق رجلاً صور البدر على صـورتها
- ٤ - ولقد قبلت فاهاً قبلة كدت ألقى الله من لنتها
- ٥ - لم تعانق رجلاً فيما مضى طفلة غيداء في كالتها
- ٦ - لم يطش سهم لها قط ومن ترويه لم ينبج من رميتها

النص : في (التعاليقات والنوادر) لأبي علي هارون بن زكريا الهجري ، (عاش في القرن الثالث الهجري) القطعة ١١١٢ ، حققه (د . حمود عبد الأمير الحمادي) .
نشر دار الرشيد بالعراق .

أما المؤلف فاكتفى بأن قال : (المللي) وعلق المحقق ، بأنه لم يهتد إليه لعدم الافصاح عنه ، ولكنه أضاف أنه يعتقد أن نسبته إلى ملل ، وهو موضع في طريق مكة بين الحرمين . بينه وبين المدينة ليلتان ، وهو واد مسحدر من ورقان (جبل لمزينة) حتى يصب في الفرش : فرش سويقة ، ودل على المراسد ١٣٠٩/٣



(الدال)

- ١ -

- ١- ألا طرقتنا والرفاق هجود فماتت بعالات النوال تجود
- ٢- ألا طرقت ليلى لقي بين أرحل شحاه الهوى والنأى فهو عميد
- ٣- فليت النوى لم تسحق الخرق بيننا وليت الخيال المسترث يعود
- ٤- إذا لأقاد النفس من فجعة الهوى بليلي ، وروعات الفواد تقيد
- ٥- كأن الدموع الواكفات بذكرها إذا أسلمتهن الجفون فريد
- ٦- إذا أدبرت بالشوف أعقاب ليلة أذاك بها يوم أعز مجيد (جديد)

النص : من كتاب الأملى للقالى ١٤/١ ، ومقدمته كالتالى :

« وأنشدنا أبو بكر قال : أنشدنا عبد الرحمن عن عمه قال : أنشدنا بعض أهل المدينة لخارجة بن فليح الملى . »

وهو فى كتاب (الأشباه والنظائر من أشعار المتقدمين والجاهلية والمحضرمين)
للخالدين ، تحقيق د. السيد محمد يوسف ١٨٧/٢

- ٢ -

وقال يمدح أبا بكر بن عبد الله بن مصعب :

- ١- أرى البرق يدنو من يد مصعبية إيلنا ويذكو فى صبير منضد
- ٢- يد عودتنا أن يروح غمامها علينا بنجو مستهل ويغندى
- ٣- بسائب أبى بكر نفاذ بدولة على سالف من عيشنا غير مرغد

-
- (١) هجره : نيام . علات . حرج علة : ما يتلوى به .
 - (٢) لقي : المطروح لهوانه . عميد . هله العشق .
 - (٣) تسحق : تبعث . المستبطى .
 - (٤) أقاد : أقص ، يقال : أقاد القاتل بالقتيل : قتله به .

- ٤ - وما زال مَوَلَى التحية بالندى وما زال مشفوع السؤال بموعده
٥ - إذا هُز هزته عروق كريمة يؤول إليها المجد من كل محتد
٦ - ترى سبيل المعروف نحو سجالة عوامر بالحادين من كل مورد
٧ - أغر زبيرى تمتد جوده بنو مالك في بيت مجد مشيد
٨ - كأن على عرنيده وجبينه شعاعين لاحا من سماك وفرقده
٩ - له نسب بين الربير وهاشم رفيع . وصديق النبي محمد
١٠ - هو السابق التالى أباه كما تلا أبوه أباه . سيد وابن سيد
١١ - أهابك إجلالاً وأرجوك المتي تلين به . للراغب المتودد
١٢ - له لحظة فيها أنا اليسر بالعنى وأخرى ره . وق للعدو بمرصده
١٣ - لقد لاذ منه العائدون من الردى بركن منيع الساحتين مويده
١٤ - له عطن رحب . وحوض وفارط . يعلّ وو . ودأ أولهت بتوفده

النص : في (جمهرة نسب قريش) للزبير بن بكار ، القطعة ٣٠٧ ، ١ / ١٧٠ - ١٧٢ ،
٨ . ١٠ . ١١ في مجالس ثعلب ٢٣٥ ، وفي مخطوط . في الأنساب لإسماعيل بن إبراهيم
ابن محمد الكتاني البلبيسى (ملل) . وهو برقم ٥٩٦ في مكتبة رئيس الكتاب باستانبول
و ٨ في خزانة الأدب ١٠ / ٤٥٢

- ١ - الصبير : السحاب الأبيض الكثيف .
٢ - النجو : السحاب الذى به بريق المطر .
٧ - بنو مالك : يقصد به مالك بن نصر بن كنانة ؛ المقصود قريش .
١١ - المتودد .. جاءت في (مجالس ثعلب) : المتردد .
١٤ - العطن : مبرك الإبل . والفارط : هو الذى يقدم الواردين إلى الماء ليعملهم السقاء .
ويعل : أى يسقيهم مرة بعد مرة .

(الراء)

١ - قال يمدح عبد الله بن مصعب :

- ١ - دعانا لعبد الله والدهر باسط. علينا جناح البوس والجود عائر
- ٢ - تواتر أخبـار يردن رحمـه علينا ، وللمعروف والنكر آثر
- ٣ - فياني لما أوليتني يا ابن مصعب يدًا بعـد أيد منعمات لشاكر
- ٤ - وإنك والحي الذي أنت منهم لكالدـر حفته النجوم الزواهر
- ٥ - ويسمو بكم مجد الزبير وفخره إذا عُددت عنـد النفار المآثر
- ٦ - وتسطم منه غرة الفجر فيكم فتغضى لها عنك العيون الشوازر
- ٧ - فإن يك قوم قوضوا عرش مجدهم فقد رب مجداً أولاً منك آخـر
- ٨ - رأيـتك تسمو للمكارم والعلا فلا زاهق عنها ولا أنت قاصر
- ٩ - وتعلو بك الأيام للـذروة التي لها كنـف يأوى إليه المعاشـر
- ١٠ - لكم منكباها حيث قر قرارها وفرعك منها أئمن متياسر
- ١١ - وجادت يداك المستهل نداهما فأغنى وأقنى سـيبك المتظاـهر
- ١٢ - فلا مجد إلا منكم فيه أول ولا مجد إلا منكم فيه عابر
- ١٣ - ولا حرب إلا قد قرعتم كماتـها عليها بكم كانت تدور الدوائر
- ١٤ - لعمرك ما سدت على مـواردي لديك ولا ضـاقت على المصادـر

النص : في (جمهرة نسب قريش) للزبير بن بكار - القطعة ٢٦٧ ج ١/ ١٣٥ ،
ويذهب محققه الأستاذ (محمود شاكر) أن من هذه القصيدة البيتين المذكورين بعد ،
ينظر الهامش في ص ١٢٢ من الكتاب المذكور .

١ - الزواهر : النيرات .

٦ - الشوازر : من الشزر ، وهو النظر بغضب بموخر العين .

١١- آقنى : أرضى ، سيبك : عطاؤك .

٢- ولنى مصعب بن ثابت بن عبد الله بن الربير يقول

١- بنى مصعب أنتم خيار خيارنا أكابركم والمُعقبون الأصاغر

٢- بهليل قوامون بالقسط بيننا لكم خطاب تهتز منها المناير

النص : القطعة ٢٤٤ من ١/ ١٢٢ من (جمهرة نسب قريش) للزبير بن بكار ، تحقيق الأستاذ (محمود شاكر) ، وذهب إلى أنهما من القصيدة الرائية السابقة . ويبدو الأمر كذلك .

٢- بهليل : جمع بهلول . السيد العجمي اصفاء الحير .

النص :

* في (جمهرة نسب قريش) للزبير بن بكار : القطعة ٣١٦ ج ١ / ١٦٩ - ١٧٠

ومعنى اعتمام في ٣ ، ٦ : اختار .

وفي ٥ : لعل الصحة (مرغوبة) لا (مرهوبة) .

وقال الأستاذ (محمود شاكر) في تعليقه على كلمة (مرهوبة) في البيت الخامس : « كذا في النسخة الأم ، ولم أعرف له معنى ، وفي (نسخة) كوبرلي : (مرهوبة الشدى) كأنه من قولهم رب المكان إذا لزمه .. » ، وربما كان هذا هو الصواب .

* والأبيات الأربعة الأخيرة في (مجالس ثعلب) ٢٣٥ - ٢٣٦

و ١٣ في (لسان العرب) في موضعين ذلك وقصر . وهو فيه غير منسوب .

* وهي أيضاً في كتاب (الورقة) لابن الحراح .

١٣- تدلك الشمس : تميل للغروب . القصر : جمع قصرة : وهي أصل العنق .

٣- وقال يمدح أبا بكر بن عبد الله بن مصعب .

- ١ - بين البروج ، أبو بكر ووالده حيث استوى فوق طرف الناظر القمر
- ٢ - في منزل بين مضحى الشمس معتدل ومخفق النجم ، يعيش دونه البصر
- ٣ - أنت الإمام الذى بالبر نعرفه اعتماده الدوام النعمة القدر
- ٤ - يوماك : يوم تعم الناس رأفته ويوم حكم الدين الله منتصر
- ٥ - كم من يد لك لا تبلى صنيعتها مرهونة الشدى معلول بها البشر
- ٦ - تضحى لديك جنود الرأى عاكفة يعتامها عكر من خانها عكر
- ٧ - تسمو بك الأرض علواً فى مناكبها حيث انتحى بك من أقطارها قطر
- ٨ - أكرم بأولكم فى الناس من سلف والآخريين إذا ما عدت الآخر
- ٩ - إن يسبقوك - أبا بكر - بأسهم تحت البناء فقد شيدت ما عمروا
- ١٠ - مرفه الشئ أو سباق على مهل مستحصد الرأى لا كهل ولا غمر
- ١١ - مستعجم عن أذاة القوم منطقته مستسمح القول لاعى ولا هذر
- ١٢ - مد الزبير له باعاً على شرف وطهر البيت ، والقطان قد طهروا
- ١٣ - ما تدلك الشمس إلا حدو منكبه فى حومة تحتها الهامات والقصر
- ١٤ - آل الزبير نجوم يستنار بها إذا دجا الليل من ظلماته زهروا
- ١٥ - قوم إذا شومسوا ، لجج الشمس بهم ذات العناد ، وإن يأسرهم يسروا
- ١٦ - نخص المديح أبا بكر ووالده وعمهم منك إن غابوا وإن حضروا

٤- وقال :

- ١ - لقد طعنت فى رب رب شابه الذى رفاق الثنايا واضحات المحاجر
- ٢ - ويسفرن للشارى إذا جن ليلها سبيل المطايا بالوجوه السوافر

النص :

* البيتان في (التذكرة السعدية) للعبیدی . تحقيق د . عبدالله الجبوری ص ٣٤٢
قطعة رقم ١٥١

وقد ساقهما المؤلف دون تعليق . أما المحقق فقال : (خارجة بن فليح الملى ، مولى
أسلم حجارى ، شاعر مجيد ، كثير الشعر . وفى محالس ثعلب : المكى ، ولعله الصواب .
ثم دل على موطن ترجمته وشعره . ولكنه لم يشر إلى الأغاني ، وجمهرة نسب قريش

٥ - وقال يمدح محمد بن جعفر بن إبراهيم بن محمد بن على بن عبد الله بن جعفر :

- ١ - ألا هل من البين المشت مجيرٌ وهل لليلى الى السلفات عكورٌ
- ٢ - لقد صدعت بين القرنيين بغتة نوى ، يوم حرعاء الرياض هجور
- ٣ - ففى كبدي يا ليل من فحمة النوى نوائب وجى بينهن فطـور
- ٤ - يميت المني شوقي مراراً وللهموى ... من أحداقهن نشـور
- ٥ - غريب عـداوى يكاد فـؤاده إلى أهل جلى البلاد يطـير
- ٦ - غريب له قلب يحن صباة وعين بأسراب الدموع درور
- ٧ - وإني لعين أسـعدتني بدمعهاـ وقلب مراة شهـوقه لشـكور
- ٨ - ولى روعة عند الإياب وزفرة لهاـ تحت أحناء الضلوع سـعير
- ٩ - خليلي ما لليل باتت نحومه رواكد ما يسرى بهـا فتغـور
- ١٠ - أظن الليالى زدن طولاً على امرئ يطول عليه الليل وهو قصـير
- ١١ - سقى مضبات الفرش كل مجلحل له نضدٌ - من مزنه - وصبير
- ١٢ - وعاد بأرض الجعفرين رائح هزيم ، ومنهل الغمام بكور
- ١٣ - هناك بنو الطيار فى الغرف العلى وجوه عليها نضـرة وسرور
- ١٤ - لهم غرر تحت الدجى جعفرية لها تحت جلباب الظلام زهور

النص :

من كتاب (النوادر والتعليقات) لأبي على الهجرى وهذه القصيدة فى القسم الذى لا يزال مخطوطاً من الكتاب ، فى المخطوطة الهدية . وقد تفضل بإمدادى بها من مصورة المخطوطة أستاذنا الجليل الشيخ (حمد الجاسر) حزه الله خيراً . وقد تعمست قراءة النص لوجود طمس كثير ، وقد وضعت فراغاً للكلمات التى تعذر إدراكها . وفى البيت رقم ٢٦ أرجح كلمة (عليها) فى الفراغ .

والنص من الصفحة ١٢١ من المخطوطة . وجاء فى مقدمته .

« قال وأشهدنى أبو الحسن إبراهيم بن يوسف بن عيسى بن محمد بن جعفر ابن إبراهيم بن محمد بن على بن عبد الله بن جعفر ابحارجة بن فليح الملى . وهو منى ، فى محمد بن جعفر بن المذكور هاهنا : ... » .

١ - المشت : المُفَرَّق . عكور : رجوع .

٣ - وجى : الوجى رقة القدم من كثرة المشى ، استعير هنا للكمد .

٥ - عداوى : نسبته إلى عدا مزينه ، قال معن بن أوس العداوى - عدا مضاء مزينه فى إبله :

وترى بها العوجاء كل ثنية كأنَّها بواً بنهى تعاولة

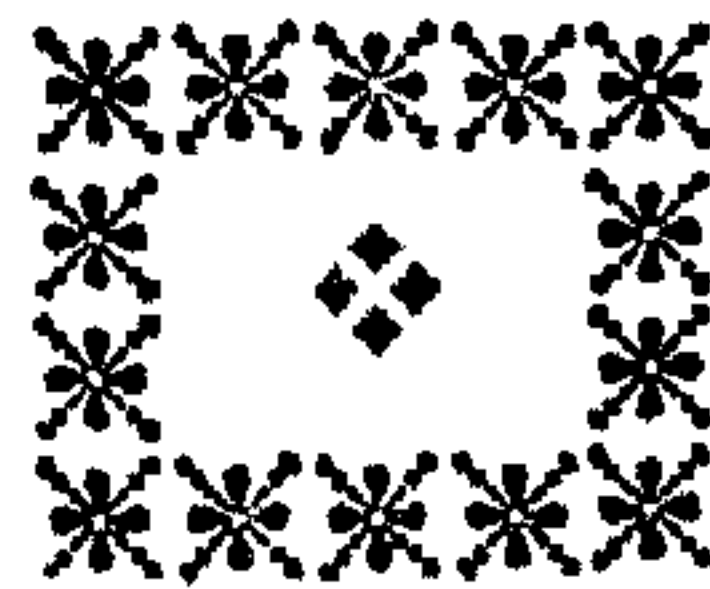
قال أبو على : كل ما فى العرب بنو عدا . فالنسبة إليه عدائى الأعداء مزينه فالنسبة إليه عداوى .

٧ - مراه : استدره .

١١ - النضد : ماتراكب من السحاب . الصبير : السحاب الأبيض الذى يصير بعضه فوق بعض درجات .

١٤ - زهور : نور .

- ١٤- ثرى أرضهم من وقع أقدامهم بها ومس الجباه الساجدات - ظهور
- ١٦- لهم نسب لو يس-تلان ... ذرى الصخر ظلت صمهن تمور
- ١٧- دعوت لنكبات الزمان محمداً وقد هيض عظم الجود فهو كسير
- ١٨- فلبى ، وأنشأ منزلة من نواله لها عارض جم السجال مطير
- ١٩- له شهيم فيها أناة ونائل عتيـد ، وفيها للنكير نكير
- ٢٠- تلاقت عايه بالكارم منهم بطون نفت عنه القذى وظهور
- ٢١- تلاقت عليه أمهات حواضن الكرام فخـور
- ٢٢- يمانية الأنساب أو مضرية تخيرها من سالفيه عشـير
- ٢٣- كلكن بعقد الخاطبين وإنما دعاهن مجد ثاقب ومهـور
- ٢٤- بعلياء تجرى الشمس دون فروعها ويقصر عنها الطرف وهو حسير
- ٢٥- بحيث استوى بدر السماء وبدرها | هناك لهم مجد أشم فخـور
- ٢٦- فتي علقت كفى بأسبابه التي أغار ... بالسماح مغـير
- ٢٧- هناك له بين النبي وجعفر وبين علي معقل ومصـير
- ٢٨- ورثت يمين الجود جود ابن جعفر فأنت له فى الغابرين نظـير
- ٢٩- وحرمت (لا) يا ابن النبي فلفظها لباغى الندى عبء علماء كـبير



(العين)

- ١ -

- ١- أحن إلى ليلي ، وقد شـطـ وليها كما حنّ محبوس عن الالف ، نازعُ
- ٢- إذا خوفتني النفس بالنأي تارة وبالصبرم منها أكذبتها المطامعُ
- ٣- أكلّ هواك الطرف من كل بهجة رُصّمت عن الدّاعى إليها المسامع

النص :

في الأملّى ٢٢٣/١ ، وفي السمط ٥١٥/٥١٦ . أورد البيتين : الأول والثاني فقط .
وقال . الولي . القرب . وفي مجموعة المعالي : المؤلف مجهول . تحقيق عبد المعين -
الملوحى : ٥٠٢ - ٥٠٣

وقال :

- ١- ثنت طرفه - نحو المطى صباية إلى فكاد القلب أن يتصدعا
- ٢- أقامت فطابت تربة الخيف إذ ثوت به بعد تعريف المعرف .. أربعا
- ٣- وطاب حجاب المروتين بنشرها ومتن الصفا الشرقى حتى تضوعا
- ٤- وما نلت من ليلي وفاء بعهدا وما نلت منها العهد إلا تضرعنا

النص :

من كتاب (الورقة) لابن الجراح ٧٥ قدمه بقوله :

« ومن قول خارجة ، أنشد نيه بن أبي خيثمة عن مصعب والزبير بن بكار » . ثم
أورد الأبيات .

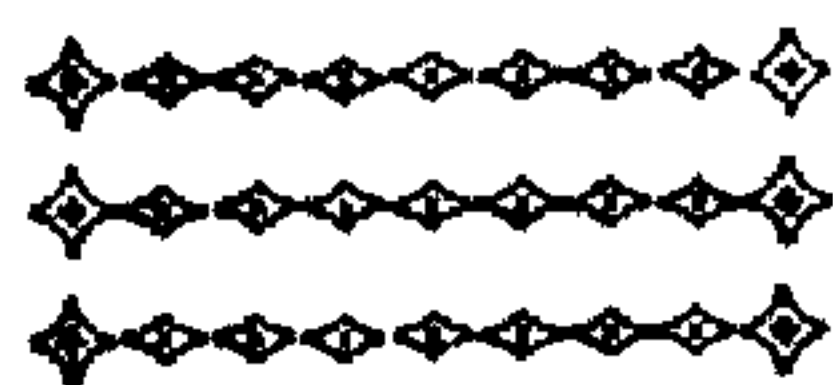
(اللام)

- ١ - أشوقاً ولمَّـا يسلك البين مسلكا فما أدت إن شقَّت عصا البين فاعل
- ٢ - هناك يحن القلب حنةً والهـ ويستنّ مرفضٌ من الدمع هاطل
- ٢ - وإن عنّ لي بالليل ذكرك عـة هفوت وشاقتني الرسوم الموahl
- ٤ - وأقع من ليلي بأصمّاب دارها وأخذع فيها بالمني وهي باطل

النص :

في الحماسة البصرية ١٩٠/٢ القطعة رقم ٢٥١ ، ولم يعلق المحقق بشيء . عنوان القطعة (وقال خارجة) ، ولم يذكر المؤلف من هو خارجة ، وصمّت المعلق . ولكن جاء في فهرس الشعراء بعد ذكر (خارجة) وبين قوسين (بن فليح الممللي) .

٢ - يستنّ : ينصب . مرفض . مترشش .



(النون)

قال :

فقد جعلت دواوين الغواني سوى ديوان ليلى يمحيننا

النص :

البيت مفرد في كتاب (الورقة) لابن الجراح ٧٥

عبد العزيز أحمد الرفاعي

عضو المجمع المراسل (من السعودية)

المصادر

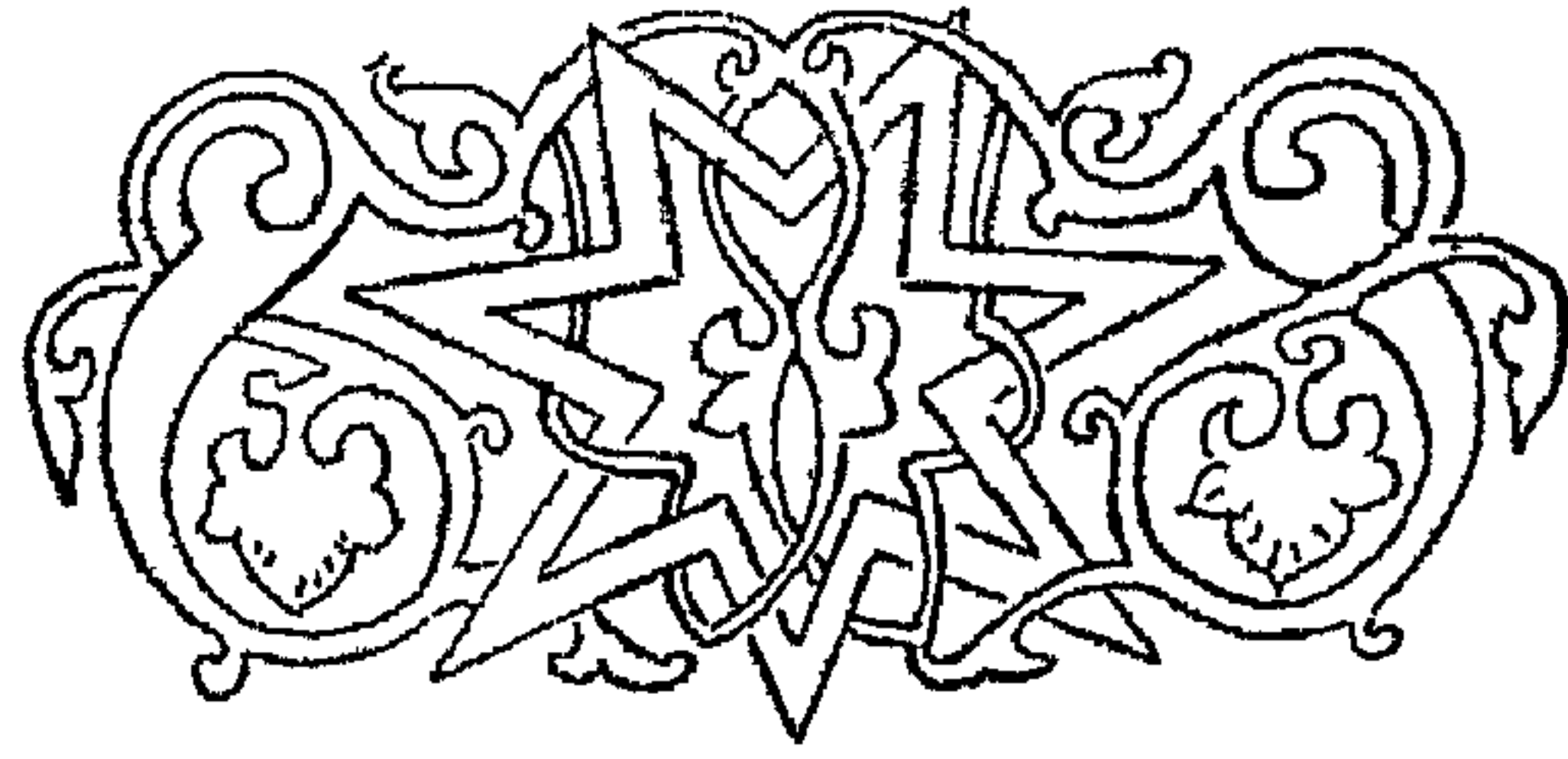
- ١ - الأصفهاني أبو الفرج (٣٥٦) ، الأعاني ، طبعة محمد أفندي ساسي .
- ٢ - البصري : علي بن أبي الفرج (ت ٦٥٩ هـ) . الحماسة المصرية . تحقيق : مختار الدين أحمد (عليكره) . القاهرة : عالم الكتب .
- ٣ - البكري : ١ - عبد الله بن عبد العزيز (ت ٤٨٧ هـ) ، معجم ما استعجم . تحقيق : مصطفى السقا ، المعهد الخايفي للأبحاث المغربية .
- ٢ - سمط. اللآلي ، تحقيق . عبد العزيز الميمنى ، القاهرة : لجنة - التأليف والترجمة والنشر ، ١٣٥٤ هـ .
- ٤ - السبيسي : إسماعيل بن إبراهيم بن محمد الكتاني^١ (٧٢٨ - ٨٠٢ هـ) ، كتاب في الأنساب ، مخطوط برقم ٥٩٦ في مكتبة رئيس الكتاب في استانبول ، تركيا .
- ٥ - ابن بكار : الزبير (ت ٢٥٦ هـ) ، جمهرة نسب قريش وأخبارها . تحقيق : محمود محمد شاكر ، الطبعة الأولى .
- ٦ - ثعلب : أحمد بن يحيى (ت ٢٩١ هـ) ، مجالس ثعلب ، شرح . عبد السلام هارون ، الطبعة الثالثة ، القاهرة : دار المعارف .
- ٧ - ابن الجراح : محمد بن داود (٢٩٦ هـ) ، الورقة ، تحقيق : عبد الوهاب عزام ، وعبد الستار أحمد فراج ، الطبعة الثالثة ، القاهرة : دار المعارف .
- ٨ - الحموي : ياقوت (ت ٦٢٦ هـ) .
- ٩ - الخالديان : أبو بكر محمد^٢ (٣٨٠ هـ) ، وأبو عثمان سعيد^٣ (ت ٣٩٠ هـ) - ابنى هاشم : الأشباه والنظائر ، تحقيق : السيد محمد السيد ، القاهرة : لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ١٩٦٥ م .

١٠- العبيدي : محمد بن عبد الرحمن (من رجال القرن الثامن الهجري) ، التذكرة
السعدية في الأشعار العربية ، تحقيق : د عبد الله الجبوري ، الدار العربية
للكتاب ، ١٩٨١ م .

١١- القالي . أبو علي (ت ٣٥٦ هـ) ، الأمل .

١٢- مؤلف مجهول ؟ كتاب (مجموعة المعاني) ، تحقيق : عبد المعين الملوحي ،
دمشق : دار طلاس ، ١٩٨٨ م .

١٣- هارون : عبد السلام محمد ، تحقيقات وتنبيهات في لسان العرب .



تراجم أربية من مخطوط مجهول (تاريخ عبد الحميد بك) للدكتور أبو القاسم حسنة الله

نحقق الآن كتاباً في التراجم نظن أنه لم ينشر بعد . وقد اخترنا منه نماذج من الشخصيات التي عرفت في مجال الأدب بالخصوص ، وإلى وقت الشروع في كتابة هذه الدراسة كنا نعتقد أن مؤلف الكتاب يكاد يكون مجهولاً أيضاً ، لأننا لم نعثر على سوى اسم (عبد الحميد بك) في المخطوط وطالما رجعنا إلى كتب التراجم لأهل القرن التاسع عشر (13 هـ) فلم نعثر له على ترجمة ، ولولا بعض الإشارات في غضون الكتاب عن والده ، وحياته هو الشخصية ودراسته ، لما استطعنا أن نعرف من هو .

وحتى عنوان الكتاب ما يزال مبتوراً

ومجهولاً عندنا ، إذ كل ما أفادنا به المصدر الذي رجعنا إليه هو أن عنوان الكتاب (تاريخ عبد الحميد بك) ، وكلمة (تاريخ) هذه لا تدل على أن الكتاب في التراجم ، فقد يكون تاريخاً للدول أو البلدان والأمم ، وقد يكون تاريخاً شخصياً أو سيرة ذاتية ، ولكن المتمعن بعد ذلك في محتوى الكتاب يدرك أنه مجموعة من التراجم أو قاموس أعلام .

وعندما جمعنا المادة لهذه الدراسة وأخذنا ننتهيماً لتحريرها أطلعنا على كتاب أحمد تيمور (أعلام الفكر الإسلامى في العصر الحديث⁽¹⁾) ، فإذا فيه ترجمة قصيرة

(*) ألقى هذا البحث في الجلسة الخامسة من جلسات المؤتمر المنعقدة يوم الأحد ٧ من شعبان سنة ١٤١٠ هـ الموافق ٤ من مارس (آذار) سنة ١٩٩٠ م .

(1) ط أ ، القاهرة ، 1967 ، ص 204 - 205 . ولا ندري من أين أضيفت كلمة (نافع) للإسم عبد الحميد ما دامت لم ترد في المخطوط .

عبد الحميد ، رغم أنه ترجم لمن اسمه
(محمود) وتناول في أعلامه الأصدقاء
وغيرهم (2) .

ومهما يكن الأمر فإن دراستنا هذه
تتناول التعريف بالمؤلف ، عبد الحميد ،
والتعريف بمخطوطه ، ونماذج من الأدباء
الذين ترجم لهم .

(1) التعريف بالمؤلف :

ترجم عبد الحميد بك لأبيه ولم يترجم
لنفسه وبناءً عليه فإن والده هو خليل بن
مصطفى آغا بن حسن آغا (ويسميه ابنه
الأمير خليل أفندي) ، وهو من مواليد
قوالة حوالي سنة 1185 . وقد نشأ الوالد
في مسقط رأسه حيث تعلم المبادئ ثم
أرسله والده (جد المؤلف) إلى اسطنبول
حيث تعلم التركية والفارسية وبعض
العلوم . وبعد رجوعه إلى قوالة اصطحبه
محمد علي (قبل ولايته على مصر) ولازمه

لمؤلف الكتاب الذي نحن بصددده . لم تبلغ
الصفحتين ، وإذا اسمه فيه (عبد الحميد
نفع بك) ، وإذا عنوان كتابه هو (تاريخ
أعيان القرن الثالث عشر وبعض الثاني
عشر) وبقدر ما أفادتنا هذه الترجمة
بقدر ما زادتنا حيرة لأنها لم تورح لعبد
الحميد نافع ميلاداً ولا وفاة . ولم تصف
كتابته . ولعل السبب في ذلك هو أن أحمد
تيمور لم يطلع على الكتاب أصلاً وإنما
سمع عنه أنه بيع بعد وفاة صاحبه كما
بيعت كتبه الأخرى .

هذه هي الإشارة الأولى التي أفادتنا
وحيرتنا معاً . أما الإشارة الثانية فهي
ما ذكره محمد عبد الغنى حسن في ثنايا
كتابته (أعلام من الشرق والغرب⁽¹⁾)
من أن عبد الحميد نافع قد جمع وطبع في
حياته مختصر ديوان صديقه محمود صفوت
الساعاتي⁽²⁾ ، والغريب هو أن اسم الساعاتي
لا يظهر أبداً في تاريخ⁽³⁾ (أو قاموس)

(1) دار الفكر العربي ، القاهرة ، 1949 ، ص 44 ، 55 .

(2) كما أنه لم يترجم لإبراهيم أودى طاهر الذي ذكر تيمور أنه كان من الشعراء المحيدين وصديقاً حميماً
لعبد الحميد ، عاش معه ولم يفرق بينهما إلا الموت ، وكذلك لا وجود لاسم نصر الخوريني في قاموس عبد الحميد
رغم أن تيمور يقول إنه كان (عبد الحميد) يهد إليه بمقالاته كتبه وتصحيحها .

مدة وكانت بينهما مصاهرة ، ثم تقلب خليل في عدة وظائف قبل الاستقرار بمصر منها الكتابة في إحدى سفن الأسطول العثماني ، وبعد ولاية محمد علي علي مصر لحقت به عشيرته وأصهاره ، ومنهم خليل والده مؤلفنا .

ويريد المؤلف أن يبرز ثلاثة أمور من حياة والده : أن نسبه من جهة الأم ينتهي إلى الإمام الحسين ، فهو من آل البيت والأمر الثاني أنه من عائلة موظفين ساميين (آغوات) كانت تقطن فوالة ، والأمر الثالث أن والده قد أصبح في مصر من كبار الأغنياء والملاك لأنه ترك عند وفاته سنة 1256 (1840) قصراً ضخماً في شمبرا تحيط به البساتين والحدائق الواسعة ، كما ترك نحو ألف فدان من الأرض موزعة في عدة جهات ، بالإضافة إلى أربعة بيوت كبيرة ومجموعة من الحوانيت . أما الوظائف التي تولّاها خليل أفندي فكثيرة نذكر منها : ناظر سوق السمك في الإسكندرية ، وناظر سوق الغلال في رشيد ثم أصبح محافظاً على رشيد ، ثم ناظراً على القلعة ، ثم على مصلحة المنسوجات

التابعة للدولة ، ثم حاكماً على ولايتي الغربية والبحيرة ، ثم على ولاية بني سويف ثم مديراً لولاية الدقهلية ، ثم على ترسانة السفن بسولاق ، بالإضافة إلى نظارة الكسوة الشريفة ومصلحة ضرب العملة .

ولو ترجم عبد الحميد لنفسه أو وجدنا له ترجمة وافية ، لما أطلنا في ترجمة والده كل هذا الطول وقد وجدنا في المخطوطات تعليقا لمحمد عارف ، صهر عبد الحميد (زوج أخته) ، أن وفاة عبد الحميد كانت سنة 1280 (1863) . وحاء في ترجمة مصطفى بيك الجميل المولود سنة 1247 (1831) قول عبد الحميد إنه كان « رفيقاً وصاحباً في الصغر » . و آخر تاريخ ذكره عبد الحميد في المخطوط هو تاريخ وفاة مصطفى الكبابطي الجزائري ، سنة 1278 (1861) أي قبل وفاة المؤلف بسنتين . ويذكر أحمد تيمور أن عبد الحميد « مات شاباً » ، ومعنى ذلك أنه قد ولد لأبيه بعد التحاقه بمصر ، ونقدر ذلك بحوالي سنة 1245 (1829) ، عندما كان الوالد يقوم بإحدى وظائفه

المذكورة . فهل كان الميلاد بالقاهرة ؟
ليس هناك ما يدل على ذلك الآن ، ولكن
من الواضح أن عبد الحميد قد تنقل مع
والده في بعض الأماكن التي تولى فيها تلك
الوظائف .

وواضح أيضاً أن عبد الحميد نشأ في
نعمة وبندخ . وهو من تلك البيوتات
الدخيلة على مصر عندئذ والتي ارتبطت
بعائلة محمد علي ، واستشرت على حساب
الإنسان المصري . ويظهر ذلك من مجموع
التراجم التي اختارها عبد الحميد لكتابه ،
فبعضها من أعيان هذه الفئة الطارئة والغنية
والتي تمتعت بالوظائف السامية والامتيازات
الكبيرة . ومن هذه التراجم ما يمت بصلة
وثيقة إلى عائلة المؤلف من قريب أو بعيد
مثل أحمد باشا يكن وحسن بيك منجى .

أشرنا إلى المصاهرة التي كانت بين
محمد علي ، والي مصر ، و (الأمير)
خليل والد عبد الحميد . ومن الطبيعي أن
يكون لهذا أيضاً أقارب وأصهار ، فأخته
(منيرة) كانت متزوجة من محمد عارف

(راشا) . وقد توفيت في سنة وفاته أخيها
(1280) وورث زوجها مكتبة عبد
الحميد . كما أشار تيمور ، ولعله قد ورث
منه أشياء أخرى أيضاً ، رغم تأففه الذي
عبر عنه بقوله « يضيق صدرى ولا
ينطلق لسانى » . وفي ترجمة حسن بك
منجى يقول عبد الحميد إنه ابن عمه
الشقيق وأنه ورث منه ربع الميراث تعصيباً
في الأرض الواقعة ببني سويف والأمتعة .
وكثيراً ما يذكر عبد الحميد أموراً عائلية
تتعلق بأصهاره وأقاربه ولا ندرى إن كان
قد ترك عقباً .

وكانت ثقافة المؤلف هي ثقافة هذه
الفئة أيضاً . فهو قد درس التركية
والفارسية والعربية ، ويظهر ذلك من
إشاداته بمن يعرف اللغتين التركية والفارسية
وكان والده قد درسهما . أما العربية فقد
تمكن منها ، ولكن ليس إلى الحد الذي
يذكره له أحمد تيمور عندما قال إنه شغف
بالأدب « حتى صارت له ملكة أدبية يعتد
بها » . ذلك أن أسلوبه في كتابه الذي
نحققه لا يدل على ذلك . وتكون ملاحظة
أحمد تيمور صحيحة إذا ما صنفنا

عبد الحميد في « العجم » الذين درسوا العربية وتأدبوا بها وتذوقوا أساليبها رغم الخلفيات اللغوية والعائلية التي كانت معهم .

وهناك إشارات عديدة تدل على ثقافة عبد الحميد . فبالإضافة إلى اللغات المذكورة ، كان مولعاً بالأدب والموسيقى والميقات . ففي ترجمته لأحمد بن إسماعيل البقلي قال إنه قرأ عليه فن الميقات والحساب ، وإن له معه مراسلات أدبية ومناشدات شعرية وكان الشيخ البقلي يتردد على قصر عبد الحميد في شبرا سنة 1273 (1856) وأنه كان عندئذ في مجلس حافل وفي ترجمة قاسم ابن علي التونسي قال إنه لما ورد المدينة المنورة « اقتبسنا من مشكاة أنوار علومه ، وانتزحنا بحقائق رياض فهرمه » . وذكر مرة أخرى في ترجمة رحمين الأسمرائيلى المتجول أنه شاهد علاجه منه بنفسه بالقاهرة

وأنه رأى له شهادات معه أعطاهها له « حكماء الأطراف » وهو يعنى بهم الأطباء . وحين ترجم لعلى اللقاني قال عنه إنه أملاه نسبه أنه حسيني .

ومن جهة أخرى يذكر عبد الحميد أنه أخذ الحديث المسلسل بالأولية عن الشيخ مصطفى الكبايطى الجزائرى (1) عن محمد صالح الرضوى البخارى . كما أخذ حديث المصافحة عنه وعن محمد عاقل أفندى . وكلا الشيخين كان بالاسكندرية (2) . والملاحظ أن عبد الحميد قد أكثر من تراجيم المتصوفين والدرأويش أيضاً ، وكان يذكر كراماتهم وخوارقهم بعقيدة واضحة . وهذا كله يدل على أنه كان غارقاً في تيار العصر أيضاً من البدع والدروشة والطرق الصوفية رغم أنه كان ، كما ذكرنا ، من أهل النعمة والجاه ، وكان منزله ، كما يقول تيمور ، موثلاً للأدباء والمناظرات وكان

(1) ترجمته الحياة ونشاط الفنى مصطفى الكبايطى فى دراسة خاصة نشرت فى مجلة (عالم الفكر) الكويتية إبريل-مايو 1985 ، وهى مطبوعة ضمن كتابنا (أبحاث وآراء فى تاريخ الجزائر) ، ج 2 ، الجزائر ، 1985 ص 11 - 8 . انظر أيضاً رثاء محمد عاقل للكبايطى فى كتابنا (تجارب فى الأدب والرحلة) ، الجزائر ، 1983 ، ص 17 - 47 وكذلك فى مجلة الثقافة (عدد 44 ، 1978) .

(2) لاحظ أن عبد الحميد كثيراً ما ذكر الاسكندرية ونسب إليها الأعيان والأدباء ، فهل أقام بها أكثر من القاهرة أو كان يتردد عليها بكثرة ؟

مولعاً باقتناء الكتب والمغالات بها حتى جاءه الوراقون من كل فج . ويذكر تيمور أيضاً أن عبد الحميد قد حذق الموسيقى واتمتعل بها وأتقن العرف على القانون ، وألف رسالة في الموسيقى . ومما يشهد على ذلك أن عبد الحميد كان يتشير في بعض تراجمه إلى من أتقن الموسيقى علماً وعملاً . كما يقول . وألف فيها الرسائل . وقد ترك عبد الحميد عدة مؤلفات .

1 - تاريخه الذي نحن بصددده .

2 - رسالة في الموسيقى (1) .

3 - مختصر ديوان الساعاتي (2) وهيمننا من هذه الأعمال الأول .

(ب) المخطوط :

ليس هناك عنوان ثابت لهذا العمل ، فهو كما قلنا قاموس أعلام أو مجموع تراجم . والمؤلف نفسه هو الذي استعمل كلمة (تاريخ) لعمله ، كما سنرى . ولعل هذا هو الذي جعله مفهرسي الكتاب

يطلقون عليه اسم (تاريخ عبد الحميد بك) اختصاراً أما محمد عارف ، صهر المؤلف فقد أطلق عليه اسم (المجموع) عندما ذكر في تعليق له أن « عبد الحميد بك جامع هذا المجموع انتقل إلى دار الرحمة سنة 1280 . » ولا بدري من أين أخذ أحمد تيمور العنوان (تاريخ أعيان القرن الثالث عشر وبعض الثاني عشر)

والظاهر أن عبد الحميد قد ألف كتابين أو كتاباً واحداً في جزئين تناول أحدهما تراجم أعيان القرن الثاني عشر والآخر أعيان القرن الثالث عشر ونحن نفهم ذلك من العبارة التالية التي وردت في ترجمته لمحمد أمين الزلي ، حيث قال : « ونقلت منه (أي من الزلي) جملة من تراجم أعيان القرن الثاني عشر في تاريخي الذي رتبته فيه ، والثالث عشر هذا - أسأل الله إتمامه » . فمن الواضح أن عبد الحميد ألف « تاريخاً » في أعيان القرن الثاني عشر واستفاد من عمل الزلي فيه ، ويوحى كلامه أنه رتبته وانتهى منه . وأما عمله

(1) أشار إلى ذلك تيمور ، ص 205 .

(2) ط . على الحجر سنة 1860 في 90 صفحة .

الخاص بأعيان القرن الثالث عشر فما يزال
لم يتمه عندئذ ، كما يوحى كلامه أيضاً
ولم يرتبه .

ويزداد الأمر وضوحاً عندما نعرف أن
الجزء الذى بين أيدينا إنما هو الخاص
بأعيان الثالث عشر ، وهو غير مرتب
وغير تام فعلاً . فهو غير مرتب لأن
التراجم متداخلة ويقع فى عدة صفحات
غير مرتبة من الكتاب ، مثلاً ترجمة خليل
الغزلات تقع على الصفحات التالية .
7 ، 64 ، 68 ، وترجمة على الصيرفى تقع
على صفحات 18 ، 34 ، 72 ، 73 .
وهكذا . ولذلك كان علينا أن نجتمع
لترجمة الواحدة ما تفرق عنها فى مختلف
صفحات الكتاب . وقد قلنا أن العمل
غير كامل أيضاً لأن الموت قد أدرك عبد
الحميد وهو منهمك فى عمله ، فهناك أولاً
بياضات متروكة لبعض التراجم قصد
تسويدها متى توفرت المعلومات ، وهناك
ثانياً حروف عديدة لم يترجم فيها لأى
شخص . والحروف الموجودة هى : الألف
، والباء ، والحاء ، والخاء ، والذال ،
، والذال ، والراء ، والسين ، والشين ،

والطاء ، والعين ، والقاف ، والميم ، والباء
وكثير من هذه الحروف لا يتضمن سوى
ترجمة واحدة أو اثنتين . مثل الباء ، والذال
والذال ، والطاء ، والقاف إلخ . وقد ذكرنا
أن آخر تاريخ مذكور فى التراجم هو
تاريخ وفاة الكبابى الجزائرى سنة 1278
فهل أصيب عبد الحميد بمرض عاقه عن
مواصلة عمله إلى أن مات به سنة 1280 ؟
ومهما كان الأمر فإن عبد الحميد قد
جمع مادة كتابه من عدة مصادر ، من ذلك
ما استقاه من معاصريه وزملائه وشيوخه .
ذلك أن معظم الذين ترجم لهم كانوا
معاصرين له (أهل القرن الثالث عشر)
وفى عدد من الأماكن يتحدث عن المترجم
له كشاهد عيان ، وأحياناً كراوى عن غيره
من المعاصرين . فإذا عرفنا أنه أن قد
تنقل فى حياة والده إلى مناطق عديدة من
مصر ، تبعاً لوظائف والده ، فإننا ندرك
أنه جمع المعلومات عن تراجمه من هذه
الاتصالات الشخصية والروايات الشفهية
وقد لاحظنا أنه كان يقيم المجالس الحافلة
فى قصر والده بشبرا فإذا هو يستقبل فيه
الأدباء والأعيان . وقد ترجم لعدد من

رجال السلطة من جيل والده الذين لاشك أنه تعرف على بعضهم من خلال والده أو سمع بهم أو كانوا أصهاراً لهم .

وهناك مصدران آخران لهذا الكتاب : أولاً خزانة الكتب التي جمعها المؤلف بالشراء ، كما لاحظ تيمور ، وهي الخزانة التي قيل إن صهره محمد عارف (باشا)⁽¹⁾ قد استولى عليها بعد وفاته ثم تفرقت بالبيع وغيره . أما المصدر الثاني فهو النقل من كتب المعاصرين . وقد صرح أنه نقل من تأليف في التراجم للزلي ، ذاكراً العبارة التي أشرنا إليها أعلاه ، وقد بدأها بقوله عن محمد أمين الزلي : « وجمع كتاباً في تراجم المتقدمين والمتأخرين من العلماء والأدباء والأعيان ، ومات قبل أن يرتبه ، رأيت ونقلت منه جملة ... إلخ »⁽²⁾ . كما أشار إلى أنه اعتمد على تأليف في التراجم لصديقه محمد أفندي عاقل⁽³⁾ .

ومن ثمة نرى أن كتاب عبد الحميد الذي نحققه ما هو إلا عمل في تراجم رجال ونساء القرن الثالث عشر ، ما يزال في مسودته غير كامل وغير مرتب وفيه تشطيب كثير تارة على العبارة وتارة على الصفحة كاملة . وعلى حواشي الصفحات تعاليق أحياناً للمؤلف نفسه وأحياناً لغيره ، وهو في حوالى 165 صفحة ، ويحتوى على حوالى مائة ترجمة غير متناسبة الطول . ففيه الترجمة ذات الثلاثة سطور مثل الشيخ سيد أبو عماشة ، وفيه الترجمة ذات الصفحات الطوال مثل الشيخ ح من العطار . ومن بينها أسماء مغمورة لا تكاد تجد لها ذكراً في كتب التراجم ومن أخذ حظه من الشهرة مثل ابن العناني الجزائري . وفيه تراجم الأدباء والعلماء والأعيان ، والمتصوفة . وفيه بعض غلمان محمد بنلى وضباطه وبعض أهل الفتوى والطب والأدب .

(1) كان محمد عارف متزوجاً من أخت المؤلف . ومن الصدف أن هذه السيدة قد توفيت سنة وفاة أخيها (1280) ، وقد وحدنا روحها ، محمد عارف ، يشكو بعدها من الشكوى مما حل به ، وهذا نص كلامه . إن عبد الحميد بك ، جامع هذا المجموع ، انتقل إلى دار الرحمة في سنة 1280 ، ثم أنجته آمنة هانم ، الشهيرة بمنيرة ، لحقته سنة 1280 ، وهي حريمى . . . وتركها على عوائل ناصبة بطرة ، فرأيت ما رأيت بسبب تلك المهدومة (كذا) ، بضيق صدرى ولا ينطق لسانى . ص 83 من المخطوط .

(2) ص 112 من المخطوط .

(3) ص 161 - 164 من المخطوط .

وفد ضم الكتاب عدداً من أهل مصر والرازيين عاينها ، من الجزائر رتونس ، والحجار والشمس ونحوهم ، وفيهم الأتراك والإيرانيون والهنود وأضرابهم . كما أن فيه من لم يخرج ربما من بلاد مثل حاكم تونس وحاكم المغرب الأقصى . فالكتاب إذن ليس خاصاً بتراجم المصريين ولا بتراجم المشرفيين ، بل شمل مجموعة من أعيان العالم الإسلامي مشرقه ومغربيه . وقد أحصيت عدد التراجم المغاربية فيه فوجدت تسعة من المغرب الأقصى وتسعة من الجزائر ومئة من تونس .

تلخيص ما أورده عبد الحميد عن كل ترجمة محتفظين أحياناً ببعض العبارات المفتاحية في وصفه أو حكمه على شخصية المترجم ، ومن ثم فنحن لم نرجع إلى مصادر أخرى لتوثيق معلومات المؤلف عن كل شخصية . وقد كنا رجعنا إلى بعض التراجم في دراسات مستقلة مثل ترجمة الكبايطي وترجمة محمد بن محمود ابن العنابي (1) . وكنا نود ذكر ترجمة محمد عقل لعلاقته بالمؤلف وبالآدب ولكننا لم نجد لها ضمن الكتاب رغم أن عبد الحميد ذكر أنه ترجم لصاحبه في حرفي (م - ح) .

(ج) بعض التراجم :

1. - أحمد راشد المصري :

والتراجم التي سنذكرها اخترناها أصلتها بالآدب ، لأن الكتاب يضم كما ذكرنا أعياناً من أهل الدين والسياسة والحكم والتصوف . وسيكون عملنا هنا هو -

ولد بالقاهرة سنة 1215 (1800) وأخذ العلم بالأزهر . وعمل بدواوين القاهرة بوظيفة كاتب ، وفي سنة 1544 (1828) حل بالإسكندرية وتوظف بدواوينها أيضاً وكان أثناء ذلك يشتغل بتحصيل العاوم

(1) أصدرنا عن ابن العنابي كتاباً سنة 1978 . واستفدنا من ترجمة عبد الحميد له في ط . 2 المعدة للنشر وقد نشرنا ذلك في مجلة (حوليات جامعة الجزائر) (1988) . وكان ابن العنابي من أبرز علماء الجزائر عند احتلالها من قبل الفرنسيين . وقد حكموا عليه بالنفي فاستقر بمصر وتولى الفتوى بالإسكندرية وله تأليف منها (السعي المحمود في نظام الجنود) ، تحقيق محمد بن عبد الكريم ، الجزائر ، 1983 . وقد توفي ابن العنابي بالإسكندرية سنة 1850 .

الرياضية وغيرها ، وأخذ يدرس ما مهر فيه من هذه العلوم لبعض أخصائه . كما تولى خليفة الطريقة الخلوتية .

الشيخ خليل الغزلات . قاضى الإسكندرية
عمد^(٢) .

تعلم علم الموسيقى علماً وعملاً على الشيخ على الصيرفى الصغير (الابن) ، وبرع فى آلة القانون البسيط . علماً وعملاً أيضاً ، « وألف فيها رسائل عدة » . ثم درس اللغتين التركيه والفارسية . وأتقن الأخيرة حتى صار يتكلم بها كأهلها^(١) . (وقد ذكرنا هذه الترجمة هنا لصلتها بالموسيقى لأن عبد الحميد ولع بها أيضاً وألف فيها) ولم يذكر وفاته .

٢ - أحمد المسيرى :

أحمد بن على بن موسى المسيرى ، نسبة إلى بلدة بولاية البحيرة « الأديب الشاعر والأريب النائر » . ولد ببغروت سنة 1225 (1810) كان والده قد رحل إلى بيروت عندما احتل الإنجليز مدينة الإسكندرية سنة 1222 (1807) . أمه بنت خليل والد

نشأ أحمد المسيرى فى بيروت وحفظ بها بعض القرآن ، واستكماله فى طرابلس الشام عندما انتقل إليها والده سنة 1233 (1817) وظل يتنقل مع والده بينها وبين بيروت إلى أن توفى والده سنة 1239 (1823) فذهب إليه خاله الغزلات وجاء به إلى الإسكندرية مع عائلته . وينقل عبد الحميد عن محمد عاقل أن أحمد المسيرى اعتكف بعد وصوله إلى الإسكندرية « على التحصيل والتلقي ، وبذل الجهد فى الفنون والتفنين ، إلى أن بلغ مناه ، وكاد أن يكاتف فى العلم أباه » . وأخذ العلم على خاله المذكور ، ومحمد بن سليمان العلاف ، وحسين الإدكاوى .

ثم دارت به أيدي الزمن وسافر إلى القاهرة واحتفى بالمفتى محمد أمين المهدي ومكث عنده مدة ، ودرس بالأزهر على

(1) ص 41 - 66 من المخطوط .

(2) أطال عبد الحميد فى ترجمة الغزلات . وكانت بين بعض علماء تونس والغزلات مراسلات وأشعار انظر شعر محمد بن سلامة التونسي فى خليل الغزلات فى كناش رقم 16511 المكتبة الوطنية - تونس . وفى هذا الكناش بعض أخبار محمد بن سلامة عندما ختم كتاب (الشفاء) للقاضى عياض .

حسن القويسى ، ومحمد الأمير الصغير ،
ومصطفى البولاتى وأجازوه ، وصار
« فى العلوم خزانة . وفى الأدب ريحانة »
واختص بالتشعر والخطابة ، وملك أعنة
النثر والكتابة ، واشتغل مصححاً للكتب
فى المطبعة البولاتية .

ثم دارت به الأيام مرة أخرى . فخرج
إلى الصعيد ، وانضم إلى العسكر فسير إلى
الحجاز ، « يتأطى حرق الجوى ، ويتأوه
من النوى » ، ثم رجع إلى مصر وتوظف
فى الدواوين ، ولكنه سرعان ما ترك
الوظيفة « واشتغل بالعلم والآداب والمسامرة » .
وكان سريع الفهم ، حاضر البديهة « طالما
نظم المائة بيت محاضرة بلا محاضرة » .
ولذلك ضاع أكثر شعره ، وقد جمع حبران
المخلع بعض أفواله من أوراق ممزقة فى
(مجموع) جاء نحو عشرين كراسة .

وقد اشتهر المسيرى بالخلاعة والفكاهة
بين الناس وابتلى بداء الإفرنجى (؟)
فكان يشرب الخمر ثم أقبلع عنها ، « واختلى
بنفسه » ، وتخلّى عن مجالس أنسه ،
ثم رجع إليه المرض وحكم الطبيب بأن

لأنجاة له من الموت إلا بالشرب . ولكنه
« اختار الموت مع التوبة على الحياة ،
والأوبة » وقد مات فى الإسكندرية -
عام 1268 (1851) عن 43 سنة وقد
توسع عبد الحميد فى أخبار المسيرى كما
رواها له محمد عاقل . سيما أخبار المسيرى
فى الحجاز مع حاكمه أمين باشا وعلاقته
السيئة بأهل عسير واستنحاده بالمسيرى
ايحتمل له زايرة فى ذلك . وروايات خاله
الغزلات عنه .

ثم أضاف عبد الحميد معاومات أخرى
عن المسيرى حول أدبه بالذات فقال إنه
كان « من نوادر الدهر » علماً وأديباً ،
وأن عدداً من الأدباء انتفعوا به ، وجاء
بجملة « من غرر نظمهم ونثره » فأورد
قطعة فى مدح بطرس كرامة التزم
لفظة (الخال) على اختلاف معانيها :

لبطرس إبراهيم آل كرامة

رسائل مدح فى طلائعها الخال

فى العلم والأفضال والمجد والعلا

على أنه من أصل عصره الحال

له من رقيق النظم كل محرر

على تاجه بين الورى عقد الخال

وروى له قطعة أخرى التزم فيها لمظة
(سلامه) :

سلا القلب عن طبي لا يبيح سلامه
فقتل لعزول قال غنى سلامه
لئن كنت راودت السلوفلا وقت
حتاشة قلبي في هواه سلامه

٣ - علي الصيرفي :

علي الصيرفي بن أحمد الرشيدى ، من
الأشراف . ولد برشيد سنة 1170 (1756)
ونشأ بها ، ثم توجه إلى الأزهر ، وتخرج
منه في المعقول والرياضيات . ورجع إلى
رشيد بعد المائتين للإقامة والتدريس .
وقد اشتهر بمهارة واسعة بالعلم والغنى والجاه
لدى الحكام .

قال الصيرفي الشعر ومارس الإنشاء ،
وتعاطى العاوم الرياضية ، واشتهر في
ذلك حتى في الشام . ولما سمع به أحمد
الجزار استقدمه إلى عكا ، سنة 1220
(1805) واستفاد منه الميقات والرمل ،
والحروف ، وأقام لديه خمس عشرة سنة .
ثم رجع إلى رشيد وتولى بها نقابة الأشراف
وقد ظل بها يدرس ويفيد إلى وفاته
سنة 1238 (1822) .

ولعلي الصيرفي ديوان شعر أخذه مفتي
اسطنبول عارف حكمت ، أثناء مروره
بمصر للحج ، أخذه من ابنه محمد الصيرفي
« وله الشعر الدقيق والإنشاء الرقيق » .
يتناقل الناس شعره ، وقد شطار البردة
وسمى التشطير (المواكب البدرية في
الكواكب الدرية) . ومن شعره :

ألقى يديه على صدرى فقلت له
أبرأت منى مكانا أنت موجهه
وله في الغزل :

غزال جعلت الروح رهن وصاله
فلا الوصل أعطاني ولا رد لي رهني
غدا مالكي لكن نعمان ندمه

قضى في دمي سفاكا ولا شافعي يغني
يظن بأنني في الهوى غير ثابت
فيقطع في قلبي ويحكم بالظن

ومن تشطيره للبردة :

أمن تذكر جيران بذي سلم
أطلت سهدك في حزن وفي ألم
أمن تباعد أحباب وفرقتهم
مزجت دمعاً جرى من مقلة بدم

أم هبت الريح من تلقاء كاظمة

فهيجت نار وجد زائد الضرم

وله قصيدة طويلة طرز في أوائل أبياتها

اسم (الشيخ عبد الرحمن إبراهيم

الخضري) ، ومنها قوله :

لا زلت أخفي الهوى والدمع يظهره

وهل رأيت كئيبي قط يخفيه

شأني عجيب فحمر الشوق متقد

على الدوام وما دمعي بمُطفئيه

* * *

هذا الكتاب الذي يتلى فيه جز من

يأتى بثقل له أو من يضاهيه

يا كاسي الحظ. حظاً أنت لا بهيه

وكل فضل بفضل أنت كاهيه

مالي جواب سوى عجزى ومعذرتي

إليك فاقبل فمجز العبد كافيه

ألفاظه محروك العقلا نقارئه

ما روت من سحر هذا لا يماريه

والصير في ابنه : دلي ومحمد . والأول

شاعر أيضاً . خير أن نزهرة أبيه طغت

عليه حتى إن شعره ينسب إلى أبيه أحياناً .

4 - محمد أمين الزلى :

محمد أمين بن حبيب بن أبي بكر بن

خضر الزلى . المشتهر بأمين أفندي الزلى .

ولد بالمدينة المنورة ونشأ بها وأخذ بها

النام عن الواردين عليها من علماء الأطراف .

وتكون هذا في المنقول والرباضيات

« وغلّب عليه الأدب فنظم ونشر وتفرّد

فيهما » .

طاف الزلى العراق والشام ومصر والروم

واشتهر هناك . وله مراسلات ومحاورات

مع أدباء الآفاق . وقد جمع حولهم كتاباً

سماه (المجموع الأدبي) لم يخرج منه من

مودته . وله كتاب آخر في تراجم -

المتقدمين ، والمتأخرين من العلماء والأدباء

والأعيان ، مات قبل أن يرتبه « نقلت منه

جملة من تراجم أعيان القرن الثاني عشر

في تاريخي الذي رتبته فيه ، والثالث عشر

هذا » .

وجاء الزلى إلى مصر مراراً . واجتمع

بأعيانها وعلمائها ، وحصلت بينه وبين

الأديبين أمين أفندي العجمدى الحمصى
وبطرس كرامة محاورات أدبية وآخر
وروده على مصر بتشكياً (ترك المؤلف عند
فراغ أكثر من نصف صفحة)

جاء ذكر الزلى في (حليقة الأفراح)
لأحمد اليمنى الشروانى إذ قال عنه . صاحبنا
الذى اجتمعت به عام 1222 (1807) في
محلة وقد أشاد به . وذكر له قصيدة
طويلة في الغزل مطلعها :

لاح الصباح براية بيضاء
وسطاً فنفرق عسكر الطامع

والروضة الغناء قام هزارها
يشدو فأشجانا بطيب غناء

وله من قصيدة أرسل بها إلى أحمد
اليمنى الشروانى :

حزت المحاسن جمعاً والمعادن في
الآداب فرداً فما أبقيت للشعرا

ما شام مثلك في البدو وفي حضر
من طاف طول الزمان البدو والحضر

دعوى فيك عليها حجة ظهرت
من نظمك العذب يا من نظم الدررا

نسرفتني ببيان دون صنعته
نظم البلديع ومعنى يهجل الزهرا

وإلى لز نظمت الرهر في كاسى
ما كنت مثلك بالإنفان مشتهرا
وتتمد ترجمة الزلى من صفحة 126 إلى
131 . وفيها قطع وفصائد معظمها في
الغزل

5- محمد كاشف البخارى :

محمد بن محمد عبد الودود بن محمد
عبد الغفور بن محمد فاروق . أخبر المؤلف
أنه بلغه أن فاروق هذا قد أوصى بتسمية
عقبه إلى ما شاء الله بمحمد . فوصل العقب
إلى محمد عاقل (صديق المؤلف) وهو
الرابع من عقبه هذه التسمية .

ولد محمد كاشف (المشتهر بكاشف
أفندي) في خوجند من أعمال القوقاز
سنة 1192 (1778) ، قرأ هناك القرآن
ثم أرسله والده إلى بخارى كعادة أهل
تلك الناحية مع أولادهم . وقد أخذ العلم
على ميرزا عبد الغفار ، والطريقة النقشبندية
على ميرزا رجب بابا إيشان المتوفى بمصر
سنة 1232 (1816) .

وبقى محمد كاشف في بخارى إلى وفاة
والده سنة 1220 (1805) ، ثم اختلف

مع عمه حول تركة والده فحجج عن طريق مصر سنة 1221 ، وبعد الحج رجع إلى مصر ، والتقى فيها بالشيخ عبد الحكيم تراني بابا (وهو الشيخ الذي أقرأ أيضاً والد المؤلف) ، وكان شيخاً على تكايا البخاريين بوقف البسطامي ، فتنازل له عن مشيخة التكايا . فتولاها واشتغل (محمد كاشف) بالمطالعة . وفي سنة 1229 (1813) اختاره محمد لاطاعلي - خوجة له . ليعلمه الفارسية إلى سنة 1232 (1816) . ثم عينه الوالي محمد علي رئيساً على خوجات علمانه في إسما إلى 1239 (1821) . وبعد سنة واحدة ررق بابنه محمد عاقل .

وعين محمد كاشف مصححاً للكتب الفارسية والتركية بمطبعة بولاق إلى سنة 1241 (1825) . وفي هذه السنة أرسله محمد علي إلى إيران ليتجسس له على أحوال دولتها هناك بإشارة من الباب العالي ، فتوجه محمد كاشف إلى إيران ماراً بسورية . وبعد سنة رجع إلى مصر وعينه الوالي محمد علي على مدرسة قصر

العينى وعيها من المناصب إلى أن وصل إلى بطارية المدرسة البحرية بالإسكندرية . وقد توفي سنة 1268 (1851) عن 68 سنة . وترك بالإسكندرية أملاًكاً وعقاراً .

كان محمد كاشف شاعراً ماهراً بالفارسية والتركية والعربية . كما حلق الإنشاء . ومن شعره :

دع كثرة الفكر في أمرهم به
وخل سبيل القضا يعجز على قدر
ونم حلينا من الأفكار مسترحاً
وكثرة الفكر تبدى شدة الخطر
ومن إيشائه تقريره لترجمة (كلستان)
لسعدى (1) . التي قام بها جبران المخلع من
الفارسية إلى العربية . ومن ذلك قوله :
« أزهار حمد تزهر في رياض الجنان
على مدى الأزمان ، وثمار شكر يقتطفها
بنان البيان والأركان ، وجداول ثناء
متسلسلة لا ينقطع مددها من ينابيع -
الأذهان ... »

أما بعد ، فإن كتاب كلستان روضة
منتقاة من شوك الشوائب ووردها ، مدبجة

(1) من الدين قرطوا هذه الترجمة أيضاً محمد ابن العنابي الجزائري ، كما ذكر عبد الحميد في ترجمته له .

بألوان اللطائف خدودها .. جمعت بين
أخلاق المقراء وسير الماوك . وأبدعت
تمائل البلاغة . بما أودعت من أصائل
البراعة ... إلخ » . وهو تقرير طویل
كتبه سنة 1259 (1843) .

وقد علق المؤلف (عبد الحميد) على
ذلك بقوله : إن المقرظ كان يمدح في
الترجم بعبارات أوردتها ، فيها تعريض ،
ولكنه مع ذلك عذره في قدحه ، لأن الفرع
في نظر عبد الحميد ، لا يمكن أن يرقى إلى
الأصل ، وقال : إن من اطلع على الفرع
والأصل (النص الفارسي والترجمة العربية)
يظهر له « التضاد بينهما » . ومن هذا
التعليق ربما يظهر المدارس أن عبد الحميد
كان يتقن الممارسة ، كما أشرنا .

6 - محمد نوار الاسكندري :

محمود بن عبد الله نوار ، أصله من
الحجاز ، ولد بالإسكندرية سنة 1248
(1832) . ونشأ بها وحفظ القرآن ،
ودرس العلوم العقلية والنقلية على والده
وعلى المعاصرين له من العلماء بالإسكندرية
وكذلك بالأزهر حيث كان والده محاوراً
به ، فكان من مشايخ محمود الشيخ حسن

الطار ، وإبراهيم الرياحي التوفي أثناء
مروره للحج وفي سنة 1264 (1847)
حج مع والده ، ورجع إلى الإسكندرية
فأقام فيها واشتهر بالشعر ، وجرت بينه
وبين أدبائها محاورات . ولكن المنية وافته
في ريعان شبابه سنة 1274 (1857) عن
25 سنة وتسعة أشهر ، فكان ذلك بكبة
كبيرة على والده .

ويحبر عنه عبد الحميد أنه كان « حاذقاً
ذكياً متكلماً » . ولم يذكر له وظيفة
تولاها ، وجاء له بشعر غزير . فممنه في
مدح أحمد بك صادق :

دم في زمانك أنت وحدك صادق
حامي الدثار ودون مجدك طارق

وكتب إلى أبيه أثناء غيبه عنه رسالة
صدرها ببيتين :

ولو لم يكن عندي بقايا تجلّد
لجيت إليكم قد فداً بعد فداً

وسابقت أفراس الرياح بهمتي
وحدثت نفسي أن أمد لكم يدي

وبعث إليه برسالة أخرى وصدرها أيضاً
ببيتين ، ولكن نشر الرسالتين غير مذكور

وله قصيدة طويلة في العتاب بعث بها إلى
الشيخ حسن اللقاني :

أعيدى على الكأس شموله خمرا
فألحاظك الوسنى تعلمنى السكر

وجاء فيها قوله :

سلوا من قوام البان جرح فؤادهم

مقدمة كبرى اذا سلموا الصغرى

كما يجرح المولى بمبضع ضده

شرايين ودى ثم لا يحسن الجبرا

بروحى من يعفو ويهزم تارة

على مثله يعجنى ويحتسب الأسرا

كبير أناس يستخف بأنفس

لتكبر لكن نفسها تكره الكبرا

وما شأن مثلى موسر من جفائه

سوى أنه لله يجتنب العسرا

وله قصيدة أخرى أرسلها إلى نفس

الشيخ جاء فيها :

إذا جن ليل العاشقين فأقبلى

إلى مستهام عند دار ابن مقبل

تواضعت أحيانا فلم يجد نفعه

ورحت بأعباء الصبابة مبتلى

وعربدت أياما فضل بى الهوى
وأنت بأعجاز وعدت لكل

* * *

همام له مجد يلوح وهمة

تفوح بنشر من شدا طيب همل

وفهامة صاغ القريض بنمطنة

وعلامة يزدهو على خير أمثل

وتعزى له ذات العـلوم وتنتهى

ويعنو له المعلوم فى أى محفل

لعمرك إني ما كذبت وإنما

ذكرت لكم قدرا ولم أتوغل

إليه انتهى فى الشعر كل بديعة

تروق وتجلو ضمغن أزمة معول

فخذها مسجاة بأحسن حلة

فأنت لها كفء تكرر بمغزل

وشد عليها بالنبال وقل لها

إذا جن ليل العاشقين فأقبلى

٧ - مصطفى أبو الفضل :

ينتهى نسبه إلى السادة الوفائية . ولد

بالحواتر بولاية الدقهلية سنة 1228 (1813)

وجاء إلى الإسكندرية مراهقا . وهناك كفله

على بك جنينة ، قاضى الإسكندرية ورباه

وأقره القرآن وعلمه الكتابة ثم ألحق

بكتبة المحكمة إلى أن صار هو رئيسهم .
و أكثر من محاولة شعراء الإسكندرية حتى
أصبح من أبرز الشعراء .

وانهضك في الملذات والجمالة مع صديقه
أحمد المسيرى حتى بدد ما عنده من أملاك
ومتعنيات .. وخاف افتصاح أمره بين
الناس وسافر إلى القاهرة . واشتد به
الفقر فأتفق عليه بعض إخوانه هناك .
وفتح له دكاناً يبيع فيه الأقمشة . ثم
تعرف على بعض الأعيان فعينه قاضياً في
مدينة رشيد . وتحسنت حالته المادية .
ونكحه عزل من القضاء سنة 1270 (1853)
فرجع إلى الإسكندرية وإلى ملاذه وخلاعته
فيها إلى أن ضاع منه كل ما جمعه أثناء
ولايته القضاء . ولما ضاق به الحال افتتح
دكاناً يرتزق منه بالنساختة . وقد قال
عنه :

يسألي عن حالي من بعد ما
قد كنت من أهل الفتوة والهمم

م. ح. ن. عان مشرو بمكانة
يستحلب الأرزاق من شق القلم

وفي سنة 1271 توفي بالسُّل أثناء رجوعه
من مولد السيد البدوي . عن 43 سنة .

كان « أديباً . شاعراً منشئاً . وكان
في أوقات فاقتة واحتياجه حريضاً على
اقتناء كتب الآداب وممارسة الظرفاء
والأدباء » . وقد وجد عنده بعد وفاته
ما يسيف عن 160 مجلداً في الأدب . وله
شعر في مدح آل البيت ، وفي التوسل
بالنبي عليه الصلاة والسلام ، وفي التحسر
على ما فات . وفي الغزل والوصف . وقد
قال في التحسر :

انعين قرحى ونار القلب تنقد
والوجد قام ولا صبر ولا جلد

يا ليت شعري وهل للوصول من أمل
وهل تعود ليال عيشها رغد

تلك الليالي التي ما كان أجملها
درت كأصغات حلم ليتها تعد

وقال في الربيع :

إذا اخضر روض فيا حبدا
ثغور أقاحيه تبدى ابتسام

ياد لقاب الشـجى عندها
سماع الأغاني وتشرب المـدام

ويا حـمدا الوقت من ساعة
جميع محاسنه في انتظام

وذكر له عبد الحميد - نموذجيين في الإيشاء الأدبي ، أحدهما استدعاء بعث به إلى صديقه أحمد المسيري إلى خان بروص والآخر رسالة بعث بها من رسيد إلى الشيخ محمد عاقل ، أثناء ولايته القضاء بها ، وكلا النموذجيين في غاية الرقة والسلاسة بأسلوب ذلك الوقت . وأضاف عبد الحميد قوله عنه : « وشعره وإنشأؤه كثير تناقده أهل الإسكندرية » . وقال : إن له (ديواناً) وجد بتركته وكان « أكثره محوياً - وخمريات » . ولما أطلع عليه أخوه ، وكان متصوفاً ، مزق الديوان ولم يترك منه « إلا ما في المجاميع وصدور بعض الناس » .

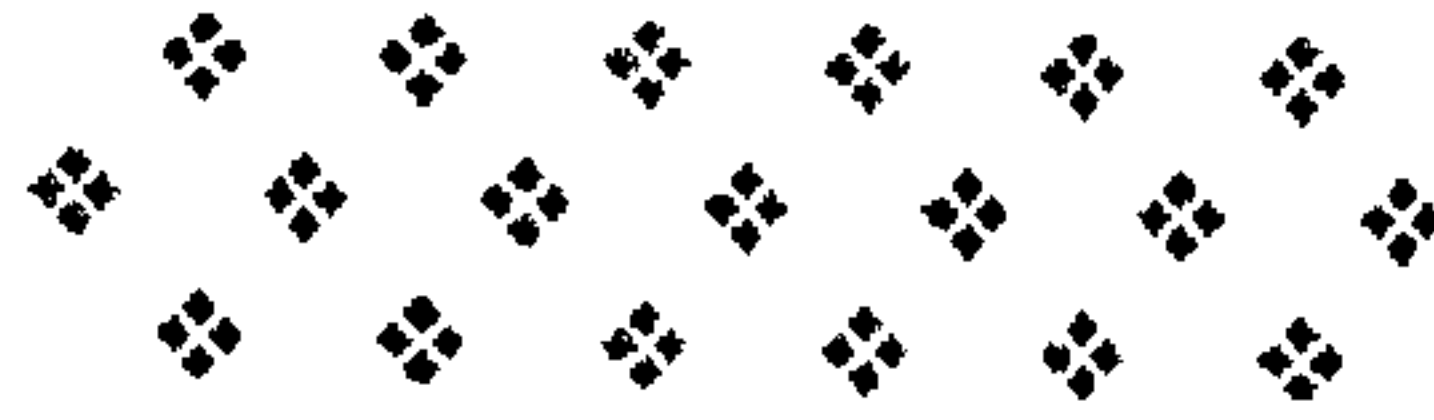
خاتمة :

هذا هو مخطوط عبد الحميد بك الذي قد يصادق عليه عنوان (أعيان من المشرق

والمغرب في القرن الثالث عشر) . وهذه هي بعض التراجم الأدبية أو المتصلة بالأدب الواردة فيه . ونحن عاملون على تحقيق هذا المخطوط الخصص في معلوماته المتنوع في شخصياته ، رغم عدم استيعابه وإحاطته لوفاء صاحبه في شجاره وقيل إتمامه . ونحن نحسب أن المخطوط ما يزال بكرًا . فإن سبقنا الغير إليه بالتحقيق أو بالتعريف وحسبنا منه الجهد الذي بذلناه في استجلايه وتصويره ، والعلم الذي استقيناه من صفحاته وسطوره .

وفوق كل ذي علم عليم .

أبو القاسم سعد الله
عضو المجمع المراسل (من الجزائر)



آراء ابن جني

في تضعيف كتب الشريف الرضي

للدكتور حسين علي محفوظ

كان الرضي تلميذ ابن جني وصـ مديقه
 وكانت بينهما مودة أكيدة . وحلطة
 متقدمة . وأسباب جامعة . وقد قرأ عليه
 ضيلاً . وامتداد منه كثيراً . وكان هو
 مشوق الصلاة عليه قبل دمه .

قرأ الرضي على ابن جني . وتعلم منه ،
 ونقل آرائه في كتبه . وقد أطراه وأثنى
 عليه في كتاب تلخيص البيان . ووصفه
 - مستنباط الخبايا . واستطلاع الخفايا .
 قال : « كان - عنما الله عنه - كثير
 الاستنباط للخبايا ، والاستطلاع للحمايا »
 وقد قال ابن جني في كتاب الرضي
 (حقائق التأويل) هذا : « صنف الرضي
 كتاباً في معاني القرآن الكريم يتعذر وجود
 مثله » .

عبر الرضي عن ابن جني بلفظ شيخنا
 في كل المراتن ولقبه « شيخنا وصديقنا »
 مرة في الكلام على إراغة القارب .

وقال في كتاب حقائق التأويل : « وكان
 [ابن جني] يعنونه التعلل في استنباط
 معنى . والترويج إلى عامتها . والغوص
 على قراراتها إلى أن يورد مثل هذا الذي

(*) التي هذه ألحقت في الجلسة الخامسة من جلسات المؤتمر المعقودة يوم الأحد ٧ من شعبان سنة ١٤١٠ هـ الموافق ٤ من مارس (آذار) سنة ١٩٩٠ م.

وفد فسر (الأمتاذ) ابن جى قصيدة
الرضى الرائية التى رقى بها أبا طاهر إبراهيم
ابن ناصر الدولة الحمداني . وقتله أبو الدواد
العتيلي ، فى المحرم سنة ٣٨٢ هـ « وهذه
التمهيدية فصيحنة الألفاظ ، كثيرة المعاني .
فسرها ابن جنى فى حياة رضى عمده
لأجل ذلك » ، ومطلع القصيدة :

ألقى السلاح ربيعة بن نزار
أودى الردى بقريعك المغوار

وهى فى (٥٩) بيتاً .

وقصيدة الرضى فى مدح الأمتاذ ابن جنى
أولها :

أراقب من طيف الحبيب وصلاً
ويأبى خيال أن يزور خيالاً

وهى فى (٣٥) بيتاً ، قال فيها :

وأكبر همى أن ألقى فاضلاً
أصادف منه للغيل بلالاً

ولابن جنى تنميسر العلويات ، وهى أربع
قصائد للشريف الرضى ، كل واحدة فى
مجلد . وهى القصيدة التى رقى بها أبا طاهر
ابن ناصر الدولة ، والقصيدة التى رقى بها
الصاحب بن عباد ، والقصيدة التى رقى

بها الصابى . وقد سماه ابن النديم كتاب
تنميسر المراثى الثلاث . والقصيدة الرائية ،
ولا ندرى ماهى !

وقد رثى الرضى أمتاذه ابن جنى - وقد
توفى ببغداد ، ليلة الجمعة ، لليلتين بتمين
من شهر صفر ، سنة ٣٩٢ هـ ، بقافية أولها :

ألا يا قنوم للخطوب الطوارق
وللعظم يرمى كل يوم بعراق

وهى فى (٥٩) بيتاً . قال فيها ، مما يوضح
أعماق الصداقة والمودة بين الرجلين :

ثقيق إذا التاث الشوق وأعرضت
خلائق قنوم جانباً عن خلائقي

* * *

وفارقنى عن خلة غير طرقة
تضمَّنهما صدر امرئ غير ماذق
(تروق ماء الود بينى وبينه

وطاح القذى عن سلسل الطعم رائق)
أشار الرضى إلى ابن جنى فى بعض كتبه .
فقد ذكره مراراً فى المجازات النبوية ، وفى
تلخيص البيان ، وفى حقائق التأويل .

ونقل بعض أقواله وآرائه ، وروى عنه بعض
المتنزهات . ذكره في المحازات النبوية (٦)
مرات .

قال في الحديث الثاني عشر . في الكلام
على الفصاحة العجيبة في قوله عليه الصلاة
والسلام - وفد تذاكر الناس عنده أمر
لطاعون وانتشاره في الأمصار والأرياف -
« إني أرجو ألا يطلع إليما نقابها » . يعنى
نقاب المدينة .

ذكر شيخنا أبو الفتح السحوى - رحمه
الله - يسمى هذا الجنس « شجاعة الفصاحة »
لأن الفصيح لا يكاد يستعمل إلا وفصاحته
جريدة الحنان ، غزيرة المواد .

وقال في الحديث (٣٩) في قوله عليه الصلاة
والسلام لأروا جه : « أسرعكن لحاقاً بي
أطولكن يداً » .

وقد جاء - أيضاً - في جمعها (أى جمع
أيادى التى هى العطية) يدي . أشهدنا شيخنا
أبو الفتح عثمان بن جنى . وأظنه من أبيات
الكتاب :

ولا أذكر النعمان إلا بصالح

فإن له عند يدي يدياً وأنعماً

وقال في الحديث (٩٤) في قوله عليه
الصلاة والسلام

للرحل الذى قال لبعض الصحابة : « إن
فتح الله عليكم الطائف » . فقال عليه
الصلاة والسلام : « لقد غلغلت النظر يا عدو
الله . . . » .

روى لما أبو على . . الفارسي ، في كتابه
الموسوم بـ (الإيضاح) إجازة ، وأنشدناه
الشيخان أبو الفتح وأبو الحسن السحوى
ملافة قول الشاعر :

طالين يكديون وأشعرون كرة

فهو إضـاء صافيات الغلائل
وقال في الحديث (٢٠٠) في قوله عليه
الصلاة والسلام : « ما دل من القرآن آية
إلا ولها طهر وبطن . . . الحديث » وأنشدنا
أبو الفتح السحوى - رحمه الله - قول الشاعر :
أما ترى قالبا مجنى

أقاب أمرى ظهره للبطن

قد قبل الله زياداً غنى

وكان [ابن جنى] رحمه الله يقول : في :
قوله : (قد قبل الله زياداً غنى) سر لطيف
وهو أنه أقام قبله مقام عزله فكأنه قال
قد عزل الله زياداً غنى ، لأنه إذا قبل فقد
زال سباطه ، وأمنت سبطاته

وقال في الحديث (٢١٦) في قوله عليه الصلاة والسلام : « اللهم إنا نعوذ بك من الأبهمين » ، ومثل تسميتهم التي أبهم إذا كان على الصفة التي ذكرناها (أى للشئ لا يملك دفعه ، ولا يستطيع رده) ما أشدناه شيخنا أبو الفتح عثمان بن جنى النحوى رحمه الله . وأظه من أبيات الكتاب (أى كتاب سيبويه) :

ودامية يتقيها - الرج - ا

ل مرهوبة الحد - ل فالف - ا

قال : والمراد بقوله : (لافالها) أى ليس لها جهة واحدة تتقى منها ، كما يتقى الحيوان العادى من جهة أنيابه ، أو ناحية أظفاره بل كل جهاتها محذور ، وكل نواحيها مخوف .

وقال في الحديث (٣٥٤) في قوله عليه الصلاة والسلام : « من قعد في مصلاه ، حين يصلى الصبح حتى يسبح الضحى ... في حديث طويل » . ومن الشاهد على ذلك قول ذى الرمة ... وأبين من هذا قول الآخر وأنشدناه شيخنا أبو الفتح النحوى رحمه الله :

قالت له وارتفعت ألفتى

يسوق بالقوم غزالات الضحا

وذكره في تلخيص البيان خمس مرات . قال في الآية (٨٧) من السورة التي تذكر فيها التوبة ، في الكلام على الخوالب أن يكون الخوالب ههنا جمع فرقة خالعة وكنت أسـ مع شيخنا أبا الفتح عثمان بن جنى النحوى رحمه الله يقول ذلك . ويذهب إلى مثله أيضاً في قوله تعالى : « ولا تمسكوا بعصم الكوافر » . ويقول : هى جمع فرقة كافرة إلا أن الكلام يكون على القول الأول استعارة ويكون على هذا القول حقيقة

وقال في الآية (٢) من السورة التي يذكر فيها السحل ، وكان شيخنا أبو الفتح عثمان ابن جنى - رحمه الله - يقول : معنى قولهم في القسم (لعمر الله ما فعلت ذلك) أو (لأفعلن ذلك) إنما يريدون به القسم بحياة يُحييها الله ، لا بحياة يحيا بها تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً ، فكأن المقسم إذا أقسم بهذه الحياة دخل ما يخصه منها في جملة قسمه . وجرى ذلك مجرى قوله : لعمرى . فيعبر مقسماً بحياته التي أحياء الله بها والعمر ههنا هو العمر ، ومعناه الحياة . فكنت أستحسن هذا القول منه جداً . وله نظائر كنت أسمعها عند قرائتى

عليه . وكان - عفا الله عنه - كثير الاستنباط
للخبايا ، والاستطلاع للخفايا .

وقال في الآية (١٥) من السورة التي يذكر
فيها طه عليه الصلاة والسلام ، قال :
وأشدني أبو علي منذ أيام بيتاً هو من أنطق
الشواهد على الغرض الذي رمينا إليه . وكان
سماعي ذلك من أبي الفتح رحمه الله وأبو علي
الفارسي معنا في الزمان حينئذٍ لم يميت .
والبيت ، وهو قول الشاعر :

لقد علم الأيقاظ أخنية الكرى

ترججها من حالك واكتحالها

وهذا البيت أنشدنيهِ أبو الفتح النحوي
عن أبي علي الفارسي على قوله : (ترججها
من حالك واكتحالها) .

وقال في الآية (١٨) من السورة التي
يذكر فيها لقمان ؛ وقال شيخنا أبو الفتح
عثمان بن جني أنشدنا أبو علي الفارسي هذا
البيت ، أي :

تراهم إذا ما جئتهم فكأنما

يشيمون أعلى عارض متراكب

وقال : يصلح أن يجعل في مقابلة قوله

تعالى : « وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَاشِعِينَ مِنَ
الدَّلِّ يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِي » .

البيت في صفة المتكبرين بالغيرة . والآية
في صفة الخائعين بالذلة . وهما في طرفين
وسبيلين مختلفين .

والبيت المتقدم ذكره ، أنشدناه أبو الفتح
عن أبي علي على ما ذكرته .

وذكر الشريف الرضي شيخه وصديقه
ابن جني مراراً في (حقائق التأويل في متشابه
التنزيل) . وقد بقيت قطعة من بعض
مجلداته .

قال في الآية (٨) من السورة التي يذكر
فيها آل عمران ، وكان شيخنا وصديقنا
أبو الفتح النحوي يقول : أما قرلهم عور
وحول فالأصل فيه أعرر وأحول لأن جميع
نظائره كذلك . ولأن العور والحول أدخل
في باب الخلقة من الألوان . وليس يقال في
الألوان حمر ولا سود . فدل ذلك على أن
أصل حور وحول التشديد ، والأصل أولى
بهذه الأشياء .

* * *

وقال في تزيين حب الشهوات في الآية (١٤) ،
من السورة التي يذكر فيها آل عمران :

وَمَا يَجْرَى هَذَا الْمَحْرَى مَا عَسَرَهُ لَنَا شَيْخُنَا
أَبُو الْفَتْحِ عَثْمَانُ بْنُ جَنَى - عِنْدَ الْقِرَاءَةِ عَلَيْهِ -
وَقَدْ مَضَى قَوْلَ الشَّاعِرِ (وَهُوَ الْأَفْضَلُ) فِي
تَشْبِيهِهِ النَّاقَةَ بِالْحِمَارِ الْوَحْشِيِّ :

كَلَّمَهَا وَاضِحَ الْأَفْرَابِ فِي لَتَحِ
أَسْمَى بِهِنَ وَعَزَّتَهُ الْأَنْصَابُ

قَالَ . أَرَادَ بِقَوْلِهِ . (أَسْمَى بِهِنَ) ، أَيْ
رَكَبَ بِهِنَ السَّمَاءَ وَهُوَ يَعْنِي بِهِنَ الْحِمَارَ
وَأُنْثَاهُ . وَهَذَا مِثْلُ قَوْلِهِمْ . أَعْبَرُوا وَأَتَمُّهُمْ .

وَقَالَ فِي أَحْزَنِ مِثَاقِ النَّبِيِّينَ فِي الْآيَةِ (٨١)
مِنَ السُّورَةِ ، وَفَالَ لِي شَيْخُنَا أَبُو الْفَتْحِ عَثْمَانُ
ابْنُ جَنَى ، عِنْدَ بَلُوغِي عَلَيْهِ فِي الْقِرَاءَةِ مِنْ
كِتَابِ الْإِبْرَاضِ لِأَبِي عَلِيٍّ الْفَارَسِيِّ إِلَى بَابِ
الْمَصَادِرِ - وَفَدَّ مَضَى فِي أَثْنَائِهِ ذَكَرَ هَذَا
الْبَيْتَ - أَيْ قَوْلَ الشَّاعِرِ :

أَمِنْ رِهْمِ دَارِ مَرْبِيعٍ وَمَصِيفِ
لَعِينِيكَ مِنْ مَاءِ الشَّيْثَانِ وَكَيْفِ

فَقَالَ . كَانَ الشَّاعِرُ قَالَ : أَمِنْ إِنْ رَسِمَ
دَارَ مَرْبِيعٍ وَمَصِيفٍ بِكَيْتِ لَهَا . فَالْمَرْبِيعُ .
وَالْمَصِيفُ فَاعْلَانٌ فِي الْمَعْنَى .

وَقَالَ فِي مَعْنَى رَجُوعِ الْأُمُورِ إِلَى اللَّهِ - وَهِيَ
غَيْرُ خَارِجَةٍ عَنْ سُلْطَانِهِ وَقُدْرَتِهِ ، وَتَقَلُّبِ

الْعِبَادِ جَدِيدًا فِي قَبْضَتِهِ وَمَلَكَتِهِ - : وَقَدْ
مَقْدَمَ مَا حَكَيْنَاهُ عَنْ شَيْخِنَا أَبِي الْفَتْحِ
الذَّحْوِيِّ مِنْ كَلَامٍ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى . « فَبَدَّلَ
الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ
فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِنْ
السَّمَاءِ » الْآيَةِ ٥٩ فِي الْبَقَرَةِ ، وَهُوَ قَوْلُهُ :
إِنَّمَا كَرَّرَ تَعَالَى ذَكَرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَلَمْ يَظَلُّوا
وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ . لِأَنَّ ذَلِكَ أَشَدُّ مَالِغَةً فِي
ذَمِّهِمْ ، وَأَدْخَلَ فِي بَابِ التَّفْحِيشِ لِدُكْرِهِمْ
وَلِأَنَّ إِظْهَارَ اسْمِ الْمُسْتَحِقِّ لِلْعِقَابِ مَعَ الْإِنْجَارِ
يُوقِعُهُ بِهِ أَتْلُغَ مِنْ إِضْمَارِهِ ، وَأَجْدَرُ بِخَوْفِ
الْخَائِفِ مِنْ مِثَارِ كَتَبِهِ فِي وَجْهِ اسْتِحْقَاقِهِ .

وَقَالَ فِي « كُنْتُمْ حَيْرَ أُمَّةٍ » فِي الْآيَةِ (١١٠)
وَأَنشَدَنَا شَيْخُنَا أَبُو الْفَتْحِ الذَّحْوِيُّ فِي مِثْلِ
ذَلِكَ .

سِرَاقَةُ بَنِي أَبِي بَكْرٍ تَسَامِي
عَلَى كَانَ الْمُسُومَةُ الْعَرَابُ

وَقَالَ فِي فَصْلِ النَّظَرِ عِنْدَنَا غَيْرَ الرُّؤْيَةِ :
فِي رُؤْيَا الْمَوْتِ - فِي الْآيَةِ (١٤٣) مِنَ السُّورَةِ ،
وَأَنشَدَنَا شَيْخُنَا أَبُو الْفَتْحِ :

فَيَأْمِي ' هَلْ يَجْرَى بِكَائِي بِمِثْلِهِ
مَرَارًا وَأَنْفَاسِي إِلَيْكَ الزَّوَاوَرُ

وإني متى أشرف من الجانب الذي

به آت . من بين الجوانب باطر

قال : وكان يستشهد بهذا الشعر على أن
الرؤية غير النظر . ويقول : لو كان النظر
بمعنى الرؤية لم يطلب الشاعر عليه الجزاء ،
لأن المحب لا يستشيب على النظر إلى محبوبه
ثواراً ، ولا يستجرى عايه جراً .

قال في معنى قوله تعالى : « فَاسْكِحُوا
مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ » في الآية (٣) من
السورة التي يذكر فيها النساء . وفي أن
من تبع الكلام على هذه المسألة تبين الفرق
بين قولهم (اللاتي) بالياء ، و (اللاتي)
بالتاء . وكان شيخنا أبو الفتح النحوي
- رحمه الله - يقول : إن اللاتي واللاتي
جميعاً جمعان للتي ، إلا أن اللاتي بالتاء
المعجمة من فوقها للجمع القليل ، واللاتي
بالياء المعجمة من تحتها للجمع الكثير .
قال : ومن الدليل على ذلك أن كل جمع
يضارع واحدة من جهة من جهات المضارعة
فهو أدل على ما قرب من واحدة في باب
العدد

وقال في معنى قوله . « إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً
وَمَقْتًا » : وقد ذكر لنا شيخنا أبو الفتح

عثمان بن جنى النحوي في ذلك وجهاً آخر .
قال : (إن العادة قد جرت إذا مدح الإنسان
أو تمدح أن يذكر أسلافه وقديمه وبيته ،
وأوليته ، أو يذكر له ذلك . » .

وقال في معنى قوله تعالى . « وَلَا يَكْتُمُونَ
اللَّهُ حَدِيثًا » في الآية (٤٢) من السورة : وعلى
ذكرنا قول الله سبحانه . « وَهُمْ يَصْطَرِحُونَ
فِيهَا رَسُولًا أَخْرِجًا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي
كُنَّا نَعْمَلْ » . فقد كان شيخنا أبو الفتح
النحوي عمل في آخر عمره كتاباً يشتمل
على الاحتجاج بقراءة الشواذ ناحياً به نحو
أبي على العارسي في عمل كتاب الحجة ،
وهو الاحتجاج للقراء السبعة . فقال فيه
محتجاً لقراءة من قرأ في الزخرف :

« وادادوا ياء مال ليقتض عليها ربك ... »
بالترخيم ، بعد ذكره وجوهاً في ذلك : يجوز
أن يكون اتخاذاً ذلك على وجه الحكاية لكلام
الكفار . وهم في أطوار العذاب لأنهم لشدة
آلامهم ، وإطباق العذاب عليهم قد ضعفت
قواهم ، وخنفت أصواتهم ، وضعفوا عن
تسميم اسم مالك عند بدائهم له ضعف أنفاس
وخنفت أصوات فحكى سبحانه قولهم
ذلك على وجهه

حسين على محفوظ

عضو المجمع المراسل (من العراق)

المصادر والمراجع

- ١ - القرآن الكريم .
- ٢ - حقائق التأويل في متشابه التنزيل - الشريف الرضى .
- ٣ - تلخيص البيان في محاربات القرآن - الشريف الرضى .
- ٤ - المحازات النبوية - الشريف الرضى
- ٥ - ديوان - الشريف الرضى .
- ٦ - تقويم حياه الشريف الرضى - د . حسين علي محفوظ .
- ٧ - الشريف الرضى ، « دراسات وأبحاث » / د . حسين علي محفوظ .
- ٨ - الشريف الرضى ، « مقالات » / د . حسين علي محفوظ.



بين العلم والأدب عندنا : برنخ لايبغيان للدكتور أحمد سليم سيدان

سأدتي الكرام^١

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

الكلمة المكتوبة أو المسموعة ، وهما
العمل من أجل مستقبل أفضل ، لنا ،
وللإنسانية جمعاء .

وقبل أن أشرع بعرض ما أشكو منه
أستأذنكم أيها السادة بأن أعرض أمامكم
صورة من تضافر العلم والأدب في العالم
المتقدم :

غنى عن القول إن علوم اليوم هي صناعة
غربية . أجل إن جذورها عربية وإغريقية
وبابلية وفرعونية ، ولكن جذوعها وفروعها
وأغصانها وأوراقها وثمارها - كلها غربية -
وهي متطورة آخذة بالعلو والنماء ، ومفاتيح
تطورها كلها بيد الغرب . وهي كلما
أردت نمواً ، زادت بعداً عن جذورها ،
كشجرة تفاح تتركب على فروعها شتى
أرواع الفواكه ، فتؤتي ثماراً غير تفاحها
الأصيل .

قدري أن يكون أول حديث لي إليكم
شكوى . ولا بد من شكوى إلى ذى مروءة
يواسيك أو يسايك أو يتوجع ولكن
شكوى لا للمواساة والتوجع ، بل هي
دعوة لتأمل وتفكير يفضي إلى عمل جازم .
إنها الشكوى مما أراه عندنا من قطيعة بين
العلم والأدب تفصلي إلى ما نعانى منه من
أزمة فكرية ، وجمرد ذهني في عالم متطور
متفجر يطلع كل ساعة بجديد ، في كل
من مجالات الفن والأدب والعلم والتكنولوجيا
في جميع دروب الحياة . والعلم والأدب ،
ابنان توأمان للفكر الإنساني ، طبيعتهما
وطبعهما أن يكونا متضامنين متكافلين ،
يسند كل منهما أخاه ويغذي به ، سلاحهما

(*) ألقى هذا البحث في الجلسة الخامسة من جلسات المؤتمر المعقودة يوم الأحد ٧ من شعبان سنة ١٤١٠هـ

الموافق ٤ من مارس سنة ١٩٩٠م

وعندما كان الغرب يتاقى علومه من الكتب العربية ، كانت لغة الكتابة عنده لاتينية ، وكان المتعلمون فيه هم القلة التي تتقنها ، وكان أكثرهم . بل كلهم . رجال دين . ثم تنبه العرب إلى ضرورة إحياء لغاته ، البيسية . وجعلها لغات كتابة .. وفي غضون ذلك كان إبداعه الفكري الذاتي قد بدأت بواكيره ، فقامت بهضمته العسكرية ، ثقافية كانت أم اجتماعية أم سياسية ، أم أدبية - والعلم ركن هام من أركانها ، فكان إن مصمت لغته المكتوبة في تلورها مع تطور العلم . حتى جاءت الآداب الغربية مجبولة بالعلم ، وهو الركن الأساسي من أركانها ، والملمهم الأكبر في تسريع إنتاجها وتطويره ، سعراً كان أم فصرة ، أم فن رسم أم موسيقى . العلم في الغرب طابع الحياة اليومية ، يرضعه الطفل مع حليب أمه ، ويتلقاه في البيت والشارع والملاعب والمقهى ، والصحافة اليومية بل المدرسة . في الغرب نجد رجال القلم . والأدب ، والصحافة والسياسة . والتاجر في مشجره ، والصانع في مصنعه ، والفلاح

في مرمرته . ونجد سائق التاكسي وربة نسيج -- نجد كلاً من هؤلاء . له من العلم المعاصر نصيب . يحاربونه في تطوره وتمخره . يتلقاه في الكتب المبسطة ، والصحف والشرائح . وفي الإذاعة والتلفزة ومعارف الأخبار عارفين يفهمون ما يقولون . حتى أحدث الابتكارات العلمية والتكنولوجية تجد الحديث عنها . وعدا يستطرون أثر لها . على لسان الخاص والعام إن من قيم الحياة في العالم المعاصر أن المرء المتقف ينبغي أن يكون ملماً بما يحرق في حقول العلوم من مستحدثات نظرية وتطبيقية . أضف إلى ذلك أن العالم المتقدم يعيش عصر صراع هو حرب حياة أو موت ، أدواته المافدة صاحبة الغلبة المطابقة هي العلم .

مد الأربعينيات من هذا القرن . صرنا نعيش عصر تفجر علمي رهيب . الخفي فيه أشد هولاً من الظاهر المرئي ، ولكن العيون اليقظة والأذهان المتمتعة لا تلبث أن تكشف كل خفي . وتحاربه بما هو أكثر خفاءً ليس علم اليوم كمالياً من الكماليات . وإنما هو ، كالماء والهواء ،

والغذاء ، ضرورة من ضرورات الحياة .
والسلاح الأقوى من أسلحة الصراع .
لا يغير من الصورة ما صار يبدو اليوم من
انفراج بين أكبر قوتين في العالم .

والدول المتقدمة همها أن تقيم تفاعلاً
قوياً مستديماً بين العلم والناس والعلم والأدب
والأدب والعلم الإنسانيات .

فعلى الصعيد الشعبي :

ما إن يتم إنحاز علمي ذو شأن . مما قد
يكون له أثر في حياة الناس ، مثل كشف
طبي أو صناعي أو زراعي ، حتى تنسرى
وسائل الإعلام لنشره ، بأقلام خبراء
علميين تربويين ، في الإذاعة والصحافة
والتلفاز ، ثم تصدر الكتب العلمية
المبسطة تريد البحث فيه تفصيلاً ، بطبعات
شعبية رخيصة الثمن .

وإذا ظهر كتاب قيم بلغة أجنبية ، مما قد
يفيد الجماهير ، فلا يلبث أن يترجم ،
وينشر بطبعات رخيصة . وقد يكون النشر
سلاحاً ذا حدين ، فتظهر النشرات المفيدة
إلى جانب كتب اللهو والمجون . ولكن
النشر في العالم المتقدم حر ، والقارئ هو
الذي يختار ما يرضيه . والمربون يعرفون
أن بعض الكتب تضر ولا تنفع . ولكنهم

يتركون الخيار للقارئ كي يتقى الكتاب
ذا جاذبية خاصة ، وكيلا يؤدي حجب
بعض الكتب إلى البحث عنها خلسة .

وعلى صعيد الإنتاج الأدبي :

نجد الأديب ذا رؤية علمية ، يدرك
اتجاهات علوم عصره ، وله في قرارة نفسه
فلسفة علمية تقيّم الحاضر وتشارف
المستقبل ، فهو في ما يبدع من أدب مكتوب
أو مسموع يخلق رخياله فيستطلع ما هو
حار وما قد يجري في المستقبل القريب
أو البعيد . وبذلك يوحى إلى زميله العلمي
بأفكار جديدة ، ويدفعه إلى مزيد من
البحث والاستقصاء ، حتى ليجعل من خيال
الأديب بالأمس وأوهامه بعضاً من حقائق
اليوم وعلومه ، فيدفع الجديد من حقائق
اليوم أديب الغد إلى جديد من الخيال ،
وجديد من الرؤى والتطلعات .

هكذا يتصاغر الأديب والعالم في العالم
المتقدم ، كل منهما يسند الآخر ويرفده .
ومع تطور العلم والتكنولوجيا يتطور الأدب
والفن ، حتى لتقام بين حين وآخر معارض
لآداب الخمسينيات والستينيات وفنونها ،
فتقارن بما كان قبلها وما جد من بعدها ،
وما أبعد ما بين هذا وذاك .

حتى اللغة يعترىها ما يعترى العلم والأدب
من تطور . إن اللغة أداة العلم والأدب ،
تتسع إذا اتسعت آفاقهما وتضيق إذا
ضاقت . إنها لغة الأمة ، ولها من ثم
كرامتها وفداستها . ولكنها أيضاً لغة حية
فهى من ثم مقطورة قابلة للانساع والنماء .
إنها بحق مرآة حياة الأمة ، تعز إذا عرت
الأمة ، وتهون إذا هانت .

إن لعلم المتجدد يالهم الأدباء بقدر
ما يلهم العلماء فينوعون إنجازهم ويزيدونه
جاذبية ، مستندين إلى خلفية علمية صلبة .
وهو قد يلهم غير المتخصصين بأكثر
مما يلهم المتخصصين . فمن قبل أن يتذكر
العلم سفن الفضاء وينزل العلماء أرض
القمر ، وضع الأدب قصصاً تصف مثل
هذه السفن وتتكلم عن رجال الفضاء .
خيال أدباء اليوم يجعله علم الغد حقيقة ،
وخيال الأدباء فى العالم المتقدم يسبق إنجاز
العلماء ويلهمهم .

والمواطن فى العالم المتقدم يعشز
بحاضره لأنه يمد بالثقة بالنفس ، ويدفعه
إلى صدق الانتماء ، فيعمل على تحقيق
أمجاد تضاف إلى ما حقق آباؤه وما يحقق

زملاؤه . أما ماضيه فينظر إليه باعتباره
صفحات مطوية فى سجل حياته . إن يكن
فيها بدائية قائمة ، وسطور معتمة : فتلك
مراحل تجاوزها ، وبقي الماضى . بخيره
وشره ، تراثاً يحافظ عليه ويصونه لأن
فيه جدوره ومسببات حاضره وأمجاده .
إن الفرق الحضارى بين ماضيه وحاضره
يزيده ثقة بالنفس . وأملًا بمستقبل أفضل
وتطلعاً إلى تحقيق أمجاد تضيف اسمه إلى
قائمة الخالدين ، ما أكبر الفرق بين فكر
المواطن فى العالم المتقدم ، وفكر نظيره فى
العالم الثالث ! ذاك يتطلع إلى مستقبل
أكثر إشراقاً ، وهذا يحن إلى الماضى ،
ويتبرم بالحاضر ، ويخشى المستقبل
المجهول . كم أتمنى لو يتضافر العلم والأدب
عندنا تضافرهما فى الغرب .

وقد يحسن ، قبل أن ننتقل إلى وصف
حال العلم والأدب فى العالم العربى أن نلقى
نظرة سريعة على العلم الغربى التخصصى
على الصعيد العالمى ، المعروض منه للعيان ،
ناهيك عن الخفى تحت ستار المجهودات
العسكرية .

وفي المستويات الجامعية نجد في كل قسم من أقسام الكليات العلمية مختبر بحث يخصص كل ركن من أركانه لفرع من فروع البحث . ويتشغل كل ركن أستاذ أو فريق من الأساتذة أصحاب التخصص الواحد ، أو التخصصات المتقاربة فيعملون بعد الفراغ من المحاضرات اليومية في بحوث يأتون من وراءها بتحقيق إنجازات تحتل لهم ولجامعاتهم شيئاً من المجد أو بعضاً من الدخل أو يعملون في إيجاد حلول لمشكلات محددة تعرضها المؤسسات الصناعية أو الزراعية أو التجارية القائمة من حولهم . وهذه المؤسسات تعتمد لهم ولكلياتهم مبالغ سخية يتقاصون منها أجورهم ، ويشترون بها ما يلزم من معدات ويشغلون بها من يحتاجون إليهم من عمال ومساعدى بحث .

ومن المتخصصين الذين لا يعملون في الجامعات من يعملون خبراء أو مستشارين في النعاليات الخاصة أو العامة ، يساعدون في التخطيط أو التصحيح أو التطوير .

ومن المتخصصين من يهون البحث والاستكشاف ، فيعملون أفراداً أو جماعات

بجهودهم . لا لمطمع ، ولكن بغية تأدية رسالة ما ، قومية أو إنسانية . وقد يقصون الأمر كله ، لا يحتثرون حليلاً سوى إرضاء نزعاتهم الخاصة . أو قد يصلون إلى - اكتشاف أو ابتكار أو تطوير يدر عايتهم ما يرضيهم من سمعة محرية . وقد يدر عايتهم أو لا يدر ما يرضيهم من مال . هؤلاء هم الذين يتحقق على أيديهم مجد البلد وتقدم الحضارة الإنسانية . ولكن على أيديهم أيضاً يتحقق صنع السلاح المدمر الذي قد يقضى في لحظة حنون على أكثر ما صنعه الفكر الإنساني في قرون طويلة . تلك هي الأسس التي بنى عايتها العلم المعاصر المتفجر

وعايتها بنى أيضاً صرح الآداب والفنون المعاصرة . وما فيها من تنوع وإبداع ، يغمرها جميعاً منهجية علمية تعلم الفرد أنه سيد نفسه ، قادر على أن يبتكر . مدعو إلى أن يخطط وينفذ ، واثقاً من نفسه . مؤمناً برده ، يعمل بموضوعية وأمانة علمية يظلمه تحكيم العقل ومقاييس المنهج العلمي المستند إلى برهان تجريبي عقلي - عالمياً كان أو أدبياً أو فنياً . طبيباً كان ،

أو مهندسا أو تاجراً أو صانعاً أو راعياً
كلهم في النهج العلمي والأدبي سواء .

فيذا جئنا إلى وضع العلم والأدب في
العالم العربي ، فيأني أحشى إذا أفحصت في
وصف صورتها الهزيلة أن أشعر بالإحباط .
تلك الفئة المليئة من الأدباء المدعين ،
والعلماء ممن حققوا إنجازات ذات قيمة
عالمية في مجال الابتكار أو الاكتشاف .

أو التطوير . ولكن مهما يكن عدد هؤلاء
القلة ، فإن عالمنا عدد أبنائه يربو على مائة
مليون ، لا يكون حاله مرضياً أن يقل كل
من الأدباء والعلماء فيه عن مليون ، منهم
ألف على الأقل يعمرون على مستوى عالمي
ويساهمون في صنع الحضارة الإنسانية ،
ويدون للآب جسوراً فكرية مع العالم
المتقدم .

غنى عن البيان أن تربتنا وأجواءنا الفكرية
والثقافية والإقليمية والطائفية تحتاج إلى
تطوير كبير كي تصبح صالحة لنمو الإنتاج
الأدبي والإنجاز العلمي على مستوى عالمي ،
أو صالحة للسير مع التيار الفكري العالمي
لتمه قامت النهضة الغربية ، في أواخر
القرون الوسطى ، في نور الفكر العربي

الإسلامي الذي أقامه أجدادنا في رحاب
الحضارة الإسلامية ولكن كان قدره -
رحم أن تقوم الحضارة العربية المعاصرة
ونحن نعط في سمات عميقة وعندما
شرعنا نهض من سباتنا ، في أواخر القرن
التاسع عشر ، ألعينا أننا عرباء في العالم
المعاصر ، فلا علمه ساهمنا في صنعه .
ولا أحوالنا الحاضرة تصلح له . ولا تربتنا
الدهشية تلائمة ، حتى ولا لغتنا الموروثة
تتسع لاستيعابه .

سيصدم قولي هذا أذناء يتغنون بلعتنا
الجميلة ، وعلميين يتباهون بما أنجز الآباء
وماذا يحدى التغنى والتساهى إن لم يعتمد
إلى تطوير مراهج حياتنا وتمكيننا ، حتى
لعتنا ، إلى أن تتلاءم مع طابع حياة اليوم
المتطورة السريعة التطور ، المخاضعة للتطوير .

إليكم متلوا واحداً يبين كيف وقفنا حامدين
في عالم سريع الحركة ، التوقف فيه
كالهبط من شاطئ . وعندما ابتكر الغرب
المطبعة بحروف متحركة . كان ما يزال
يتلنى عاومه من كتب عربية . فقام الغرب
بطباعة هذه الكتب العربية . أما نحن
فقمنا مكتنزين بعدها في الشرق ثلاثمائة سنة

ننسخ باليد، وكانت أول مطبعة وردت إلى مصر تلك التي جاء بها نابليون في أواخر القرن الثامن عشر عندما شرعنا نطبع كتباً طبعها الغرب من قبلنا بثلاثة قرون .

في العصور الإسلامية الأولى أعلى المسلمون صرح المنهج العلمي ، بأن جعلوا الاختبار والمشاهدة ركناً من أركانه . لقد أدركوا أن التفكير جهد إنساني متطور يتغير بتغير الزمان والمكان ، فنادوا بالألأ رأى لميت ، لأن الماجنين مهما أبدعوا فإن تفكيرهم وإبداعهم لزمان غير زماننا وأحوال غير أحوالنا قالوا هم رجال ونحن رجال ونحن أدري منهم بما يتلاءم بينها وبين أيامنا لقد أوصوا بأن يقوم على رأس كل مئة سنة مجتهد يجدد ويطور ، حسب مقتضيات العصر ؛ فإن لم يقم مجتهد ، وجب على المجتمعات الإسلامية أن تعمل على إيجاده بالرعاية الحكيمة والتربية الهادفة .

ولو امتثل اللاحقون لهذه التوصيات لتغير مسار التاريخ الإسلامي . بل تاريخ العالم بأسره . ولكن تجرى الرياح بما لا تشتهي السفن . ولقد جرت الرياح

وما تزال تجرى بما لا يشتهي دعاة تطوير الحياة الفكرية في عالمنا العربي ، من أجل معالجة ما نعانى من سطحية وأزمة فكرية ، تحت ربة متار حديدى اسمه المحافظة .

باسم المحافظة على القديم ، وبدعوى . أن آخر الأمر لا يصاح إلا بما صاح به أوله ، تفكر أجدادنا للعلم باسم الدين . والدين مما يصنعون براء ، واكتفى الأدباء بالتبارى فى المدح والهجاء ، نفاوا وبهتاء . والأدب والفن مما يفعلون براء وباسم الدين قيدت الحرية الفكرية ، وأعلن الفقهاء الحرب على العالم . وقد كان الإسلام أقوى دعوة إليه . وكما أحرقت الغلو الأوربي علماء فى ظل محاكم التفتيش ، أحرقت الغلو العربى كتب الفلسفة وأعدم أصحاب الرأى الحر ، بدعوى ظاهرها الحفاظ على الدين وباطنها التنافس على موائد الولاة .

هذا ماجرى فى أواخر العصور الإسلامية قبيل انتقال القيادة الفكرية والسياسية إلى العالم الغربى . وفى غضون القرن التاسع عشر ، شرعنا نضيق وقد مثلت فى أذهاننا ذكريات عصور ماجدة مضت ، فأخذنا

نستغنى بأمجاد مضت ، من غير أن تحقق
أمجاداً مستجدة ،^٣ وليس من السهل
تحقيقها في عالم يتطور بسرعة خاطفة ،
ويتفجر فيه العلم تفجراً فوق كل تصور ،
في حين أننا مازلنا يمضى بنا الزمان ،
وعيوننا إلى وراء ، نحن إلى الماضي ، وتترجم
بالحاضر ، وتخشى المستقبل ، مازلنا
ننظر إلى الغرب نظرة ريبة وحواف ،
نتحاشى أن نفيد من تجربته ، وأن نتعمق
أسباب ضعفنا وقوته .

إننى ياسادتي أعتز وأرفع رأسى عالياً
بالشعر العربى ، الوجدانى منه والقومى
والإنسانى ، وأعتز وأرفع رأسى عالياً ،
بآدابنا الحديثثة ذات النزعة القومية ،
والنزعة الإنسانية ، وأعتز أيضاً وأرفع
رأسى عالياً أتباهى بكل عربى أنجز في
البلاد المتقدمة إنجازاً متميزاً . ولكنى أنألم
حسرة عليه إذا لم يجد في بلده ما يمكنه
من مثل هذا الإنجاز . إن ما أشكو لكم
ياسادتي منه أن أجواءنا الفكرية هنا
محافضة إلى حد يجعلها لا تتواءم مع تيار
الحياة المتطور . إنها تقيم برزخاً بين الأدب
والعلم يعرقل مسار كل منهما ، ويجعلنا

نجمد في وجه تيار فكرى دافق لا يلوى
على شيء .

ما نحتاج إليه كى نخرج من جمودنا
الفكرى منهجية علمية تضم تحت جناحيها
أدباءنا وعلماءنا وكل مفكرينا على السواء
منهجية تدفعهم إلى التخطيط والتطوير ،
مؤمنين بالله ، واثقين بقدرتهم العقلية ،
متطلعين إلى المساهمة مع المساهمين في بناء
مستقبل أفصل يأخذ فيه العرب والعروبة
مكانة قومية وإنسانية تليق بتاريخنا
الحضارى المحيد .

غنى عن البيان أننى ، رغم تبرمى بالحاضر
ومافيه من سطحية وأزمة فكرية ، لأعتز
كل الاعتزاز بما حققت أقطار عربية من
انتصارات عسكرية وسياسية واقتصادية
ومن خطوات موفقة نحو الوحدة العربية ،
أمل كل مواطن شريف . في تقديرى ،
وحكمى الموضوعى أننا ، أدباء ومتأدبين
ما تزال أفكارنا وحيالاتنا ، تهيم في الماضى
القريب ، يوم انقلب الفكر والأدب مجرد
شكليات جوفاء ومحسنات لفظية يحلها
سجع وجرس ، ولا يدعمها فكر ، وصار

نشعر بلذيق نفاق وارتراق . وهجاء سخف
ريهان . أم، العلم عمدا فحن مآسيه أن
مهج التعليم ما تنزال هي هي التي رسمها
الاستعمار . وما طراً عليها من تغيير إنما
هو سطحى لا يمس الجذور . ولا يصل إلى
حد الاجتهاد الحر والابتكار

إن الحو والتربة بقيا . في العالم الإسلامي .
والعالم العربي بخاصة . على مثل ما كانا
عليه في أواخر العصور الوسطى تفكير
تقليدى مكرر معاد . وتعلم تافه يننى يعتمد
على الحفظ ويتنكر الاجتهاد . وأقوال
وشعارات لا يسندها واقع ولا دليل . وتربة
تقبل الكلام المروق الأجوف . ولا تعنى
المصمون وترفض المنهج العلمى الموضوعى
والنطق العلمى الحر

وما العمل ؟ أقول : إن عاينا بالاضافة
في تيسير نشر العلم بين العلميين والإنسانيين
على السواء . خلق الحو المناسب والتربة
لناست لأن ينمو العلم ويشيع ويصبح
طابع حياتنا والموجه الفعل التفكيرى .
وتصوراتنا . وأن ينمو الأدب الحر المنبعث
عن أصالة في التفكير ورؤية نافذة وعلم
غزير .

تمة مدادى وحقائق وأفكار ينبغي أن
تشيح بيننا وتجري في حياتنا كما يجري
الدم في عروقنا . كى نحقق الحو والتربة
اللازمين لتضافر العلم والأدب عندما .
كى نساهل تيار الحياة المعاصرة ونمضى مع
الركب بعة وكرامة فاعلين لا منفعين .
خلاقين لا مقادير ولا متطابقين من هذه
المدادى والحقائق والأفكار

١- إن العلم هو باني الحياة المعاصرة :

يمدها سلاح السلم والحرب والجد
واللهو . وهو ملهم الشعراء والكتاب .
والأدباء . يمدهم بالغذاء الفكرى ويدفعهم
إلى الابتكار والإبداع . مع إدراك للحاضر
وهشارفة للمستقبل . ومع تخطيط سليم
لتحقيق ما يسعون وإدراك ما يأملون بل
إن العلم هو الذى يعلمنا كيف نعبد الله
حق عبادته ، في عالم يتراوح كالمجنون
بين تقي الراهد المتصوف ، وصلال الاحمق
المفتون .

٢- إن التطور هو سنة الله في الكون :

كى تمضى الحياة دائماً إلى الأفضل ،
ويتشارك الفكر ما هو أرقى وأشرف . من
أجل ذلك وهبنا الله العقل ، الأفراد يولدون

ويكبرون ويموتون . وقد ينتاب الفرد ،
أو المجموعة أو الأمة بأمسها ما يستاب
الأفراد من عجز وهرم . ولكن الحياة بعامة
في هذا الكون الرهيب ، سائرة أبداً
بفضل الله إلى الأحسن . والتطور قائم
منذ الأزل ، وماض إلى الأبد . كان في
الماضي يجرى بطيئاً وهو اليوم يغد السير
بفضل العلم ، ويمضي إلى التطوير أي عمل
العقل في تسريع التطور . والتطوير إنما هو
عمل بإرادة الله ، ونجاحه يفضي إلى مزيد
من الثقة بالنفس ومزيد من شكر الله

وليس التطوير شغل العلماء والأدباء
وحدهم ، فكل مواطن مكلف بتطوير عمله
إلى الأفضل : المزارع في حقله يطور سنبابل
القمح كي تجود بعطاء أغزر وأجود ،
والصانع في مصنعه يطور إنتاجه ليصير
أفضل وأكثر ، والأديب والكاتب والشاعر
والناقد والمؤرخ يجددون ويبتكرون ،
وينوعون . إن كل نجاح هو خطوة نحو
نجاح أكبر .

٣- تطوير العلوم والمعارف :

تدركنا أننا نعيش في عصر تتفجر فيه
العلوم والمعارف بسرعة مذهلة . فما إن

تبتدع عملية جديدة أو تعرض فكرة جديدة
حتى يهرع التكنولوجيون إلى استغلالها
بابتكار جديد ، وليس هذا التفجر ،
والتجديد مقصوراً على مستويات التخصص
بل هو يمتد إلى الحياة اليومية ويدهم الناس
في بيوتهم ومطابخهم ومجالسهم ولهوهم .
الحاسوب الذي كان في أوائل الستينيات
حديث الجامعيين صار اليوم الشغل الشاغل
في المصانع والمتاجر والمصارف والدوائر
العامة والخاصة وماذا نقول عن وسائل
الطباعة والتصوير والاتصالات والطائرات ؟
وماذا نقول عن عالمنا الواسع الذي غدا
صغيراً نرى فيه على شاشة التلفاز فتیان
الشرق والغرب في تعاملهم وجدهم ولهوهم .
الأقمار الاصطناعية تعمل على ترحيد العالم
سلوكاً وعادات ، شئنا أو أبينا .

هذا يضعنا أمام تحدٍّ لا بد من مواجهته .
ومواجهته لا تتم بالتنكر للعلم والتكنولوجيا ،
بل بالتكيف معهما لأهما أمر محتوم . وهذا
التكيف يقتضي تغييراً جذرياً في مفاهيم
التعلم والتعلم وواجبات المعلم . فالتعلم
عملية تمتد مدى الحياة . في الماضي قال
فيلسوف : إنا أفكر ، إذن أنا موجود .

واليوم يقول كل فرد . أنا أتعلم . إذن
أنا موجود والتعليم لم يعد يقتصر على
إنهاء مقرر محدد . إنما هو يعلم المرء كيف
يتعلم وكيف يبقى على صلة بالمستجدات في
مهنته وميدان عمله . كى يبقى مواكبا لتيار
الحياة المتدفق . والمعلم لم يعد الموظف الذى
تخرج وقد شدا من العلم شيئا فهو يعطيه
للمتعلمين جيلا وراء جيل . إنما هو متعلم
تتزايد معلوماته يوما بعد يوم . وتتسع
خبراته - هو صاحب مهنة وصاحب رسالة
حياته مكرسة لتليغها

أيها السادة : إذا كنا نحطط بحدا لنكون
في صفوف الأمم المتقدمة . فينسغى أن
نتدارك ما فاتنا من عناصر الحياة المعاصرة
أدباء وعلماء . إن تفجر المعرفة قد جعل
أكثر المعارف التقليدية معلومات بدائية

تجاوزها التطور العلمى . أو معلومة ثبتت
أما ليست على صواب . ومن ثم فمبادئ
العلوم الأساسية التى تعلمناها قد جعلها
التمحور العلمى غير ذات موضوع . وما لم
يبادر للتعليم سنسقى أكثر جهلا مما يقدر
المقدرون . إن من المعلومات المحدثه ما لا بد
لكل مثقف أن يلم به ، علميا كان أو أدبيا
أو لغويا .

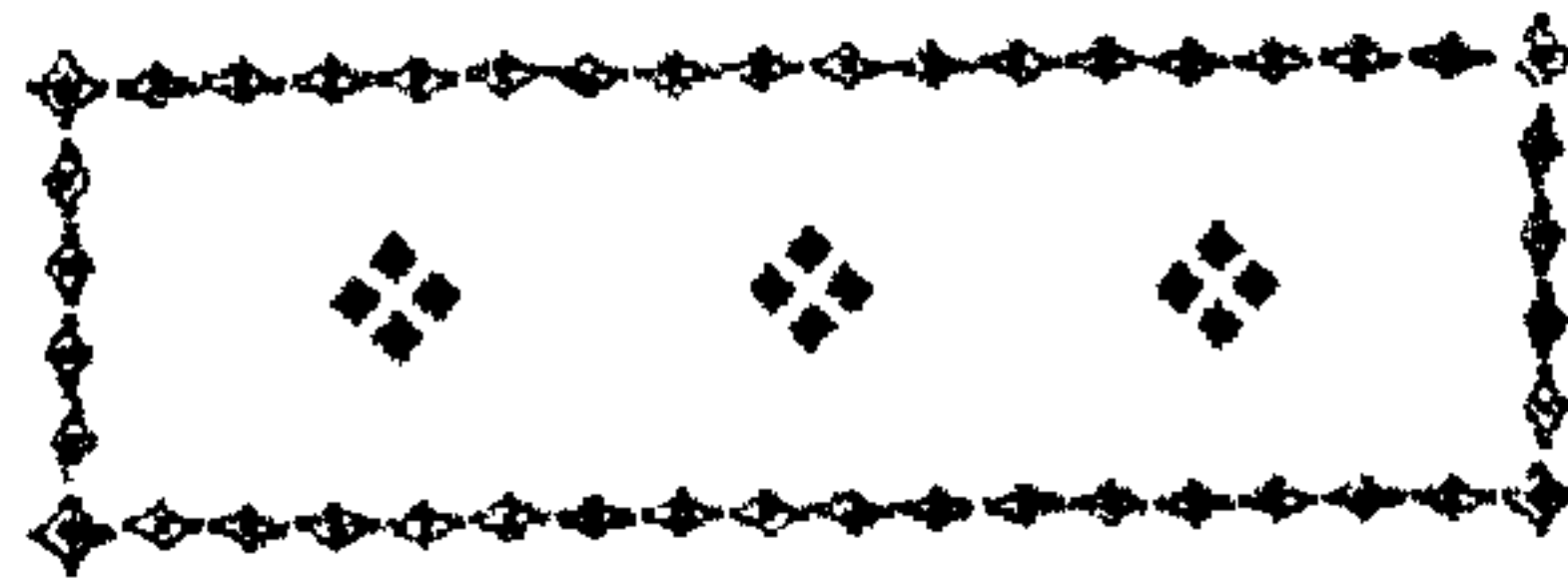
إن لم يسهم في تطوير الحياة المعاصرة
فلا أقل من أن نتفاعل معها على نحو
يحفظ. بقاءنا ، وإن لم نفعل فأغلب ظنى
أن الحياة المعاصرة ستخلفنا وراءها وتمضى
قدما لا تنتظر .

أظننى أطلت عليكم أيها السادة . شكرا
لإصغائكم وسعة صدوركم .

والسلام عليكم

أحمد سعيدان

عضو المجمع المراسل (من الأردن)



عود لابن النفيس للدكتور حسن علي إبراهيم

في المؤتمر الماضي تكلمت عن ابن النفيس
فما أثار قولي ما يشبه الثورة بين أعضاء المؤتمر
ويبدو أن ابن النفيس كانت له في نفوسهم
مكانة عظيمة ، بل أقول ما يشبه التسأله
هذا مع أني كنت أقول كلاماً علمياً بحتاً
ولم أقصد الإساءة إليه فقد كان عالماً كبيراً
في زمانه ، وهو الذي تنبه إلى وجود دورة
رئوية دموية وعرف أن الهراء يختلط بالدم
في الرئة ، وأن ذلك لازم للحياة منذ أن قال
جالينوس إن الروح تدخل إلى الجسم مع
كل شهيق ، والناس تعرف أن التنفس
لازم لاستمرار الحياة ، ولكن ابن النفيس
أراد أن يفسر كيف يحدث ذلك داخل
المصدر وهنا وقع في نفس الخطأ الذي وقع
فيه كثير من الأطباء العرب وهو إعمال
الخيال بدون تشريح أو تجربة هذا باستثناء
أبي بكر الرازي ، وحميد بن إسحاق ،
وأبي القاسم الزهراوي وابن زهر .

فمن الواضح أن ابن النفيس لم يُشرح
القلب ولم يفتح حجراته وإلا لما قال إن
البطين الأيسر يخرج منه شريانان لا شريان
واحد وكلنا نعلم الآن أن هناك شرياناً واحداً
يخرج من البطين الأيسر وهو الأورطي
كما أنه جعل الشريان الرئوي يخرج من
البطين الأيسر وقد أهمل تماماً ناحية كبرى
وهو أن الدم القاتم يأتي من شتى أنحاء
الجسم ويصب من خلال الوريد الأجوف
السفلي والوريد الأجوف العاوي في الأذين
الأيمن ومنه إلى البطين الأيمن ومن هذا
يخرج الشريان الرئوي حاملاً الدم القاتم
إلى الرئة ليتحد بالأكسجين ويتخلص من
ثاني أكسيد الكربون ثم يعود دماً أحمر
نقياً من الرئة إلى الأذين الأيسر ومنه إلى
البطين الأيسر ويخرج من خلال الأورطي
ليغذي سائر الجسم بالدم السقي . وابن النفيس

(*) ألقى هذا البحث في الجلسة السادسة من جلسات المؤتمر المنعقدة يوم الإثنين ٨ من شعبان سنة ١٤١٠ هـ
الموافق ٥ من مارس (آذار) سنة ١٩٩٠ م .

معدور لأنه نظر إلى القلب فرأى أن الشريان
الرئوى ظاهرياً يميل ناحية البطين الأيسر
فيخيل للرائى أنه خارج ن البطين الأيسر
ثم إنه قال إن هناك جرماً بين البطينين
يتلطف فيه الدم قبل أن يدخل البطين
الأيسر وهذا الجرم لا وجود له . والذي أثار
المؤتمر أكثر ما أثار هو أنى قلت إنه كان
يتخبط وقد عدلت هذه العبارة فى مقالى
إلى « أن ما قاله ابن نفيس لم يكن
صحيحاً بمقاييسنا الحالية » وربما كنت
واقعاً تحت تأثير سيء ، فقد كنت أقرأ
فلسها بقليل أن الإدريسى هو أول من رسم
خريطة للكرة الأرضية وكل من عنده
أطلس جغرافى كبير يرى فى مقدمته صورة
لخرائط للأرض منذ أيام اليونان وبطليموس
بل فى الواقع أن الخريطة التى رسمها
بطليموس للأرض أضبط من خريطة
الإدريسى ثم إن الإدريسى رسم أكثر من
خمس مئة جزيرة كبيرة بين أفريقيا والهند
فأين هى هذه الجزر ؟ كذلك كنت أقرأ
أن أحمد بن ماجد المعروف بتأليف البحار
هو الذى علم فاسكو دى جاما كيف يدور
حول رأس الرجاء الصالح وهذا غير صحيح

كما أنه هو الذى علم ماجلان بعد ذلك
كيف يدور حول الكرة الأرضية وقد قرأت
كتاباً كبيراً عن رحلة ماجلان وهو ما كان
يكتبه كاتب السفينة يوماً بيوم منذ تحضير
السفن حتى إبحارها . ثم ما جرى يوماً
بيوم حتى عودته سفينة واحدة فقط إلى
إسبانيا بعد رحلة استغرقت ثلاث سنوات
فلم أقرأ إشارة واحدة إلى ابن ماجد . وكان
كتب السفينة التى يدور الوقائع دقيقاً
جداً فكان يكتب يوم الثلاثاء كذا فى شهر
كذا فى عام كذا . حدث هذا ثم يوم الأربعاء
وهكذا . وهذا حال ماجلان كما تعلمون فى
جزر الفلبين وعادت سفينة واحدة فقط
من الثلاث يدور ماجلان . ولكن الطريف
فى هذه الرحلة أن يوم وصول السفينة كان
يوم الثلاثاء . كما تدون وقائع السفينة ،
ولكنهم وجدوا أن يوم الأربعاء فى إسبانيا
هذا مع عدم الملامح إطلاقاً فى التدوين وقد
تغلّت هذه الظاهرة عقول العلماء مدة طويلة
فلم يكونوا يلاحظون فى ذلك الوقت أن هناك
تفاوتاً بين الزمن الدولى وهو يعبر
المحيط الهادى من الشمال إلى الجنوب وهو
نحو ١٨٠ درجة دولى والذي يعبر هذا

المخطط من الغرب إلى الشرق إلى الغرب
يكسب يوماً والذي يعبره كما فعل ماجلان
من الشرق إلى الغرب يفقد يوماً من عمره .

اعذروني لخروجي عن الموضوع ، والآن
أعود إلى ابن النفيس ونحن كمرب كان
عندنا علماء كبار لنا أن نفخر بهم ومنهم
ابن النفيس طبعاً ولكن أرجو أن يكون
ذلك الفخر في حدود العلم والمعقول ، والآن
لأرضيكم سأعود إلى كتاب شرح تشريح
القانون لابن النفيس ، فقد أصاب الرجل
في نواح عدة أذكر منها بعض الأمثلة .

يقول تعاقباً على كلام ابن سينا :
« كل عضو فلا بد وأن يكون في جُرمه خلل
بنفذ فيه الغذاء إلى عمقه وهذا الخلل إن
لم يكن محسوساً سمي مساماً ويسمى ما كان
خلله من العظام كذلك مُضمّماً لأنه مُضمّت
في الحس وإن كان ذلك الخلل محسوساً .
فإما أن يكون متفرقاً في جرم العضو كما
في عظم الفك الأسفل فيسمى ما كان كذلك
من العظام هشاً ومتخللاً أو لا يكون
متفرقاً في جرمه ، بل مجتمعاً في موضع
واحد فيسمى ما كان العظم كذلك محوفاً »

وكل عظم فيما أن يكون صغيراً جداً ،
كالأغلة ، بل كالعظام السمسمانية
Scsamoid Bones فلا يحتاج فيه إلى
تجويف محسوس لأن هذا اصغره يتمكن
الغذاء من النفوذ إلى قعره بسهولة لقصر
المسافة .

هذا الكلام في جملة صحیح ولو أن لي
- كطبيب يعيش في القرن العشرين -
تعليقاً وهو أن عظم الفك الأسفل من أقوى
العظام وأن التجويف الذي فيه يسير بطوله
تحت كل الأسنان والغذاء لا يأتي إليه من
وسطه كما يقول ابن النفيس ، بل يأتي
إليه من زاويته الخلفية على الناحيتين ومن
العشاء المحاطي الذي يغطيه والتجويف
الذي فيه لم يوجد لكى يكون إخصيفاً
فعضلات الفك من أقوى عضلات الجسم
وهي تستطيع أن تحمل أضعاف أضعاف
وزن الفك . فالتجويف الذي يوجد بداخل
الفك بطوله يسير فيه الشريان الفكي ،
والأوردة الفكية وهو المصدر الرئيسي
لتغذية الفك والأسنان والقناة التي يسير
[فيها اسمها القناة الفكية Mandibular Canal]

كذلك أعجبني في كلام ابن النفيس
وجود العظام السمسمانية التي قال ابن سينا

أنها موحودة بين الأصابع وفي أوتار الأصابع أو بين السلاسل ، ولو أن إنكاره لها لم يكن مسيئاً على تشريح إذ قال إنه يعتقد أنها غير موجودة وفي الرقعة توجد عظمة سمسمائية واحدة في يد الإنسان داخل الوتر للعضلة القابضة للإبهام وهذا الكلام لن يتغير لأنه مسيئاً على التشريح الدقيق لآلاف الأيدي إلا إذا ظهرت فصيلة جديدة من البشر .

كما أحسن ابن النفيس عند كلامه عن العظم اللامي في الرقبة Hyoid Bone فوصفه بأنه علاقة وهذا صحيح لأن كثيراً من عضلات الفك والرقبة تنشأ منه . وهناك عضلات خاصة لتثبيت العظم اللامي فمثلاً أهم عضلة لفتح الفم هي الذقنية اللامية Genio Hyoid Muscle فعند فتح الفم للأكل أو للتأثؤب مثلاً تعمل هذه العضلة وقد وجب عند هذا الشد من أسفل على العظم اللامي وإلا ارتفع إلى أعلى ولم ينزل الفك فتتقلص العضلات المرتبطة بالعظم اللامي من أسفل وتحفظه في مكانه كما يعجبني قوله التالي في العظام وأنقله حرفياً :

والتجويف يقل إذا كانت الحاجة إلى الرقابة أكثر ويكثر إذا كانت الحاجة إلى الخدمة أكثر هذا يُعتبر بحسب الأمور .

أحدها : اختلاف نوع عظام البدن الواحد فإن عظم الساق يحتاج إلى الخدمة أكثر من عظم الفخذ لأن حاجته إلى الحركة أكثر من حاجة عظم الفخذ

ثانيها : اختلاف الأردان في القوة فإن البدن الذي عضله ضعيف الحلقة يحتاج أن تكون عظامه أخف ليتمكن القوة الضعيفة ولا كذلك البدن القوي .

ثالثها . اختلاف الأردان في السن فإن الشيخ تضعف قوته عن تحريك الثقل ، فتحتهاج أن تكون عظامه أخف وذلك يحصل بسبب تخلخل عظامه أثناء اغتدائها (هذه الطائفة نسميها الآن تخلخل العظام في الشيخوخة Senile osteoporosis ولو أن مسنها ليس قلة التغذية كما قال) .

رابعها . اختلاف نوع الحسوان ، فإن الحيوان الشديد البطش كالأسد يحتاج أن تكون عظامه شديدة القوة ، إنما يكون كذلك إذا لم يكن تحويفها كبيراً . هذا

الكلام في جماعته صحيح وليس من المستطاع
بالطبع أن يعرف ابن النفيس الهرموبات
المسئولة عن هذا .

أما عند كلامه عن عظام الجمجمة يقول
مصححاً ما قاله ابن سينا « الجواب .
أما ما قيل عن الأمر الأول فإننا وإن سلمنا
أن الأجراء التي يحب تخلصها من عظم
الرأس يقل قبولها للآفات الخارجية بما قلتم
لكنها لا محالة شديدة القبول لمثل العفونة
ونحمرها وهذا كلام صحيح .

ويقول : « ولعل الذي رأسه من عظم
واحد قد كان فاسد الدهن ردى الأخلاق
لأجل احتباس الأبخرة الكثيرة في دماغه »
وهذا كلام غير صحيح لأن هذه الحالة
تعرف الآن بتضيق الجمجمة *Craniosostenosis*
ولا توجد أبخرة تتصاعد من الدماغ
لتحتبس ولكن فساد الدهن يأتي من
نقص نمو المخ في هذه الحالات

سادتي .. لن أطيل فالكتاب طويل جداً
وهكذا يمضي ابن النفيس يصيب مرة ،
ويخطئ مرة ، ولكنه مفكر عظيم بلا شك
ويكفيه فخراً أنه أصاب تماماً في كثير من
المواضع ،

وقبل أن أحتم كلامي أذكركم بما قلته
عن ابن سينا في أول مرة تكلمت عنه
وعددت أخطائه فقد قلت ترى ماذا يقول
الأطباء بعد ألف سنة إذا قرأوا كتبنا التي
نتداولها وندرسها الآن ؟ إنهم في الغالب
أن يفهموها وإذا فهموها فسوف يضحكون
من جهلنا هذا إذا لم يقض الإنسان على
نفسه بأطماعه وغبائه قبل ألف سنة
بكثير .

إن عيب الأطباء القدامى أنهم لجأوا
إلى التفكير البحت دون تشريح جيد ،
أو تجربة والطب الحديث قام على التشريح
الدقيق والتحارب والعلم الكامل بالكيمياء
الحيوية ووظائف الأعضاء وهي أسس
الطب الآن .

أيها السادة . أشكركم مرة أخرى لحسن
استماعكم لهذا الموضوع الحاف وإني عندما
أتكلم عن الطب فإنما أقول كلاماً موضوعياً
حيادياً فإننا لا نحارب أحداً أو أحابي الآخر
وشكراً .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

حسن علي إبراهيم
عصو المجمع

القرآن وتعريب الإنسان للأستاذ علي رجب المدني

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام
على نبيه ورسوله الأمين محمد بن عبد الله
بن عبد المطلب وعلى آله وأصحابه ومن
تبعه إلى يوم الدين

من السهل على الباحث المتعمق في
أهداف القرآن وتوجهاته أن يدرك حقيقة
أن القرآن قد أرسى أول ما أرسى مجموعة
من التعاليم التي أوجب اعتبارها من
المسلمات ومن أهمها ما يلي :

١ - أنه آخر كتب الله المنزلة ، الجامع
لخلاصة تعاليمه إلى الإنسانية جمعاء لا إلى
قوم بعينهم .

٢ - أنه خاطب الناس (كل الناس)
بقوله : « يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ

ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُورًا وَقَبَائِلَ
لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَهَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقَاكُمْ » ،
وقوله : « يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي
خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا
وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا
اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ
كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا » .

٣ - أنه انطلق من مبدأ استنكار كل
ما من شأنه أن يفرق بين إنسان وإنسان
من عرق ولون أو انتماء عصبى أيًا كان مأثاه .

٤ - أنه تجنب مخاطبة الرسول صلى الله
عليه وسلم بنسبته إلى العرب ، ولم يورد
للعرب ذكرًا إلا فيما تحدث به عن الأعراب
في بضع آيات ، ولكنه تحدث عن القرآن
ذاته بقوله : « نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ،

(•) ألقى هذا البحث في الجلسة السادسة من جلسات المؤتمر المعتقد وم الإثنين ٨ من شعبان سنة ١٤١٠
الموافق ٥ من مارس (آذار) سنة ١٩٩٠ م

على قلبك لتكون من المُنذرين ، بِلِسَانٍ
عَرَبِيٍّ مُبِينٍ » وفي آية أخرى : « وَكَذَلِكَ
أَنْزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا » ، « قُرْآنًا عَرَبِيًّا
غَيْرَ ذِي عِوَجٍ »

٥- أن حكمة الله شاءت أن يختار
صاحب رسالة القرآن من العرب المستعربة
التي تنحدر من صلب إبراهيم الخليل وابنه
إسماعيل عليهما الصلاة والسلام وتتصل
بالدم العربي من طريق زوج إسماعيل الجرهمية
القحطانية « دعاة بنت مضاض » التي
أنجب منها اثني عشر ولداً من بينهم
عدنان الذي ينتهي إليه نسب الرسول
محمد صلى الله عليه وسلم ووصله بالدم
المصري عن طريق الأميرة المصرية الجدة
هاجر زوج إبراهيم وأم إسماعيل عليهما
السلام وبذلك وصل خاتم رسله بعدد من
الأعراق ليكون مؤهلاً للرسالة العظمى
الجامعة التي تخاطب جميع الناس دون
نظر إلى الأعراق والانتماءات ومهد بكل
ذلك لفكرة الدمج المستهدفة برسالة محمد
تحت لواء قومية واسعة مشتركة هي قومية
العقيدة الإيمانية التي تنحدر عن تعاليم
القرآن المنزل بلسان عربي مبين .

وبذلك يتحقق ما استهدفه الله بقوله
عز من قائل : « يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ
الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا
زَوْجَهَا وَنَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً
وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ
اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا » ، وقوله :
« يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ
وَأُنْثَى » فتحدث في الآيتين عن ذكر
واحد هو آدم وأنثى واحدة هي حواء ،
والمنحدرون عادة من أب واحد وأم واحدة
يعدون إخوة لا يستقيم القول بأن فارقاً من
أون أو عنصر أو غيرهما من شأنه أن
يفرق بينهم أو يحول دون تعارفهم ،
وامتزاجهم والتقائهم على صعيد الأسرة
الواحدة .

٦- أن القرآن يقوم على شقي التعاليم
والإعجاز وإذا جاز أن يقال إن التعاليم
قابلة للترجمة إلى لغات غير العربية فإن
إعجازه المتمثل في صياغته المتميزة وما تنطوي
عليه من إيماءات وإشارات وصور لا يتسنى
لأقدر المترجمين أن ينقلوا شيئاً منها إلى
لغة أخرى ، هذا الإعجاز الذي يشكل
الركن الرئيس في تأثيره وهدايته وأخذه

بمجامع القلوب والعقول معاً . لا بد للإحاطة به من الإحاطة باللغة العربية الفصحى وإجادتها إجادة تتيح للناطق بها أن يستوعب تلك الدقائق المعجزة التي تطرد عنه كافة الشبهات والشكوك التي تضعف الإيمان القلبي وتنزل به إلى الدرجة التي لا تؤهل صاحبها لأن يسلك في عداد المؤمنين الصادقين الذين التزم الله لهم بالنصر والدفاع عنهم وبأن لا يجعل للكافرين عليهم سبيلاً .

ولقد أكدت أحداث التاريخ في صدر الإسلام أن تعميم التعليم والتعلم للغة العرب كان يواكب حركة الانتشار للدعوة الإسلامية في مختلف الأمصار مما أهل تلك الأمصار لأن يستوعبوها ويتكلموا بها على نحو جيد مكنهم من تلاوة القرآن بلغته وفهم مكنونات إعجازه حتى برز منهم جهابذة من أمثال سلمان الفارسي والأئمة أبي حنيفة النعمان والبخاري ومسيبويه ، وابن جني وابن العميد والصاحب بن عباد وأبي بكر الخوارزمي وبديع الزمان الهمداني وبشار بن برد وعبد الحميد الكاتب ، وأبي نواس وابن الرومي والطغرائي وابن سينا

والإمام الغزالي وابن الحاجب الذين كانوا من الأعاجم (عدا ابن جني فكان يونانيًا) وغيرهم ممن عدوا بالآلاف حذقوا اللغة العربية وتبحروا في علومها وألفوا بها العديد من المؤلفات القيمة التي ساهمت في نشر حضارة الإسلام وأمجاده وفتوحاته وحفظ تراثه .

٧- يبين من الأرقام المتقدمة أن اللغة العربية قد رشحها الله ضمناً (باعتبارها لغة كتابه المنزل للإنسانية كافة) أن تكون هي أيضاً لغة الإنسانية كافة ، وارتفع بالانتماء العربي عن مفهوم الانتماء القومى الضيق القائم على التمييز العرقي أو القبلي أو العنصري إلى مستوى القومية الإنسانية العامة التي تنادى بأن كل إنسان أخ للآخرين دون أية فروق ، وأن ما بين الشعوب من فروق موروثية مرشح بنزول القرآن وانتشار دعوته للاضمحلال التدريجي الذي من شأنه أن يجعل الرباط بين المسلمين لا يختلف عما كان يربط أبا حنيفة والبخاري ومسيبويه وابن جني بالمجتمع العربي المسلم . ويؤكد القاعدة التي أرساها محمد صلى الله عليه وسلم في

حديثه المشهور تلك القاعدة التي تقضى بأن العربي من يتكلم لغة العرب وذلك فيما أورده ابن عساكر من قوله صلى الله عليه وسلم : « ليست العربية في أحدكم من أب أو أم وإنما هي لسان فمن تكلم العربية فهو عربي » .

والمؤمن بالقرآن عندما يستوعب هذا التحليل لا يتردد في التخلي عن كل ما يفرقه عن المجتمع العربي أو يجعله في موضع العريب عنه ، وبذلك يتحقق الهدف الأسمى للرسالة العامة التي اتخذت شعاراً لها قول الله تعالى في القرآن : « إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ » .

٨- والحق أن الله رشح البشرية للتآخي في ظل الأمة الواحدة من قبل بعثة محمد صلى الله عليه وسلم ونزول القرآن ، وذلك بأن جعل الإسلام ديناً أوحده لكافة الرسل وهو ما ورد صريحاً في سياق العديد من آيات القرآن الكريم فمن قوله تعالى : « إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ .. » إلى قوله عز من قائل : « مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى

النَّاسِ .. » إلى قوله عز من قائل على لسان رسوله نوح عليه الصلاة والسلام : « فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ » إلى قوله جل شأنه فيما يحكيه عن إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام : « وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ، رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ » ، وقوله عز وجل : « وَوَصَّي بِهَا إِبْرَاهِيمَ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَاتُمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ * أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا : نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهاً وَاحِداً وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ » ، ثم قوله على لسان رسوله يوسف عليه الصلاة والسلام : « رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِماً وَأَلْحِقْنِي بِ

بِالصَّالِحِينَ» ، وقوله عز وجل على لسان موسى عليه الصلاة والسلام : « يَا قَوْمِ - إِنَّ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ » ، وقوله عز وجل على لسان سليمان في رسالته إلى بلقيس ملكة سبأ : « إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * أَلَا تَعْلَمُونَ عَلَى وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ » ، وقوله على لسان سليمان عليه السلام أيضاً في حديث النملة : « فَتَبَسَّمْ ضَاحِكًا مِنْ قَوْلِهَا وَقَالَ : رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَذْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ » .

وقوله عز وجل على لسان بلقيس : « وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ » وقوله سبحانه وتعالى على لسان عيسى عليه الصلاة والسلام : « فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمْ الْكُفْرَ قَالَ : مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ » إلى قوله عز شأنه : « وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ » .

وعلى هذا يمكن القول بعدم جواز

الادعاء بوجود أديان سماوية أخرى غير الإسلام لأن في مثل هذا القول منافاة صريحة للنصوص القرآنية المتقدمة .

ولقد اتفق المفسرون على أن ماورد في خاتمة سورة (الكافرون) من قوله تعالى : لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ « يقوم على نفى الاعتراف من الله بدين غير الإسلام ، وأن هذا النص إما أنه ورد في سياق الحدل والتهمك أو أنه « وهو الأقرب إلى الصواب » يريد بالدين الجزاء فكأنه يقول : « لكم جزاؤكم ولي جزائي » إذ أن كلمة دين تطلق ويراد بها الجزاء ومنه قوله تعالى : « مَا لِكَ يَوْمَ الدِّينِ » ، أي يوم الجزاء وهذا التحليل من شأنه أن يجرنا إلى القول بخطأ كل أولئك الذين درجوا على التحدث عما يسمونه الأديان السماوية ، إذ لا يليق أن يرد مثل هذا التعبير مع علمنا بأن الدين عند الله الإسلام وأنه دين جميع الرسل .

وإذا تلونا قوله تعالى في القرآن المجيد : « يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُّوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ » وإن هذ

أَمِّنْكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ »
 فإِنَّا نُنَوِّقُن بَيِّنَاتٍ لِّلَّهِ اسْتَهْدَفَ وَاحِدَةَ الشُّعُوبِ
 الْإِنْسَانِيَّةِ وَجَعَلَهَا أُمَّةً وَاحِدَةً مِنْذُ أَنْ بَعَثَ
 أَبَانَا آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِدَعْوَةِ الْإِسْلَامِ ،
 وَفَقًّا لِمَا وَرَدَ بِقَوْلِهِ تَعَالَى : « وَمَا كَانَ
 النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا ، وَلَوْ لَا
 كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيهَا
 فِيهِ يَخْتَلِفُونَ » سورة يونس الآية ١٩
 وَقَدْ ذَكَرَ الْمُفَسِّرُونَ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا أُمَّةً
 وَاحِدَةً عَلَى دِينِ الْإِسْلَامِ مِنْذُ آدَمَ عَلَيْهِ
 السَّلَامُ إِلَى عَهْدِ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، ثُمَّ مِنْ
 عَهْدِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَى عَهْدِ عِمْرُو
 ابْنِ لَحْيٍ الَّذِي أوردُ الْكَلْبِي فِي كِتَابِهِ
 (الْأَصْنَامُ) أَنَّهُ أَوَّلُ مَنْ أَدْخَلَ فِي الْعَرَبِ
 عِبَادَةَ الْأَصْنَامِ بَعْدَ أَنْ كَانُوا عَلَى دِينِ
 إِسْمَاعِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، وَكَانَ عِمْرُو هَذَا
 يَتَوَلَّى الْحِجَابَةَ عَلَى الْكَعْبَةِ وَقَدْ اسْتَوْرَدَ
 عِبَادَةَ الْأَصْنَامِ مِنْ وَادِي الْأُرْدُنِّ عِنْدَمَا
 ذَهَبَ إِلَيْهِ فِي زِيَارَةٍ .

وَفِي قَوْلِهِ تَعَالَى : « لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ
 شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا » إِنْشَارَةً إِلَى أَنَّهُ وَإِنْ كَانَتْ
 الْأَدْيَانُ السَّمَاوِيَّةُ لَا تَتَعَدَّدُ وَإِنَّمَا تَنْحَصِرُ فِي
 دِينٍ وَاحِدٍ هُوَ الْإِسْلَامُ بِالنِّسْبَةِ لِكُلِّ الرُّسُلِ

إِلَّا أَنْ لِكُلِّ مِنْ أَوْلَئِكَ الرُّسُلِ شَرِيعَتُهُ .
 فَالْشَّرَائِعُ تَعَدَّدَتْ أَمَّا الْأَدْيَانُ فَلَا وَلَيْسَ
 نَمَّةٌ مِنْ دِينٍ سَمَاوِيٍّ غَيْرِ دِينِ الْإِسْلَامِ .

وَلَشُنْ لَمْ يَكُنِ اللَّهُ قَدْ أَوْجَبَ عَالَمِيَّةَ اللُّغَاتِ
 الَّتِي نَزَلَتْ بِهَا الْكُتُبُ وَالصُّحُفُ عَلَى الرُّسُلِ
 السَّابِقِينَ لِانْتِفَاءِ عَالَمِيَّةِ دَعْوَتِهِمْ وَقَصْرِهَا
 عَلَى شُعُوبِهِمْ تَمْهِيدًا لِلرَّسَالَةِ الْعَامَّةِ الْعَظْمَى
 الَّتِي اخْتَارَ اللَّهُ لَهَا مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ
 وَسَلَّمَ ، وَلَئِنْ هُوَ لَإِ الرُّسُلِ كَانُوا قَدْ زُوْدُوا
 بِمَعْجَزَاتٍ مَادِيَّةٍ حَسِيَّةٍ كَتَلَكِ الَّتِي زُوْدَ
 بِهَا إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَعِيسَى
 وَمَنْ قَبْلَهُمْ نُوحٌ وَهُودٌ وَصَالِحٌ وَيُونُسُ ،
 وَغَيْرِهِمْ ، فَإِنَّ الْأَمْرَ مُخْتَلَفٌ بِالنِّسْبَةِ لِلرَّسَالَةِ
 مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْعَامَّةِ لِجَمِيعِ
 الْبَشَرِ فَإِنَّ اللَّهَ اقْتَضَى حِكْمَتَهُ أَنْ يَقْصُرَ
 مَعْجَزَةُ مُحَمَّدٍ عَلَى مَا أُوْدِعَ الْقُرْآنُ مِنْ
 إِعْجَازٍ يَتَّفَقُ مَعَ مَا انْتَهَى إِلَيْهِ أَمْرُ الْبَشَرِيَّةِ
 مِنْ تَطَوُّرِ عَقْلِيٍّ وَتَهْيُؤٍ لِاسْتِيعَابِ الْمَعْجَزَةِ
 الَّتِي تُخَاطَبُ الْعَقْلَ الْمُسْتَكْمِلَ لِنُضْجِهِ ،
 حَتَّى تَكُونَ مُلْتَقًى وَمِلَادًا لِكُلِّ شُعُوبِ الْأَرْضِ
 الَّتِي تَتَّحِدُ فِي مِيزَةِ الْعَقْلِ الَّذِي أَرَادَ اللَّهُ أَنْ
 يَقُومَ وَاحِدَةُ الْمَجْتَمَعِ الْإِنْسَانِيَّ وَحَضَارَتِهِ
 عَلَى أَسَاسٍ مِنْهُ .

وعلى ذلك فإن تعلم لغة القرآن حق من حقوق الإنسان أينما كان يتحد مع التزامه باستيعاب تعاليم القرآن وإعجازه ويحعل تعميم وتعليم هذه اللغة واجباً قدسياً على جميع المؤمنين بالقرآن وشرعية محمد صلى الله عليه وسلم .

ولو تحقق للإنسانية هذا الحلم لسلمت من جميع الشرور التي حاقت بها وأسباب التطاحن التي هيمنت على حياتها طوال القرون الماضية التي تلت نزول القرآن على محمد صلى الله عليه وسلم ، ولوقوف الإخاء على مجتمع إنساني واحد لا يحمل في داخله شيئاً من أسباب التناحر والتصادم ويتمتع من الإيمان بالله بالقدر الذي يؤهله لنصرته ودفع الأذى عنه وفق ما تعاهد به في العديد من آيات كتابه كقوله سبحانه :

« وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ »
وقوله : « الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ » ، وقوله : « إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا » ، وقوله : « وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا » ،
وقوله عز شأنه : « وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى

آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ » صدق الله العظيم .
إلى غير هذا من الآيات العديدة التي وردت في هذا المعنى .

وخلاصة القول أن الإيمان هو سبيلنا الأوحد لاكتساب مرضاة الله وحمايته وأمنه ونصرته ، ولا سبيل إلى عطية الإيمان الذي يؤهل الإنسان لذلك إلا بالافتناع العقلي والانصياع الوجداني اللذين لن يتحققا لأحد بدون قراءة القرآن بلغته وبتضلع فيها يؤهل القارئ لإدراك مكان إعجازه وأبعاد ما ترمي إليه آياته .

فإذا تسابق الناس إلى تعلم العربية وتحري الدقة في النطق بها والقدرة على الغوص إلى مكنوناتها فإن ذلك من شأنه أن يحقق هدفاً مزدوجاً يتمثل في سهولة الوصول إلى منبع الهداية الذي تلتقى حوله العقول والمشاعر بالقدر الذي يرتقى بمطامح الإنسان ويسمو به إلى مرتبة من الصفاء والروحانية يتخلص بها من نوازع الشر فيه ويتأهل بها لمفهوم المحبة والمواخاة ،

والبحث عن الإسلام واجتناب أسباب
العداوة والبغضاء والتناحر . وهو الهدف
الذى تتركز فيه أنظار الفلاسفة ودعاة
الفضيلة والإصلاح فى كل زمان ومكان .
وهذا أرى أن أعرض خلاصة (مشروع
الصندوق العالمى لتعميم لغة القرآن)

إنه مشروع يقوم على الاستفادة من
مستحدثات العلم والتقنية فى تيسير إيصال
فرص الإلمام باللغة العربية إلى كل الناس
دون استثناء ، بدءاً بفئتي العرب والمسلمين
الذين يتحتم أن تنهدم بينهما الأسوار ،
والحواجز وتنصهرا فى بوتقة العروبة
كأنموذج متحضر ومتمكن من قيم الأخلاق
والمرورة والمسالة والتحضر ، والبحث عن
المحبة بالقدر الذى يستهوى كل فئات
المجتمع الإنسانى المتعطشة لكل ذلك
ويستميلها إلى نفس السبيل ، ويجعلها
تتعشق من تلقاء نفسها تعلم لغة القرآن
حتى تدرك معنى الإنحاء ووحدة الأسرة
الذين يدعو إليهما القرآن فيما مر من
آيات وفى غيرها مما لم يرد ذكره .

الصندوق الدولى لتعميم اللغة العربية الفصحى

إن مجمع اللغة العربية بالقاهرة الذى
يضم النخبة الممتازة من أعلام العربية
المتكئين فيها والمتمتع بالشهرة العالمية
التاريخية التى ترتفع به إلى مصاف أعلى
الأكاديميات العلمية المتخصصة فى العالم
المعاصر هو الهيئة المؤهلة لتبنى الدعوة ،
والعمل على تحقيق فكرة هذا الصندوق
الذى سيؤكد توفير الموارد اللازمة للاتفاق
على برنامج يبدأ بإعداد أحدث الوسائل
التعليمية المتمثلة فيما يتسنى استخدامه من
وسائل تقنية وتجنيد العلماء المتخصصين
فى حقول اللغة العربية الذين يتكفلون بما يتاح
تقديمه لهم من تلك الوسائل بإيصال
معلوماتهم إلى كل مستمع أو مشاهد فى
أطراف الأرض كلها ، مستخدمين أحدث
وأسر ما وصلت إليه الأجهزة النظرية فى
مضمار تعليم اللغات فى الدول المتقدمة التى
دأبت على تبسيط برامج تعليم لغاتها على
النحو الذى نسمعه كل يوم من محطات
إذاعة تلك الدول ، وما نشاهده فى الأشرطة
المسموعة والمرئية التى دأبت على تعميمها
ووضعها تحت تصرف كل من يطلبها فى

جميع أرجاء المعمورة . ولسنا في هذا الصدد
بأقل استعداداً وقدرة من غيرنا .

وإذا كان المجمع يتخرج من أن يكون
له دور ذو طبيعة مادية فإنه لا أقل من أن
يصدر مباركته لهذا المشروع والتوصية
لتنفيذه بالاستعانة بهيئتي اليونسكو الدولي
والعربي واقتراح تشكيل هيئة خاصة به
تعمل تحت إشراف كل من المجمع ،
واليونسكو مكونة من شخصيات تشتهر
بكفاءتها ونزاهتها وإيمانها بأهداف هذا
المشروع .

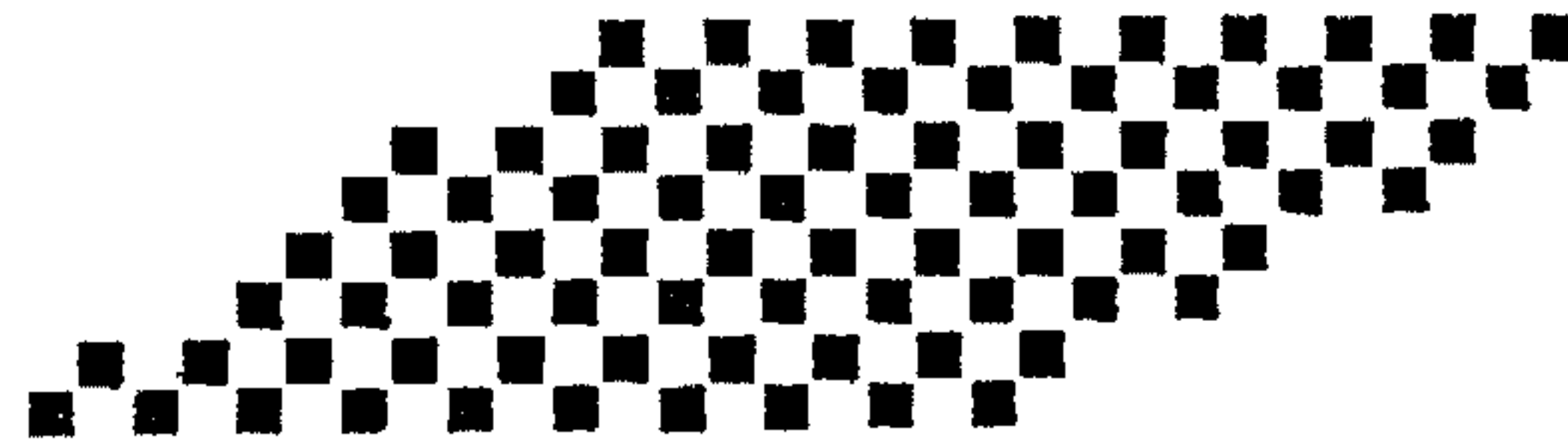
وواضح أن هذا المشروع إنما يقوى على
الوقوف على قدميه إذا ما اتجهت إليه
الحكومات العربية والإسلامية باهتمامها
وأولته من إيجابيتها القدر الذي يستحقه .

لذلك

أرجو أن يتفضل مؤتمر المجمع السادس
بـ الخمسون الموقر بأن يصدر توصيته بتأييد
المشروع على النحو المتقدم .

وشكراً ،

على رجب المدني
عضو المجمع (من الجماهيرية الليبية)



منهج طه حسين في الدراسات الأدبية للدكتور شوقي ضيف

يعد طه حسين الرائد الفد للدراسات الأدبية العربية في القرن العشرين ، وعوامل مختلفة تضافرت في إحلاله هذه المنزلة الرفيعة ، ولكي تتضح لنا ينبغي العودة إلى تكوينه الأدبي في نشأته الأولى حين كان طالباً بالأزهر منذ السادسة عشرة من عمره وكان يختلف إلى دروس الشيخ "سيد المرصفي" ، وفيها كان يدرس لطلابه نصوصاً في ديوان الحماسة لأبي تمام وكتابي الكامل للمبرد والأماي لأبي علي القالي ، وكان يملئ عليهم شروحاً لما يقرأ ونظرات لغوية ونقدية ، من شأنها أن تكون في الطلاب ملكة الكتابة وتذوق الأدب والفقه باللغة وجودة اللفظ ورصانة الأسلوب .

واستقر في نفس طه حسين مبكراً أنه ينبغي في دراسة الأدب العربي الانتفاع بطريقة شيخه المرصفي التي تعين على تكوين

وافتح الجامعة المصرية الأهلية سنة ١٩٠٨ فانتسب إليها ، وكانت قد

(*) ألقى هذا البحث في الجلسة السابعة من جلسات المؤتمر (جلسة علمية مسائية) المعقودة مساء يوم الإثنين ٨ من شعبان سنة ١٤١٠ هـ الموافق ٥ من مارس (آذار) سنة ١٩٩٠ م .

الملكة الأدبية عند الطلاب وتصلهم أذواقهم
 بما تعرض من النقد اللغوى وبين الدقائق^١
 والأسرار البلاغية ، والانتفاع مع ذلك بطرق
 المستشرقين فى دراسة تاريخ هذا الأدب
 فى الدين والسياسة والاجتماع والاقتصاد
 والعلم والفكر لا بد إذن ودراسة الأدب
 من الأخذ بطريقة المرصنى التى تساعد على
 فهم النصوص الأدبية وتذوقها تذوقاً
 حسناً والأخذ بطرق المستشرقين لاستنباط
 التاريخ الأدبى لهذه النصوص ومن أنتحها
 من الشعراء والكتاب

وما توافى سنة ١٩١٤ حتى يضع طه حسين
 رسالة يحصل بها على درجة العالمية من
 الجامعة المصرية الأهلية . اتحد موضوعها
 دراسة أبى العلاء المعرى مفيداً فيها من
 طريقة شيوخه المرصنى فى فهم الشعر وتذوقه
 ومن طرق المستشرقين فى دراسة تاريخ
 الأدب دراسة تعين^٢ على فهم المؤثرات
 السياسية والدينية والاجتماعية والاقتصادية
 والعقلية فى العصر كله .^٣ ويوضح تأثيره
 العميق بطرق المستشرقين فى دراسته الحكيم
 المعرة ودرتها المريدة قوله فى فواتحها .

« ليس الغرض فى هذا الكتاب أن نصف
 حياة أبى العلاء وحده ، وإنما نريد أن ندرس
 حياة النفس الإسلامية فى عصره ، فلم يكن
 لحكم المعرة أن ينفرد بإظهار آثاره المادية
 والمعنوية وإنما الرجل وماله من آثار ،
 وأطوار نتيجة لازمة وثمره ناضجة لطائفة
 من العلل اشتركت فى تأليف مزاجه ،
 وتصوير نفسه من غير أن يكون له عاينها
 سيطرة أو سلطان . من هذه العلل المادية
 والمعنوية وإذا صح هذا كله فآبوا العلاء
 ثمرة من ثمرات عصره ، قد عمل فى
 إنضاجها الزمان والمكان والحال السياسية
 والاجتماعية والاقتصادية والدينية . »

وما يلبث أن يعلن فى التمهيد أن مورخ
 الأدب الذى لا يؤمن بالمذاهب الحديثة
 ولا يصطنع فى البحث طرائقه الطريفة .
 ولا يطمئن إلى أن الحركة التاريخية جبرية
 ليس للاختيار فيها مكان لا يستطيع أن
 يوفى دراسة أبى العلاء حقها فى رأيه .
 والمهم إعلانه جبرية التاريخ الأدبى وأنه
 ثمرة عال ينبغى تبينها فى دراسته ، وحار
 بعض الباحثين فى استشعار طه حسين لهذه
 المحورية وتساءلوا هل اطلع^٤ على آراءتين

الناقد الفرنسي وما ذهب إليه من حبرية التاريخ الأدبي وجبرية علمه المؤثرة في سماته ونخبائه ولا موضع لهذا التساؤل ، فقد أعفانا هو نفسه من تعليل ذلك بما ذكر من أنه يتبع فيه فلاسفة أوربا والمسلمين ، أما فلاسفة أوربا فمن ذكره له منهم أساتذته المستشرقون ولا نعرف هل كان بينهم تين أو لم يكن ، وأما فلاسفة المسلمين فلمعه بقصده ابن خلدون وما ذهب إليه من الجبرية التاريخية في فلسفته الاجتماعية بمقدمته المشهورة .

وبذلك يريهم طه حسين منهجه في دراسة تاريخ الأدب العربي ، فهو ليس سرّداً لأخبار من هنا وهناك عن العصر وأدبائه ، بل هو دراسة جادة للأدب وأدبائه وللعوامل والمؤثرات الحتمية التي تتحكم فيه وفي منتجه وما ينتجون من آثار أدبيه ، حتى ليقرر : « إن الحادثة التاريخية والقصيدة الشعرية والخطبة يُجيدُها الخطيب والرسالة ينسجها الكاتب الأديب ، كل أولئك ينسج من العلل الاجتماعية والكونية يخضع للبحث والتحليل خضوع المادة لعمل

الكيمياء » . وقد يكون طه حسين مسرفاً في تصور هذه الجبرية التي تشمل جميع الأدباء في العصر دون أي تفريق بين أديب وأديب ودون أي مراعاة لفردية الأديب ومواهبه الذاتية ، غير أنه كان من الضروري وهو يضع - لأول مرة - قواعد التاريخ للأدب العربي وأدبائه أن يقرع أسمع من يحاولون التصدي لدراسة هذا التاريخ بأن واجبهم أن يعكفوا على دراسة المؤثرات البيئية والسياسية والاجتماعية والعقلية والحصارية في العصر وفي أدبائه وما أنتجوا من شعر ونثر ، ويوضحوها توضيحاً تاماً ، ومن الخير أن لا يعطوها صمة الحتم والجبر والإلزام ، ولكن لابد من استقصائها حتى تستبين سمات الأدب في العصر والعوامل التي تفاعل معها استبانة كاملة .

وجعل طه حسين الرسالة في تمهيد وخمس مقالات ، وتحدث في التمهيد عن مصادر الدراسة العربية القديمة والحديثة ومصادرها الإنجليزية والفرنسية ، وفي المقالة الأولى عرض زمان أبي العلاء ومكانه وشعبه ،

وموضع عصره من العصور العباسية ملاحظاً أن ربط مؤرخي الأدب العربي بين السياسة والأدب يجر إلى حيف شديد ، لأن الدولة قد تضعف ويظل الأدب مزدهراً ولا يزال هناك من يردد هذا الرأي ، غير أنه من الصعب وضع بديل سوى السياسة للعصور الأدبية ، وهي في واقعها رمز ، لأن العصور الأدبية لا تنشأ فحاة ولا هي تنشأ بمراسيم سياسية ، إنما تنشأ تدريجاً وتتخذ حادثة سياسية كبيرة رمزاً لنشأتها على نحو ما صنعنا باتخاذ سنة ١٣٢ للهجرة بدءاً للعصر العباسي ، وكانت مقدماته بدأت قبل هذا التاريخ بسنوات غير قليلة - ويعرض طه حسين في المقالة الأولى أيضاً الحياة الاقتصادية والدينية والاجتماعية والعقلية والفلسفية والأدب في العصر والعلوم الأدبية واللغة .

وفي المقالة الثانية يتحدث عن حياة أبي العلاء فيعرض قبيلته وأسرته ومولده واسمه ولقبه وكنيته وتربيته وتعليمه ، ومراحل حياته وأحداثها مفصلة غاية التفصيل . ويتناول في المقالة الثالثة أدبه وشعره في سقط الزند واللزوميات والمدرعات

ونثره وأطواره وخصائصه . وفي المقالة الرابعة يعرض علمه وكتبه . ويتحدث في المقالة الخامسة عن فلسفته الطبيعية ، والإلهية والعملية وخصائصه الفلسفية .

ولعلنا لانبالغ إذا قلنا إن هذه الرسالة تعد بدء التاريخ الدقيق لوضع الأسس القوية لتاريخ الأدب العربي ، بحيث يدرس دراسة عامية سديدة كما يدرس أعلامه دراسة تحليلية تتبين فيها روح العصر بكل مشخصاته الزمانية والبيئية ، وبعبارة أخرى بكل مؤثراته - أو كما يقول بكل علله البيئية والسياسية والاجتماعية والدينية والاقتصادية والعقلية ، وقد جلى شخصية أبي العلاء جلاء تاماً وصور منزلته الأدبية والعلمية والفلسفية تصويراً بالغ الدقة ، ومهما اختلفنا معه - أو اختلف

بعض المعاصرين - إزاء بعض أحكامه عليه وخاصة على فلسفته وآرائه العقلية فإن هذه الرسالة تؤرخ - كما أسماخت - البدء الحقيقي لدراسات الأدب العربي وتاريخه في القرن العشرين إذ وضعت على منهج سديد يستصحبها اتخذه الغربيون في دراسات

الأدب وتاريخه من مناهج محكمة قوية مع الانتفاع فيها بمنهج شبيحه المرنى وعنايته فيه باللغة والنقد وصقل الذوق الأدبي . ولما أظهر في رسالته من الاستعداد العلمى فى دراسة الأدب وتاريخه قررت الجامعة الأهلية إرساله فى بعثة إلى فرنسا سنة ١٩١٤ ورأى نهضة الفكر الأوروبى تعتمد على الأصول الكلاسيكية اليونانية واللاتينية . فاقبل على التزود من تلك الأصول بتعلم الإغريقية واللاتينية ، وأخذ يختلف إلى محاضرات دور كايم فى علم الاجتماع ، وأعجبه دراسته الاجتماعية وأعد بإشرافه رسالته للحصول على الدكتوراه فى فلسفة ابن خلدون الاجتماعية كما توضحها مقدمته المعروفة وكان يختلف إلى محاضرات ديبل عن الحضارة البيزنطية ولبنى برول عن فلسفة ديكارت ولانسون عن تاريخ الأدب الفرنسى ، وكان يرفع من شأن الذوق وما يشيره فى الناقد الأدبى من انطباعات وإحساسات وتأثرات بحيث يستهوى قارئه ويجذبه إلى ما يقوله ، وأعجبه منهجه التأثرى الذاتى فى دراسة الأدب ، واختلف إلى محاضرات كازانوف فى تفسير القرآن الكريم وهو فى أثناء ذلك كله ظل يعنى بتاريخ اليونان والرومان

عناية أتاحته له الحصول على دبلوم الدراسة العليا فى القانون المدنى لروم . وعاد إلى مصر فى أكتوبر سنة ١٩١٩ فعين بالجامعة المصرية أستاذاً للتاريخ القديم اليونانى والرومانى . ويظل فى هذا المنصب حتى سنة ١٩٢٥ وينشر خلال هذه السنوات طائفة من الكتب والمقالات تأليفاً وترجمة حول التراث اليونانى . ويصدر حزب الأحرار الدستوريين صحيفة السياسة فى أواخر سنة ١٩٢٢ لتكون اللسان المعبر عن الحزب ومبادئه وأهدافه . ويصبح طه حسين كاتبها الأدبى . وينشر فيها يوم الأحد قصة مخصصة عن الأدب الفرنسى وكل يوم أربعاء ينشر فصلاً عن الشعر والشعراء فى أواخر العصر الأموى والعصر العباسى الأول . بدأها فى ديسمبر سنة ١٩٢٢ واستمر حتى فبراير سنة ١٩٢٤ وفيها عرض أباواس وشعراء الخمر واللهو من الوليد بن يزيد إلى مروان بن أبى حفصة ماراً بمطيع بن إياس وحمام عجرد وبشار ووالية وغيرهم من المجان . وثار عليه كثيرون وعدوه مشوهاً لتاريخ العرب فى حقبة باهرة من حقب تاريخهم زمن المنصور والمهدى والرشيد . ورد بأن العلم ينكر تقديس السلف ولا يعرف الهوى ولا العواطف واستشهدا بعصور فى تاريخ

اليونان القديم وتاريخ فرنسا الحديث كانت من أروع العصور ومن أكثرها لهواً ومجوناً وأضاف إلى هذه الفصول فصلاً عن شعراء الغزل في العصر الأموي ، وجميع هذه الفصول منشورة في الجزء الثاني من حديث الأربعاء ، وفي تضاعيفها نظرات وآراء في الشعر العربي وتاريخه مما أفاده في دراسة الأدب من أساتذته الفرنسيين ونراه في المقالة السابعة من الجزء يتحدث عن الغاية من نقد الشاعر ويرجعها إلى محاولة فهم شخصيته ، وعصره وبيئته ، وما يحدثه شعره في نفس الناقد من لذة فنية ، ويعرض في إجمال منهج سانت بييف Sainte Beine في نقد الشعراء وتحليل لشخصياتهم ومنهج تين Taine في عدم عنايته بشخصياتهم وإنما بعصورهم وبيئاتهم والأمم التي ينتمون إليها ومنهج جول ليمتر Jules Lemaitre في عنايته بتأثير الشعراء في النفوس وما يبعثون فيها من العواطف ، ويرى الانتفاع بكل هذه المناهج في دراسة الشعراء ، وانتفع أيضاً بمنهج أستاذه لانسون في نقد الشعراء وأنه

ينبغي أن يصور ما خافوه من انطباعات في نفوس النقاد عن طريق التذوق الشخصي لأشعارهم . وسيهود طه حسين إلى ذكر مناهج النقاد الفرنسيين في دراسة الأدب عما قليل بصورة أكثر سعة وتفصيلاً .

وتتحول الجامعة المصرية الأهلية إلى جامعة حكومية منذ ١٩٢٥ ويصبح طه حسين أستاذاً فيها للأدب العربي وتاريخه ، وأخذ في محاضراته طوال هذا العام يعني بدراسة العصر الجاهلي أقدم عصور الأدب العربي ، وما أن استدار العام حتى نشر كتابه : « في الشعر الجاهلي » مستعيناً فيه بمناهج الغربيين في دراسة الشعر اليوناني القديم ، وأحدث الكتاب ضجة هائلة في الأوساط الدينية والعلمية والسياسية والرأي العام بشكّه الواسع في الشعر الجاهلي وتعرضه فيه لبعض مسائل تمس الدين ، فصودر الكتاب . وفي السنة التالية أعاد نشر الكتاب في صورة معدلة وبعنوان جديد هو : « في الأدب الجاهلي » وفيه رسم منهجه في دراسة تاريخه ، وكانت بعض أسس هذا المنهج قد نشرها مفرقة في رسالته عن أبي العلاء وفي المقالات التي نشرها في السياسة والتي تحدثنا عنها آنفاً

فضم شوارد تلك الأسس وألف منها نسقاً واضح المعالم لمنهج .

ويتحدث في فواتح الكتاب عن دراسة الأدب العربي وتاريخه بمصر في معاهده المختلفة ويقول إنها عقيمة أشد العقم محدبة أشد الإجداب إذ لا تنشئ ملكة أدبية . ولا قدرة على النقد والتحليل ولا تصوراً سليماً لتاريخ الأدب ودراسة شخصيات الأدباء وما ينتحون من شعر ونثر ، ويقول إن مؤرخ الأدب العربي لا بد له من أن يكون واسع الثقافة باللغة وعامها والعلوم الدينية والتاريخ وتقويم البلدان والفلسفة والآداب الأجنبية القديمة والحديثة ، ويعرف الأدب بأنه مأثور الكلام شعراً ونثراً ، ويقسمه إلى أدب إنشائي وهو ما ينتجه الأديب من آثار فنية شعرية ونثرية وأدب وصفي وهو الذي يدرس الأدب الإنشائي مفسراً أو مؤرخاً ومحللاً وناقداً ، ويقول . إن الأدب الوصفي هو ما سماه المحدثون باسم تاريخ الأدب

ويأخذ طه حسين في بيان مقاييس التاريخ الأدبي ، ويبدها بالمقياس السياسي

وما يترتب عليه من تقسيم الأدب العربي إلى عصور ، ويرفضه كما رفضه في مقدمات رسالته عن أبي العلاء يحر إليه من الربط بين قوة الأدب وضعفه وقوة الدولة من الناحية السياسية وضعفها ، فهو راق خصب إذا ارتقت الحياة السياسية . وهو جذب منحط إذا انحطت الحياة السياسية ومعروف أن الحياة السياسية العربية انحطت في القرن الرابع الهجري وارتقى الأدب وازدهر ، فالسياسة لا تصلح مطلقاً - كما يقول - أن تكون مقياساً دقيقاً للحياة الأدبية .

ويعرض المقياس الثاني لدراسة تاريخ الأدب ويسميه المقياس العلمي ، وهو مقياس مشترك في وضع صاحبه ثلاثة من مؤرخي الأدب الفرنسي في القرن التاسع عشر أرادوا - بتأثير النهضة العظيمة للعلوم الطبيعية في عصرهم وسيطرة مناهجها وقواعدها في دراسة الفلسفة وظهور ما سمي فيها بالفلسفة الوضعية - أن يخضعوا الأدب وتاريخه لقوانين ثابتة كقوانين العلوم الطبيعية المطردة الثابتة ، ونهض بذلك ثلاثة من أفذاذ مؤرخي الأدب

الفرنسيين هم : سانت بييف Sainte Beune وتين Taine وبرونتيير Brunetiire أما الأول فرأى أن يرجع هذه القوانين إلى دراسة شخصيات الشعراء والكتاب دراسة نفسية عضوية تشمل عصورهم وأوطانهم وأسرهم وتربيتهم وتعلمهم ، وثقافتهم وتكويناتهم الجسمية والعقلية النفسية وصلاتهم الاجتماعية وجوانب ضعفهم وكل ما اضطربوا فيه من آراء ومن نجاح وإخفاق حتى إذا اتصحت في شخصية الأديب كل هذه الجوانب استطاع مؤرخ الأدب أن يعرف ما يميز شخصيته ، وما يشترك فيه مع شخصيات أخرى بحيث يكون معها فصيلة أدبية في الأمة على نحو ما يصنع علماء النبات في تبين الفصائل النباتية المختلفة إذ يُسْتَخْلَصُ للفصيلة الأدبية قانونها العلمي الأدبي كما يُسْتَخْلَصُ هولاء العلماء لفصائل النبات قوانينهم العلمية الصرفة .

ومضى تين إلى نهج أبعد ، إذ لم يعتد فيه بشخصية الأديب الفردية ، إنما اعتد بقوانين ختمية جبرية تطبق على جميع أفراد الأمة ، دون أي استثناء ، كقوانين

الطبيعة التي تخضع فيها جميع الحزئيات لكل قانون خضوعاً مطلقاً دون أي شذوذ ، ورد هذه القوانين إلى ثلاثة ، وهي الجنس والبيئة أو المكان ، والعصر أو الزمان . أما الجنس فيُمثل في الفطرة الموروثة لكل أمة تنتمي إلى أصل واحد ، وأما البيئة فيقصد بها الوسط المكاني الذي ينشأ ويضطرب فيه جميع الأفراد في الأمة بحيث يشتركون في صورة واحدة من الروح الاجتماعية ومن الأخلاق والعادات وأما العصر فيقصد به الظروف السياسية والدينية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية والفنية ، فالشاعر والكاتب إنما هو أثر من آثار الجنس والبيئة والعصر ، والغرض القويم من دراسة تاريخ الأدب إنما هو بيان هذه المؤثرات أو بعبارة أدق القوانين التي أحدثت الكاتب أو الشاعر وأرغمته على أن ينتج ما أنتج من نشر أو شعر .

وأما برونتيير فقاده الأخذ بمناهج العلوم الطبيعية وقوانينها الجبرية في دراسة الأدب إلى تطبيق ما ذهب إليه داروين في علم الأحياء من نظرية التطور أو نظرية النشوء والارتقاء فوضع في ذلك كتابه :

« تطور الأنواع الأدبية » محاولاً تقسيمها في الشعر والنثر إلى فصائل كفصائل الكائنات الحيوانية فهي مثلها يتولد بعضها من بعض ، وقد تتلاشى كما تلاشت بعض فصائل الحيوان ، وأخذ يطبق ذلك على المسرح والنقد الأدبي والشعر الغنائي ، واتخذ من ازدهار النوع الأخير بفرنسا في القرن التاسع عشر دليلاً على أن نوعاً أدبياً تلاشى في نوع آخر ، إذ ذهب إلى أن هذا النوع أو الشعر لم يتطور عن أصل من نوعه ، إنما تطور عن الوعظ الديني الذي ازدهر بفرنسا في القرن السابع عشر ثم صعب وعاد يحيى من جديد في هذا الشعر الغنائي للقرن الماضي .

ويعقب طه حسين على هذا المقياس العلمي عند مؤرخي الأدب الفرنسيين الثلاثة بأنهم كانوا غير موفقين فيما حاولوا من وضع قوانين علمية للأدب وتاريخه كقوانين العلوم الطبيعية لأن تاريخ الأدب لا يمكن أن يكون علماً خالصاً ، إذ لا يمكن لمورخ الأدب أن يبرأ من شخصيته وذوقه على نحو ما يبرأ عالم الطبيعة في وضع قوانينها العلمية وهداه التفكير إلى مقياس ثالث

لتاريخ الأدب سماه المقياس الأدبي . وهو فيه يمسح مجالاً واسعاً للتذوق وتعبير مؤرخ الأدب عن انطباعاته إزاء الأثر الأدبي وصاحبه ، حتى يتمتع عقول قرائه وقلوبهم بتأثيراته الذاتية . وهو في ذلك يستصفي بباراء أستاذه لانسون ، مؤرخ الأدب الفرنسي وما كان يذهب إليه من الحملة على أصحاب المذهب العلمي السالف لما يؤدي إليه من مسخ تاريخ الأدب في رأيه ، إذ يخليه من شخصية المورخ الأدبي وتذوقه الشخصي ، ويحعله جافاً مجدياً لا يحسب الأدب إلى القراء

ولم يعجر مع أستاذه إلى نهاية الشوط . فقد رأى أن يعيد مؤرخ الأدب من المناهج العلمية السالفة وأن يضم إليها تأثره وتذوقه للآثار الأدبية ، بحيث لا يطغى التذوق والتأثر أو بعبارة أخرى لا تطغى شخصية المؤرخ الأدبي على تاريخ الأدب وتتحكم فيه . وإلا أصبح فناً ولم يعد تاريخاً أدبياً وكما أنه يسعى أن لا يصبح علماً خالصاً كذلك ينبغي أن لا يصبح عملاً فنياً خالصاً ، ومنهج الذي ارتضاه بذلك لدراسة تاريخ الأدب أن يتخذ فيه سبيل

وسط بين المناهج العلمية الصارمة السالمة وبين منهج لانسون التأثري الدائى ، وتأثر بلاسون أيضاً فيما ذكره من أن مؤرخ الأدب ينبغى أن يستعين بمعارف متنوعة من التاريخ الحضارى للأمة وتراجم الأدباء وتواريخ العلوم والفلسفة والعلوم اللغوية ، مما جعله يذهب إلى أن دراسة الأدب ينبغى أن تمر بمرحلتين : مرحلة إعداد يتقن فيها مؤرخ الأدب عاوم النحو وفقه اللغة ، والصرف والبيان والتاريخ ومعرفة مناهج البحث الأدبى ، حتى يستكشف النص الأدبى ويحققه ويضبطه ، ومرحلة ثانية تلى مرحلة الإعداد ، وفيها يتبين مواضع الجمال فى الأثر الأدبى معتمداً فى ذلك على الذوق الشخصى وبيان انطباعاته إزاءه مع ما ينبغى له من الحرية الفكرية فى البحث والنقد والتحليل .

ويدرس طه حسين بعد بيان منهجه وتفصيله الأدب الجاهلى محتكماً فى دراسته إلى مذهب الشك الذى أوجب استخدامه الفيلسوف الفرنسى ديكارت فى البحث ، وهو يتلخص فى أن الباحث ينبغى أن يدرس موضوعه خالى الذهن مما قيل فيه

دون استشعار أى شىء من عواطفه الدينية والقومية وقد مضى على هدى هذا المنهج لا يقبل حكماً ولا رأياً مما قاله القدماء إلا بعد تمحيص دقيق له ، ولا يلبث أن يعلن أنه درس الأدب الجاهلى دراسة عامية انتهت به إلى نظرية عامة هى أن الكثرة المطلقة مما نسميه أدباً جاهلياً ليست من الجاهلية فى شىء وإنما هى منتحلة بعد ظهور الإسلام فهى إسلامية تمتل حياة المسلمين أكثر مما تمتل حياة الجاهليين ، ولا ينبغى الاعتماد عليها فى استخراج الصورة الأدبية الصحيحة للعصر الجاهلى ، وتحدث عن أسباب الوضع والانتحال فى الشعر الجاهلى وردها إلى السياسة والدين والقصص والشعرية والرواة ، ثم درس الشعراء الجاهليين دراسة تطبيقية ، وبدأ بشعراء اليمن وربيعه وشك فى حقيقة امرئ القيس ، وانتهى إلى رفض شعره وأشعار اليمنيين ورفض - أو كاد يرفض - أشعار شعراء ربيعة ، إذ جمهورها - فى رأيه - منتحل مصنوع ، وذهب إلى أنه لم يسلم من أشعار مضر من الانتحال إلا القليل ، ومن هذا القليل مدرسة زهير وعنى بدراسة شعرها وخصائصه ، وأنكر النثر الجاهلى جملة ، وقال إننا لانستطيع أن نخلص

الأمثال الجاهلية من الأمثال الإسلامية ،
فقد اختلط النوعان من الأمثال اختلاطاً
واسعاً . وكتبت عشرات المقالات في
الصحف وألفت طائفة من الكتب تعارض
نظرية الكتاب في أن الكثرة من الشعر
الجاهلي منحولة موضوعاً ، غير أن النظرية
أدت دوراً مهماً في دراسة هذا الشعر
إذ أصبح شعراؤه لا يدرسون إلا بعد مراجعة
دقيقة لروايات أشعارهم ونفي الزائف منها
والاعتماد على الوثيق منها الذي لا تدخله
الشبهة والارتياب .

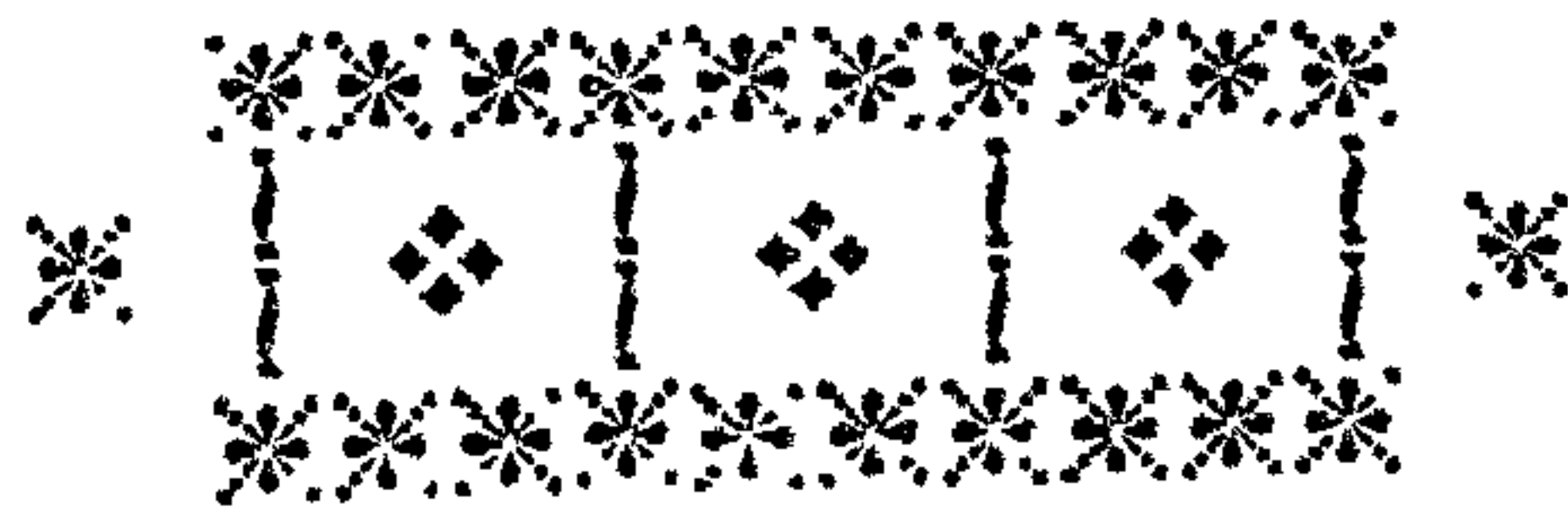
ونمضى مع طه حسين إلى سنة ١٩٣٣
وفيهما ينشر كتاباً عن حافظ وشوقي وهو
في مجموعة نقد للشاعرين الكبيرين .
وينشر طائفة من المقالات في بعض الصحف
اليومية عن شعراء جاهليين ومخضرمين ،
اختار فيها لكل منهم قصيدة مصوراً فيها
انطباعات له بديعة ممتعة ، وجمعها في
الجزء الثاني من حديث الأربعاء - وألقى
مجموعة من المحاضرات تحدث فيها عن
منزلة الأدب العربي بين الآداب القديمة
الكبرى : اليونانية واللاتينية والفارسية ،
ورأى أنه يتقدم الأدبين اللاتيني والفارسي

وأخذ في عرض النثر أثناء القرنين الثاني
والثالث للهجرة وأعلامه النابيين : سالم
مولى هشام بن عبد الملك كاتب الإنشاء في
دواوينه وخليفته في الدواوين الأموية .
عبد الحميد الكاتب وذهب إلى أنه كان
يتأثر في صياغة كتابته باليونانية الكثرة
استخدامه للحال ، وهي لارمة تلاحظ عند
أستاذة سالم من قبله وتحدث عن ابن المقفع
وشبهه بالمستشرقين الذين يحسنون العربية
ويعيبهم أحياناً الأداء السديد غير آبه
بشأن القدماء عابيه وعدّهم له أحد الأدباء
الأفداد الذين يتقدمون أدباء العصر العباسي
وكتابه ، ونوه بالحافظ وبرساته البديعة :
« التربيع والتدوين » . وأصاف إلى هذه
المحاضرات محاضرات عن كبار الشعراء
في القرن الثالث الهجري . أبي تمام ،
والبحتري وابن الرومي وابن المعتز . ونشر
هذه المحاضرات جميعاً في كتابه : « من
حديث الشعر والنثر » وهو يجلو جوانب
من الأدب العربي نشرًا وشعرًا في القرنين
الثاني والثالث للهجرة وفي سنة ١٩٣٧
أصدر كتابه مع المتنبي وهو فيه يدرسه
دراسة نفسية تاريخية فنية . تتبعه فيها

منذ مولده ومنسته في أسرة متواضعة . ورأى أن شعوره بهذا الصعف من ناحية أسرته وأهله الأديس كان العنصر الأول المؤثر في شخصيته وبغضه للناس وما أخذ حياته من الشنود ، ويرافقه في تعلمه وارتحاله إلى البادية وبدء نظمه للشعر وتعرفه على مبادئ القرامطة ومفارقته للكوفة في السابعة عشرة من عمره وإليه ببغداد لمدة قصيرة وتحوله إلى الشام وثورته فيها وسجنه ومديحه للأمراء هناك وإقامته فترة في بلاط سيف الدولة ، وتحوله إلى كافور بمصر وفراره منها إلى العراق وارتحاله إلى إيران لمديح ابن العميد وعضد الدولة ، ويعود من لدهما ويفتك به القرامطة في طريقه إلى بغداد . ويدرس طه حسين المتنبي في كل ذلك محلاً لنفسيته وشخصيته وشعره ويحمل عليه مراراً ويقول إنه كان متهاكاً على المنافع العاجلة وطلب المال من ممدوحيه الكثيرين ، وصباً عناية في الكتاب على شخصية المتنبي لا على شعره ، وعلى جوانبه التاريخية لا على جوانب فنه .

ويشعر الجزء الثالث من حديث الأربعاء وهو يصم مقالات متنوعة بعضها بشرة في صحف يومية منذ سنة ١٩٢٣ وبعضها نشره بها في السنوات الأخيرة ، ويدخل في القسم الأول ما كتبه من مقالات عن القديم ، والحديد والرافعي وعن أعمال بعض المفكرين والباحثين والأدباء ويدخل في القسم الثاني ما كتبه من مقالات نقد فيها الإبداع الشعري عند علي محمود طه وإبراهيم ناجي ومحمود أبي الوفا وإيليا أبي ماضي وفوزي المعلوف ويعود إلى أبي العلاء ، فيعرض طائفة من شعره وفكره وفلسمته في كتابه : « مع أبي العلاء في سجنه » ثم يعود إليه ثانية في كتابه « صوت أبي العلاء » ناثراً طرائف من شعره . وطه حسين - بكل ما قدمت - يعد الرائد الموجه الفذ لدراسات الأدب العربي وتاريخه ودراسات شعرائه المبدعين في القديم والحديث .

نسوفى ضيف
الأمين العام للمجمع



التربية المثلى للشباب في ضوء الإسلام للكтор حسن الفاتح قريباتي

حرص الإسلام على تربية النشء من الذكور والإناث فهيأ لهم ولما يزالوا في بطون أمهاتهم الرعاية التامة ، وجعل لميلادهم فرحة في الأسرة فسمي لهم النسك^(١) أو العقيقة إعلاناً له^(٢) ، وأوصى باختيار أحسن الاسماء للأبناء^(٣) ، وشارك النبي عليه الصلاة والسلام في تسمية بعضهم حيث سمي ابننا لاسماء بنت أبي بكر بعبد الله بن الزبير^(٤) ، كما وضع إطاراً عاماً لتسمية المولودين في عصره وبعده ، فقال : إن أحب أسمائكم إلى عبد الله وعبد الرحمن ، وأصدقها

حارث وهمام ، وأقبحها حرب ومرة ؛ وقال : لا تسمين غلامك يساراً ولا رباحاً ولا نجيحاً ولا أفلح ؛ فإنك تقول : أشم هو ؟ فلا يكون ، فيقول . لا . أما هن أربع ، فلا تريدن عليها^(٥) .

وأوصى رسول الله ﷺ الأيوين بمساعدة أبنائهم على الاستمرار على الفطرة ، فلا يهودانهم ، ولا يمجسانهم ولا ينصرانهم فقال : كل مولود يولد على الفطرة وإنما أبواه يهودانه ، أو ينصرانه ، أو

(*) ألقى هذا البحث في الجلسة الثامنة من جلسات المؤتمر المعقودة يوم الثلاثاء ٩ من شعبان سنة ١٤١٠هـ الموافق ٦ من مارس (آذار) سنة ١٩٩٠ م .

- (١) الغزالي : إحياء علوم الدين ج ٣ ص ٩٢ فما بعدها .
- (٢) الفيروزبادي : سفر السعادة ص ٨٦ والأحياء ج ٢ ص ٦٩ .
- (٣) الفيروزبادي : سفر السعادة ص ٨٧ والأحياء ج ٢ ص ٦٩ .
- (٤) أبو نعيم الأصفهاني : حلية الأولياء ج ١ ص ٣٣٣ وسفر السعادة ص ٨٦ .
- (٥) الفيروزبادي : سفر السعادة ص ٨٧ والأحياء ج ٢ ص ٦٩ .

بنت حميد ودعا له^(١) ، وأردف خلفه بعض الغلمان ، وخصَّه برعايته ، ووحَّه عبره كل الأمة مُبيناً لهم حقوق الله عليهم وحقوقهم على الله .

يقول معاذ بن جبل رضي الله عنه :
بينما أنا رديف النبي ﷺ ، ليس بيني وبينه إلا آخرة الرجل ، فقال : معاذ ، قلت : لبيك يا رسول الله وسعديك . قال : هل تدري ما حق الله على عباده ؟ قلت : الله ورسوله أعلم . قال : حق الله على عباده أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً ، ثم سار ساعة ، ثم قال : يا معاذ بن جبل ، قلت : لبيك يا رسول الله وسعديك . قال : هل تدري ما حق العباد على الله إذا فعلوه ؟ قلت : الله ورسوله أعلم ، قال : حق العباد على الله أن لا يُعَذِّبهم^(٢) .

وكرر عليه الصلاة والسلام هذا الأسلوب التربوي مع آخرين كان من بينهم سيدنا

عبد الله بن عباس رضي الله عنهما ، يقول ابن عباس : كنت رديف النبي ﷺ فقال : يا غلام أو يا غليم ألا أعلمك كلمات ينفعك الله بهن ، فقلت : بلى . قال : احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده أمامك تعرف على الله في الرخاء يعرفك في الشدة ، وإذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله ، قد حَفَّ القلم بما هو كائن^(٣) ، ولو اجتمع الخلق على أن يعطوك شيئاً لم يكتبه الله عز وجل لك لم يقدروا عليه ، وعلى أن يمنعوك شيئاً كتبته الله عز وجل لك لم يقدروا عليه ، فاعمل لله تعالى بالرضى في اليقين ، واعلم أن في الصبر على ما تكره خيراً كثيراً ، وأن النصر مع الصبر ، وأن الفرج مع الكرب ، وأن مع العسر يسراً .

وكان من تربيته عليه الصلاة والسلام

(١) أخرجه البخاري راجع السمط المحيد ص ٥٦ ونص الحديث : حدثنا أبو عقيل عن جده وكان قد أدرك النبي صلى الله عليه وسلم وذهبت به أمه بنت حميد إلى رسول الله (ص) فتألت يا رسول الله بايعه : فقال النبي (ص) هو صغير ، فمسح رأسه ودعا له .

(٢) رواه البخاري ومسلم .

(٣) رواه أحمد بإسناد حسن والخطبة ج ١ ص ٣١٤ .

التَّيَّابُ أَنْ أَكْرَمَهُمْ ، وَعَمِلَ عَلَى بِنَاءِ
شَخْصِيَّتِهِمْ ، وَإِبْرَازِ دَوْرِهِمْ وَتَجْسِيدِ
تَقْدِيرِهِ لَهُمْ ، فَافْسَحَ لَهُمُ الْمَحَالَّ لِمُشَارَكَةِ
كِبَارِ الصَّحَابَةِ فِي حُلُقَاتِ الْبَحْثِ الْعِلْمِيِّ ،
وَفِي صَلَاةِ الْحَمَاعَةِ ، وَأَعْلَا مِنْ شَأْنِهِمْ
فَخَصَّصَهُمْ بِالذِّكْرِ وَجَعَلَهُمْ مِنَ السَّبْعَةِ الَّذِينَ
يُظْلِمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ .

فَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ
ﷺ قَالَ : سَبْعَةٌ يُظْلِمُهُمُ اللَّهُ فِي ظَاهِ يَوْمٍ
لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ : إِمَامٌ عَادِلٌ ، وَشَابٌ نَشَأَ
فِي عِبَادَةِ رَبِّهِ ، وَرَجُلٌ قَلْبُهُ مَعْلُوقٌ بِالمُسَاحِدِ
وَرَجُلَانِ تَحَابَا فِي اللَّهِ اجْتَمَعَا عَلَيْهِ وَتَفَرَّقَا
عَلَيْهِ ، وَرَجُلٌ دَعَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ ،
وَجَمَالٍ فَقَالَ : إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ ، وَرَجُلٌ
تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ فَأَخْفَاهَا حَتَّى لَا تَعْلَمَ تَمَالُهُ
مَا تَنَفَّقَ يَمِينُهُ ، وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللَّهَ خَالِيًا
فَنَاضَتْ عَيْنَاهُ^(١) .

وَأَوْكَلَ لَعْنَابُ بْنُ أَسِيدٍ وَكَانَ ابْنُ عَشْرِينَ .
سَنَةً - أَوْ إِحْدَى وَعَشْرِينَ - إِمَارَةَ مَكَّةَ
وَقَضَاءَهَا^(٢) ، وَكَذَلِكَ فَعَلَ مَعَ مَعَاذِ بْنِ جَبَلٍ .
وَمَا يَذْكُرُ أَنَّهُ أَوْصَى مَعَاذًا حِينَ تَوَلَّيْتَهُ
بِقَوْلِهِ : يَا مَعَاذُ إِنِّي أُوصِيكَ بِتَقْوَى اللَّهِ ،
وَصِدْقِ الْحَدِيثِ ، وَوَفَاءِ بِالْعَهْدِ ، وَأَدَاءِ
الْأَمَانَةِ ، وَتَرْكِ الْخِيَانَةِ ، وَرَحْمَةِ الْيَتِيمِ ،
وَحِفْظِ الْجَارِ ، وَكُظْمِ الْغِيْظِ ، وَخَفْضِ
الْجَنَاحِ ، وَبَذْلِ السَّلَامِ ، وَلِينِ الْكَلَامِ ،
وَلِزُومِ الْإِيمَانِ وَالتَّفَقُّهِ فِي الْقُرْآنِ ، وَحُبِّ
الْآخِرَةِ ، وَالْحَزَنِ مِنَ الْحَسَابِ ، وَقَصْرِ
الْأَمَلِ ، وَحَسَنِ الْعَمَلِ ، وَأَمَّا أَنْ تَشْتَمَ
مُسْلِمًا ، أَوْ تَكْذِبَ صَادِقًا ، أَوْ تَعْصِيَ
إِمَامًا عَادِلًا .. يَا مَعَاذُ إِذْ ذَكَرَ اللَّهُ عِنْدَ كُلِّ
حَجَرٍ وَشَجَرٍ ، وَأَحْدَثَ مَعَ كُلِّ ذَنْبٍ
تَوْبَةً ، السِّرَّ بِالسِّرِّ ، وَالْعَلَانِيَةَ بِالْعَلَانِيَةِ^(٣)
وَكَانَ مَعَاذٌ هَذَا عَلَى رَغْمِ صُغَرِ سِنِّهِ مَوْضِعَ
احْتِرَامٍ وَتَقْدِيرٍ وَإِكْبَارٍ صَحَابَةِ رَسُولِ اللَّهِ

(١) متفق عليه .

(٢) المغني عن حمل الأسفار هامش ص ١٩٣ ح ١ .

(٣) رواه ابن عمر راجع بحلية الأولياء لأبي نعيم الأصفهاني ح ١ ص ٢٤٠ - ٢٤١ وراجع المغني عن
حمل الأسفار ص ١٩٣ ح ١ ، ١ .

ﷺ ، حتى أنه ليذكر أنهم كانوا ينظرون إليه إذا تحدث بينهم نظر هيبة له^(١)

وتقديراً من رسول الله ﷺ لدور الشباب أوكل لأئمة - وكان دون العشرين - قيادة جيش المسلمين ، علماً بأن في الجيش من هم أسن منه ، وأقدم منه إسلاماً . وأتاح لهم فرص التعليم ، والتربية والاستقرار الأسري ، وكان مما قال : ما من أحد يدرك ابنتين فيحسن إليهما ما صحبتهما ، إلا أدخلناه الجنة^(٢)

وتولى هو عليه الصلاة والسلام تربية بعض الشباب في بيته ، فقام بتربية سيدنا علي ، والسيدة عائشة رضي الله عنهما ، وكانا صغيرين . كما قام كذلك بتربية نسله الطاهر الشريف من البنين والبنات ، وتبني بالإضافة إلى هؤلاء وأولئك عدداً من الشباب كان من أشهرهم زيد بن حارثة ..

وكان لا يفتأ يسبغ رعايته وعطفه ورحمته وأبوته على اليتامى والمساكين وأبناء المعسرين .. ومما يروى في هذا الصدد أنه اتفق أنه قاتل شاباً يائساً وسط آخرين مبتهجين مسرورين فرحين فاصطفاه عليه الصلاة والسلام وقربه ، وأصلح من حاله وزينه وهيشته .. وقال له وهو يرفع من قدره : أما ترضى أن أكون لك أبا ، وعائشة أم المؤمنين لك أمًا ، وفاطمة اختاً^(٣) ؟

وأناخ عليه الصلاة والسلام ناقته ليحمل معه عليها أسماء بنت أبي بكر الصديق ، حيث رآها مجهدة بالسير ، وبما كانت تحمله على رأسها من أنوى ، غير أن حياة السيدة أسماء وغيرة زوجها ، جعلها تؤثر المشي على الركوب^(٤) .

وأثر عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال

(١) أبو نعيم الأصبهاني : حلية الأولياء ح ١ ص ٢٣١ هذا وقد جعل الهمز الراءى صفة الهيبة من صفات الرئاسة ج ١٤ ص ١٥٠ عند تفسيره لقوله تعالى (قال الملائكة من قومه إنما لنراك في ضلال مبين) الأعراف آيات ٥٩ - ٦٤ .

(٢) محمد علي فياض : التاريخ الإسلامي عصر الخلفاء الراشدين طبع مطبعة المتوكل بمصر سنة ١٩٤٩ م ١٩٥٠ ص ٩٣ - ٩٤ .

(٣) أخرجه ابن ماجه والحاكم وقال صحيح الإسناد .

(٤) (٤) الغزالي : إحياء علوم الدين ج ٢ ص ٧٦ - ٧٧ .

عن صغير كان وفدُ بنى سعد هذيم من
قضاة قد خلفوه على رحلهم : أصغرُ
القوم خادمهم ، بل لقد أمر عليه الصلاة
والسلام هذا الصغير على كبار الصحابة
وزعماء الوفد ، إعلاءً منه عليه الصلاة
والسلام لمكانة الخدمة الاجتماعية في
الإسلام^(١) .

وإدراكاً منه عليه الصلاة والسلام للماللهو
البرئ المتسق مع الخلق - من دور نفسي ،
وتربوي ، في تقويم السلوك وتهذيب الطباع -
أباح للنساء والرجال أصنافاً منه وضروباً ،
فكانت السيدة عائشة رضي الله عنها تلهو
وهي صغيرة في بيت الرسول عليه الصلاة
والسلام - بما يُدخل عليها المسرة ويطردها
عن الملل ، وحيث شبت وكبرت أتاح
لها رؤية الحبش وهم يرقصون . تقول السيدة
عائشة رضي الله عنها : جاء حبش يزفون
في يوم عيد في المسجد . فدعاني النبي ﷺ
فوضعت رأسي على منكبيه ، فجعلت أنظر
إلى لعنهم . حتى كنت أنا التي أنصرف
عن النظر إليهم

وروى مسلم عن عروة عن عائشة رضي
الله عنها قالت : إن أبا بكر دخل عليها
وعندها جاريتان في أيام منى تغنيان وتصربان
ورسول الله صلى الله عليه وسلم مُسَجَّى
بشوبه ، فانتهرهما أبو بكر ، فكشف
رسول الله صلى الله عليه وسلم عنه ، وقال :
دعهما يا أبا بكر فإنها أيام عيد .

وفي رواية أخرى عن السيدة عائشة أنها
قالت : دخل عليَّ أبو بكر وعندي جاريتان
من جوارى الأنصار تغنيان بما تقاولت به
الأنصار يوم بعاث . قالت : وليستا
بمغنيتين . فقال أبو بكر : أئمزور الشيطان
في بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟
وذلك في يوم عيد ، فقال رسول الله صلى
الله عليه وسلم : إن لكل قوم عيداً وهذا
عيدنا .

وأورث عليه الصلاة والسلام الشباب
مكارم الأخلاق ، إذ رباهم على طاعة
الوالدين ، والبر بهما ، ومراعاة شعورهما
وإسباغ ثوب الرحمة عليهما . بل لقد آثر

(١) محمد أحمد حاد المولى : محمد المثل الكامل الطبعة الأولى بمصر ١٣٤٩ هـ - ١٩٣١ م ص ١٢٩ .

برهما حتى على الجهاد ، وقال لمن قدم إليه مبايعاً على الهجرة والجهاد : هل من والديك أحد حتى ؟ فقال الشاب : نعم كلاهما حتى ، فقال الرسول عليه الصلاة والسلام : وهل تبغى الأجر من الله ؟ فأجاب الشاب : نعم . فقال عليه الصلاة والسلام : ارجع إليهما فأحسن صحبتتهما .

وأرجع الرسول ﷺ شاباً قدم إليه للجهاد دون إذن والديه ورضاهما عن خروجه ، وبعد أن سمع منه قوله : يا رسول الله جئتُ أبايعك على الهجرة ، وتركت أبوي يبكيان . قال عليه الصلاة والسلام : ارجع إليهما فأضحكهما كما أبكيتهما .

وحرصاً منه عليه الصلاة والسلام على مراعاة الروابط الاجتماعية أمر الأبناء بأن يوادوا من كان يواد أبويهم ، ويبروه ، ويواصلوه ، ويحسنوا إليه فقال عليه الصلاة والسلام : إن أبر البر ، صلة الولد أهل وُدَّ أبيه (١) .

وفي إطار العلاقات الاجتماعية أيضاً دل الإسلام الشباب وغيرهم على ما ينمى

العلاقات الإنسانية بينهم فقال : ألا أدلكم على ما تحبون به أفشوا السلام بينكم ، أفشوا السلام تسلموا ، وقد اعتبر الإسلام السلام الذي يُلقيه الفرد لمن عرف ومن لم يعرف ، من أفضل القربات التي يكسب بها رضا ربه ، ورضا الناس . فقال عليه الصلاة والسلام : إن أفضل الإسلام وخيره إطعام الطعام ، وأن تقرأ السلام على من عرفت ومن لم تعرف .. ورفع رسول الله ﷺ من قدر السلام فجعله من أحد شعب الإيمان حيث قال : ثلاث من جمعهن فقد جمع الإيمان : الإنصاف من نفسك ، وبذل السلام للعالم ، والإنفاق من الاقتار . وجعل عايه الصلاة والسلام المصافحة من تمام التحية ، فقال : تمام تحاياكم المصافحة .

أما الرد على السلام فقد عده الرسول ﷺ من موجبات الرحمة فقال : رحمة على القوم المسلمين الذين لا يردون تحية السلام .. وحذّر عليه الصلاة والسلام كل المسلمين من أن يُعرضوا عن رد السلام ، فقال : ما من رجل يمر على قوم مسلمين

(١) رواه مسلم وأبو داود والترمذی.

فيسلم عليهم . ولا يردون عاياه السلام ،
إلا أنزع عنهم روح القدس ، وردت عليه
الملائكة^(١) .

هذا ومكارم الأخلاق التي بثها رسول
الله ﷺ للشباب نظرياً وعملياً ، ورَبَّى
عليها أُمَّته أكثر من أن تُحصى فقد علَّمهم
السَّباحة في المعاماة ، والعفو في العطاء ،
والتضحية بالمال ، وبالنفس والوقت ،
وحسب إليهم عمل الخير ، وحشَّهم على
سملة الرحم ، وعلى زيارة الأحياء والأموات
من المسلمين .

وجعل الصلاة وسيلة لتوثيق الصلة بين
العبد وربّه ، والحجّ هجرة إليه ، والزكاة
تطهيراً له ، والصوم إعداداً له ، وتدريباً .
أضف إلى ذلك أنه حول بالنية كثيراً من
الأفعال العادية إلى عبادة .. فأصبح تبعاً
لذلك التَّعليم عبادة ، والزواج عبادة ،
وإمطة الأذى عن الطريق عبادة ، والتربية
البدنية إذا خلت من شوائب الاختلاط ،
واللبس الفاضح وغيرها عبادة .. وصارت
معاونة الزمّني والمرضى عبادة ، واحترام

الصغير وتوقير الكبير عبادة ، ومشاطرة
الحيوان أفراحهم وأنراحهم عبادة ، حتى
ولو كانوا يهوداً أو نصارى أو غيرهم ..
ومحبة الصالحين والتَّاسّي بهم وانتهاج
طريقهم والانتظام في سلوكهم عبادة ..
والدعوة إلى الله بالمقال والمال عبادة ..
وصار العمل الدنيوي مكتبياً ، أو حقائياً ..
أو صناعياً ، أو غيره إذا ما روعى فيه
المولى عبادة . وأصبحت نظافة البدن ،
والمكان ، والوقاية من الأمراض ، والعلاج
منها عبادة .. وتبسم الفرد في وجه أخيه
ومعاونته له عبادة .

وعموماً فقد ربط الإسلام بمنهجه التربوي
بين القيم الدينية والممارسات العملية ،
نسماً بالفرد اجتماعياً ، وحضارياً ، وعقلياً ،
وروحياً ، وخلق منه شخصية متميزة ،
استطاعت أن تبلور شؤون الحياة بما يتمشى
والدين ، وتبعاً لذلك أصبحت نعمة فصل
الدين عن الحياة أسطورة لاصلة لها بفكر
الشباب المسلم ، وعقيدته .

(١) نصر على عبد الهادي . التحية في الإسلام طبع المطبعة الكمالية بعابدين ص ٨ ، ١٢ .

كان الإسلام إذن فصحاً إيجابياً على الإنسانية وطاقة دافعة لها نحو الرقى ، والكمال والرفعة . كان وما يزال هو الدين العملى الوحيد الذى يتفاعل إيجابياً مع قضايا الشباب فى كل العصور . والأرملة والأمم ، هو دين ماضى الأمم . وهو دين حاضرها ، ومستقبلها .

لقد سمت تشريعاته الإلهية على كل

تشريع فاستأصل بحكمته جذور الجرائم . ونشر ألوية العدل . وسأوى فى الحقوق والواجبات بين كل الأفراد . بل لقد عمياً لغير المسلمين من العدل والرحمة ، المساواة ما لم يكونوا يتصورون حدوثه فى مجتمعهم الدنيوى ، ومن ثم كان حرص عمير المسلمين على دولة الإسلام يماثل حرص المسلمين عليها .

حسن الفاتح قريب الله
عصو المجمع المراسل (من السودان)



الفكر العلمى العربى وحضارة الغرب للكتور يوسف عز الدين

المقدمة :

التقسية العلمية القائمة على أصول البحث المنظم عندما بنى الحضارة الإنسانية وعندما طور أساليب البحث العلمى وأقامها على أسس قوية ومنهج دقيق فى جميع ميادين العلم التطبيقي وسوح العلم النظرى . رداية من الطب والراعة وعلم الحيل (الميكانيكا) ووصولاً إلى الأدب والنقد والشعر .

وبالرغم من الجهود التى تبذل والطافات العلمية التى تهر فى سبيل تعريف الجيل المعاصر بقيمة حضارتنا وكثرة المؤتمرات التى عقدت والكتب الكثيرة التى نشرت ومراكز الأبحاث التى انتشرت فى العالم وكماها تؤكد أصالة العلم فى تراشنا وحذوره العميقة فى علوم الغرب وأنه اعتمد عليها فى حضارته فما زال هذا الجيل لا يصدق هذه الحقائق بعد أن نشأ فى

حضارة الغرب التى سيطرت على كل معالم الحياة العلمية المعاصرة ، وليدة البحث العلمى الجاد ، وابنة أصول البحث العلمى المنظم لأن العلم هو القاعدة القوية التى قام صرح الحضارة العربية على أساسها . وأصول البحث المنظم طور المعارف العامة وضبط النظريات الحديثة عندما وصعت لها الضوابط فسيطرت على العالم الحديث باستخدام التقنية الحديثة والتطبيق العلمى الحديث ودخلت العلوم فى تجديد المعارف القديمة وتطوير الحضارة المعاصرة وبالتالى تقدمت حياة المجتمع الغربى الاجتماعية ، والسياسية والاقتصادية والمكرية .

ولم يكن الغرب بأقل قدرة وقابلية فى

(*) ألقى هذا البحث فى الجلسة التاسعة من جلسات المؤتمر المعقودة يوم الأربعاء ١٠ من شعبان سنة ١٤١٠ هـ الموافق ٧ من مارس (آذار) سنة ١٩٩٠ م .

ظلال الفكر العربى وابهر بحضارته المؤثرة
فى حياتنا فى كل دقيقة . فطلاب العلم
لا يرون بغير أصول البحث العلمى عند
الغرب بديلاً مع أن هذه الأصول ممتدة
الجنود فى حضارتنا وأساليب بحث العلماء
الأوائل فلو درست كسب التراث دراسة
عميقة بوعى وتتبع المدارس المصادر لوحد
الكثير مما فى حضارة الغرب تفوم أسسه
على حضارتنا .

وقد اهتم الغرب بالعلوم العربية والحضارة
الإسلامية واعتنى بالحضارة العربية
والإسلامية التى أنتجت العلوم والفنون
والقوانين المتنوعة التى كتبت باللغة
العربية لأن المسلمين يفصلون اللغة العربية
فى بحوثهم على الكتابة بلغتهم المحلية ،
تقليدًا لهذه اللغة ولأنها كانت لغة العلوم
والفنون والآداب^(١) .

لا شك فى أن الحضارة الغربية دخلت
طوراً جديداً بما وصلتها من مخترعات ،
واكتشافات وأنها أخذت طريقاً جديداً
يختلف عن حضارة العرب فى التقنية -
الحديثة لكن الدراسات الكثيرة فى مجالات
البيئة وحياة المجتمع والفكر الإنسانى
والقواعد الأساسية فى تطبيق العلوم الصرفة
عند العرب يمكن أن تمد الباحث بالكثير
من التحارب التى كانت تقوم بها المدارس
العلمية فى مختبراتها وتحاربها فى حقول
المعرفة كلها .

وفى العصر الحديث كثرت مراكز
البحث فى الغرب تدرس أصول حضارتنا
وتراتنا ونشيطت هذه الحركة العلمية فى
هذه المراكز وكثرت أعمالها فى نشر -
النصوص بالتحقيق تارة أو بنشرها مصورة
كما هى وترجمت بعض هذه النصوص
إلى اللغات الغربية كالإنجليزية والفرنسية
والألمانية والروسية وغيرها من اللغات فى
مراكز البحث فى جامعات فرانكفورت
وتوبنكن وباريس وجامعتى أنقرة ،
واستانبول ومعهد ولكم فى لندن وغيرها ..
إضافة إلى عدة جامعات فى أمريكا مثل

(١) يلاحظ نلينو فى كتابه (علم الفلك وتاريخه عند العرب) والد وميللى فى كتابه (العلم عند العرب)
ومهج البحث العلمى^٢ عند العرب لجلال محمد عبد الحميد موسى

هارفرد ولم تتخلف البلاد العربية عن إنشاء مثل هذه المراكز أو المعاهد^(١).

ويظهر أن هذه الأعمال التي تقوم بها هذه المراكز ومعاهد البحث العلمي لم يكتب لها أن تكتسب السيطرة الواسعة في عالم المعرفة المعاصرة ولعلها محدودة الجهود قليلة الإنتاج بالقياس إلى ملايين المخطوطات العربية في العالم لأنها بحاجة إلى دعم كبير لإسماع البحث العلمي الجاد في حضارتنا لأكبر قدر ممكن من القراء وألا تقتصر بحوثها على العلماء والمختصين ليتعرف أكبر عدد من المفكرين على أمانة الباحث العربي ودقة الاستنتاج لديه وأساوبه العلمي المنظم والزيادات الكثيرة التي أضافها على العلوم التي سبقت حضارتنا.

أسس البحث العلمي وفواعده :

للبحث العلمي الحديث قواعد عامة وأسس واضحة محددة وأسلوب منظم - لا يمكن أن يتخطاه كل باحث ودارس في مختلف علوم المعرفة الإنسانية ولعل أقدر على إحرازها وهي :

أولاً : الإلمام التام بجهود العلماء الذين سبقوا الباحث في الدراسة والتتبع والاستفادة من النتائج والفرصيات السابقة بما فيها إن خدمت البحث أم لم تخدمه . وتتبع ذلك بالبحث في الكتب العلمية والدراسات الجامعية والبحوث المتنوعة المشورة في الموضوع الذي يريد الباحث دراسته ، وإحصاء النتائج والتجارب التي توصل إليها الباحثون مهما كلف الدارس من جهد وصرف من وقت لأن الصبر من ضرورات البحث العلمي الناجح لا سيما إذا كان الباحث محباً لبحثه وعلمه وكان دقيق الملاحظة فلا بد له أن يطلع على ما نشر في اللغات الأجنبية ومتى زادت مصادر البحث زادت أهمية البحث .

ولا يكتبى الباحث الأصيل بما يجد في أمتة من مصادر بحث ومراجع علم كتبها علماء أمتة في أصولها أو علماء الغرب عن هذا التراث إنما يجب أن يكرس جهده لعلمائنا وما وصلت إليه بحوثهم من نظريات

(١) تاريخ العلوم عند العرب عبد الحميد صبرة ص ٦٠ .

وحقائق علمية وتعقب جذورها ودراسة
قواعدها في حضارتنا وتراثنا .

وعلمي مستنديين إلى النتائج التي وصلت
إليها مختلف الأمم قبيل الإسلام^(٢) .

فقد اهتم العرب بقياس دقيق لمحيط
الكرة الأرضية على غير طريقة قياس
أرطوستانس التي أخذت عن البابليين غالباً
والتي كانت درجة صوابها منوطة بالصدفة .

وقد يقف الباحث العربي محايداً دون
أن يصدر حكماً خشية أن تكون أحكامه
غير دقيقة وإنما يذكر ما يسمع ويروى
ما يراه وبالرغم من أن مثل هذا الأمر يقلق
الدارس إلا أنه يدل على تحرج كبير من
الباحث العربي على إصدار الأحكام .

وفي هذه المرحلة تيقن العلماء العرب
أن مقياس بطليموس وأرصاده تحتوي على
أغلاط وأن من الواجب استعراض صحتها
وتصحيحها وإكمال نواقصها أو الاستدراك
عليها بإجراء بحوث جديدة^(١) .

إن ذكر كل الروايات الصادقة والمختلفة
منهج قد يفيد الذين يأتون فيما بعد
لاستخراج الحوادث الصعيفة والمدسوسة
كما يرسم صورة للعصر الذي ظهرت فيه
الحوادث التاريخية ، فقد روى الطبري
بأنه اعتمد الحوادث المتعددة المتنوعة ،
وحدها بقوله . (ما أحضرت ذكره
فيه ، مما شرطت أني راسمه فيه ، إنما هو

وامتحنوا النتائج الجغرافية التي وصلت
إليهم من الإغريق من جهة^١ وسعوا في
امتحان الشبكة المقيسة للكرة الأرضية من
جهة أخرى وفي هذه المرحلة نفسها أسس
العرب علم الكيمياء على أساس نظري

(١) يكتفي ذكر أرصاد يحيى بن أبي منصور ومعاوية في بغداد ودمشق في عصر المأمون وأرصاد حبش
الحاسب لمواقع النجوم السيارة وكسوف الشمس والقمرة في بغداد وسامراء ودمشق في العصر العباسي وأرصاد
ابن يونس في القاهرة في بداية القرن الحادي عشر وأرصاد أبي الفتح عمر الصوفي في شيراز بعد منتصف القرن
العاشر وأرصاد البيروني في خوارزم في نهاية القرن العاشر وما جرى فيما بعد في مراغة في القرن الثالث ودمشق
في الرابع عشر وفي سمرقند في الخامس عشر .

(٢) فؤاد سزكين ص ٤٨ ، ٤٩ .

مارويت من الأخبار التي أنا ذاكرها فيه ، والآثار التي أنا مسسدها إلى رواتها دون ما أدرك بحجج العقول وأستنبط بفكر النفوس إلا اليسير القليل منه ... فما يكن في كتابي هذا من خبر ذكرناه عن بعض الماضين مما يستنكره قارؤه أو يستشنع سماعه من أجل أنه لم يؤت في ذلك من قبلنا وإنما أتى من بعض ناقله إلينا وإنما أديننا ذلك على نحو ما أدى إلينا (١) .

وقد اهتم العلماء بما وصلت إليهم من علوم مختلفة من اليونان والفرس والهندوتتبعوا فيها مختلف التيارات الفكرية فالذين اهتموا بالفلك لضبط الأمور الدينية من صلاة وصيام وحج لم يقفوا عنه عندما احتاجوا إليه إنما أرادوا الاستفادة الكاملة من علم الفلك والعلوم الأخرى ومعرفة الاختلافات في النتائج فأوصلهم هذا - التتبع لجهود العلماء إلى محاولة جديدة في البحث العميق للوصول إلى إزالة الخلاف بين القيم العددية التي وجدها العلماء

الإسلاميون في المؤلفات الهندية والفارسية واليونانية .

ومن هذا أن التتبع السطحي ولد عند علمائنا فكرة المقارنة والامتحان أي الإبداع بامتحان نتائج الأرصاد القديمة عن طريق مقارنتها بنتائج أرصاد جديدة (٢) وجدوا من الضروري القيام بها ليصلوا إلى الحقائق الدقيقة والنتائج السليمة .

إن هذه المقارنة والتأكد من النتائج العلمية تدل على فكر علمي يسعى بكل قوة لمعرفة علوم الآخرين وإن أولى خطوات البحث العلمي الإحاطة بكل ما كتب الباحثون السابقون وبالمقارنة تظهر صدق النتائج وصحة النظريات واضطروا وهم يتابعون جهود علماء الأمم الأخرى إلى امتحانهم .

وكان كتاب المجسطي من الكتب المهمة التي ينظر إليها بكل احترام فنبه البتاني إلى أنه يجوز أن يستدرك عليه في أرصاده على طول الزمان (٣) .

(١) للطبرى المقدمة ٧ - ٨ ج ١ .

(٢) تاريخ العلوم عند العرب ص ٦٣ .

(٣) المصدر نفسه .

إن تمحيص المعلومات والتأكد منها يعد تتبعها في مظانها من أهم أسس البحث العلمى عند العرب والنظرة إلى علم اليونان كانت محترمة ومقدسة والتأكد من آراء بطليموس تعكس لنا الثقة بالنفس والقدرة على التمحيص والدراسة الحادة إذ لم يأخذ علماؤنا عن الهند وفارس واليونان علومهم كما جاءت دون روية إنما درسوها وقارنوا بينها للوصول إلى نتائج سليمة للوصول إلى أمور جديدة لم تكن معارف العصر قد وصلت إليها ووضعوا أسسًا جديدة بعد تتبع آراء العلماء ودراسة النظريات القديمة التي كانت تسود الجو العلمى ويذكر الدكتور عبد الحميد موقف كارادى فو من فكر العرب وموقفهم من آراء وفروض بطليموس وإعجاب دى فو باتجاه الطوسى النقدى فى التفكير وعدت فى العصر الحديث من الفرضيات العلمية الناجحة بعد أن أهملت ولم يؤخذ بها فى ضوء الهيئته التى افترضها الطوسى . ليصبح (من الممكن لأول مرة تفسير حركات الكواكب السيارة جميعاً دون الخروج على

مبدأ الحركة الدائرية المنتظمة ، ولكن الكشف الذى فاجأ المشتغلين بتاريخ الفلك هو الشبه الكبير بين هيئة ابن الشاطر وهيئة كوبر نيكس وبخاصة فيما يتصل بحركات عطارد .. بالإضافة إلى استعمال كوبرنيكس نفس الحيلة الهندسية التى استنبطها الطوسى واستخدمها فى هيئته الجديدة^(١) .

ثانيا : دراسة النتائج السابقة وتمحيصها :

بعد أن يطلع العالم على آراء العلماء والباحثين السابقين لاكتفى بآرائهم ، وما توصلوا إليه من نظريات إنما كان ينقدها ويحاول أن يصلح ما فيها فيقوم هو بالدراسة ولا سيما فى حقل التجارب العملية والميدانية والتطبيق العلمى وبصورة خاصة فى العلوم الصرفة . وبالرغم من تقدم وسائل البحث العلمى ومساعدة المخترعات والمكتشفات الكثيرة والتقنية المتطورة والآلات المبتكرة فما زالت أساليب الدراسة الأولى عند العلماء قاعدة علمية واضحة الأسلوب .

وكان العالم لا يقف عند ظهور نتائج الأبحاث إنما يدرسها دراسة الخبير ويمحص النتائج للاستفادة مما بقي لها من فائدة في دراسته وبحثه وقد ضرب البيروني مثلاً واضحاً عندما تحدث عن الجاذبية الأرضية وقال بأن الأرض تجذب الأجسام وهو يناقش حركة الأجرام السماوية وعلى من يقول : (إن الأرض لو هكذا دارت إذن لطارت من فوق سطحها الأحجار واقتلعت الأشجار) ويثبت رأيه بقوة الجاذبية الأرضية فيقول : (هذا لا يقع لأنه لا بد من أن ندخل في الحساب أن الأرض تجذب كل ما عليها نحو مركزها) .

ويؤكد هذا الرأي في كتابه (القانون المسعودي) فيقول : (والناس على الأرض منتصبو القامات على استقامة أقطار الكرة وعليها أيضاً نزول الأثقال إلى أسفل^(١) .

إن رأى البيروني واضح بمعرفته للجاذبية قبل أن يعرفها نيوتن كما برهن على

كروية الأرض^(٢) وفي مثل هذا التأكيد من النتائج نحدد ذلك في ميدان الطب والبصريات فتمدد كان الرازي يرد على إقليدس وجالينوس قولهما في كون رؤية الأشياء تتكون بخروج الرؤية من العين إلى الأشياء ويصرح الرازي أن الرؤية تحدث بوصول الضياء من المادة إلى العين كما يرى أن حدة العين تتغير كبيراً وصغيراً بمقدار قوة الضياء الذي يدخل فيها^(٣) .

ثالثاً : الاعتماد على التجربة :

من الضروري أن يعتمد طالب العلم على التجربة الخاصة والدراسة الموضوعية والبعد عن الهوى والابتعاد على الأساطير والخرافات التي لا تثبت أمام البحث المجرد والعقل المخلص والمكر العميق وبخاصة في العلوم الإنسانية التي يكثر فيها الوضع والحذف ويدخل الخيال والهوى والمصلحة في حناياها .

وقد قام السلف الصالح بالتأكد من

(١) دراسات البيروني في الطبيعيات الدكتور جلال شوقي ص ٢٦٣ اعتمد على بواتق وأنايبب الكيمياء تأليف برنارد جاني ترجمة الدكتور أحمد زكي ص ٦٢ (والقانون المسعودي) للبيروني طبعة ج ١ ص ٢٢ .

(٢) منهج البحث العلمي عند العرب ص ٢٦٣ .

(٣) مكانة العرب في تاريخ العلوم فؤاد سزكين ص ٥٠ .

القضايا المختلفة وبخاصة ما يمس العقيدة بالتمحيص والدراسة ومتابعة السند ومعرفة من القائل ومقدار عقيدته وأخلاقه وكان الباحث والدارس يسافر بعيداً للتحقق من الحقائق والروايات والإسناد والتأكد من أبيات الشعر ناهيك عن الأحاديث النبوية التي كانت مثلاً راقياً في ضبطها وتسجيلها.

أما في العلوم التطبيقية فكانوا يجربون بأنفسهم العمليات للتأكد من صدق - النظرية أو الحقيقة العلمية في الطب ، والنبات والفلك والجغرافية وغيرها . وعندما أراد البيروني التأكد من الثقل النوعي لاختلاف وزنه وثقله استعمل وعاءً خاصاً لمعرفة الثقل النوعي للمعادن والأحجار الكريمة وقام أبو الريحان بجهد عظيم في تعيين قيم الثقل النوعي لبعض المعادن والأحجار الكريمة مستعملاً وعاءً مخروطي الشكل ذا مصبب بالقرب من فوهته بحيث يتجه هذا المصبب إلى أسفل ، وكان البيروني يزن المعادن المطلوب قياس وزنها

النوعى وزناً دقيقاً جداً ، ثم يدخلها في جهازه المخروطي الذي يكون قد ملاء إلى غاية مصبه بالماء فتحل المادة المولجة محل جسم مساوٍ لها من الماء الذي يفيض من المصبب عندئذ يقوم البيروني بوزن الماء المزاح ويعنى الوزن النوعي للمادة بحساب النسبة بين وزن المادة المختبرة ووزن الماء الذي أراحته عند إدخاله في الجهاز ويعتبر جهاز البيروني هذا أقدم مقياس لتعيين كثافة المواد^(١) وهو القائل في القانون المسعودي^(٢) : (وعلى هذا عملوا كما عملنا نحن وإن كان عملنا للتوطيد ، حتى يتأكد من تجارب الآخرين)

والطريف : أن نسمع بأن :

المأمون تولى نصب عمود من حديد بدير مران من دمشق وسواه في 'صدر النهار ثم قاسه بالماء فوجده متغيراً عن نصبته طول شعيرة بتأثير برودة الليل فيه^(٣) .

إن الاعتماد على التجربة الفردية جاءت بحقائق علمية مؤكدة وأبعدت كثيراً من

(١) الدكتور جلال شوقي المصدر السابق ٢٦٤ .

(٢) القانون المسعودي المصدر السابق ٢٦٨ .

(٣) المصدر نفسه جلال شوقي .

الأفكار التي كانت تنقل من جيل إلى جيل دون تمحيص كما جاءت العلوم من اليونان والسرّيان والفرس والهنود حتى جاء العرب فأخذوه بالتأكيّد وإضافة شيء جديد دون أن ينتقص هؤلاء من العلماء السابقين ومن الأمم الأخرى وتتبع الزلاّت والهفوات إنّما كانت إضافات دون تجريح أو تضليل وفي اعتقاد العلماء العرب أنّه ما من عالم مهّمًا بلغ شأنه معصوم من الخطأ منزّه عن الزلل . هذه المبادئ أرسّت لديهم الأسس الأخلاقية للنقد وأدت بهم إلى جعل النقد عندهم مفيداً^(١) .

وبذلك فإصلاح الخطأ كان رائدهم ، واحترام السابقين واضحاً فقد قال البيروني : « إنّ ما فعلت هو واجب على كلّ إنسان أن يعلمه في صناعته من تقبيل اجتهاد من تقدمه بالمهنة وتصحيح خلل إن عثر عليه بلا حشمة وتخليد ما يلوح له فيها تذكرة

لمن تأخّر عنا بالزمان وأتى بعد . . . »^(٢) . وقد اعتمد البيروني عندما أراد مقياس محيط الأرض واختار جبلاً من بلاد الهند مشرفاً على البحر وعلى برية مستوية ثمّ قاس ارتفاع الجبل^(٣) .

وقد اعتمد في قياسه على التجربة الفردية وهو القائل (وإلى التجربة يُلْتَجأ في مثل هذه الأشياء وعلى الامتحان فيها يقول)^(٤) .

ويظهر الرازي حبه للتجربة في مقدمة كتابه « الخواص » حيث برر رأيه في تأليف هذا الكتاب الذي قرر أن يجمع فيه أقوال الناس في خواص الأشياء ، ويجوز من قبول هذه الخواص دون التثبت بالتجربة^(٥) وبذلك فهو لا يشبّه إلاّ الخواص التي شهدت التجربة والاختبار بجدواها وآثرها .

(١) سزكين ص ٥٢ .

(٢) المصدر نفسه ص ٥٣ عن القانون المسعودي ص ١ - ٤ - ٥ .

(٣) منهج البحث العلمي عن العرب جلال محمد عبد الحميد موسى (الكتاب اللبناني ص ٢٥٩) .

(٤) المصدر نفسه عن علم الفلك عند العرب .

(٥) المصدر السابق ص ١٨١ - ١٨٣ .

رابعاً : العرض الجيد والابداع :

إن عرض الفكرة العلمية لابد لها من أسلوب جيد قادر على تقديم المعلومات ضمن الإطار العام للبحث مثل تسلسل الآراء وسبك المعلومات بدقة متناهية في استخدام الكلمات دون إطالة في الحديث واستفاضة زائدة للوصول إلى النتائج أو النظريات التي يريد أن يصل إليها العالم الباحث .

إن الأصالة العلمية والابداع الفكري وصدق النتائج لا تأتي إلا بعد دراسة عميقة مستفيضة لجوانب المعرفة ، والإحاطة التامة بالبحث والفهم الدقيق لما قرأ أو درس أو طبق من العلوم - والنظريات في الكتب أو المختبرات أو تجارب الميدان التطبيقي .

فقد أخذ العرب علومهم من أمم شتى ومن مصادر مختلفة منها طريقة التجربة الذاتية والترجمة من اللغات الأخرى .. ولما نشأ جيل يفهم اللغات الأجنبية

واستعرب من هذه الأمم بدأ الإحساس بالعلوم أكثر التصاقاً بالمفاهيم العربية كاليونانية والهندية والفارسية واستمر التراث يستفيد من الأمم الأخرى حتى أواسط القرن الثالث الهجري . وبعد أن هضم التيارات الحضارية للأمم الأخرى وبدأ يعرف جوانب علومها ومعارفها نشطت عنده ملكة الإبداع العلمي في مختلف ميادين العلوم وتطورها وأصلحوا بعض الأفكار القديمة عند اليونان مثل (مقاييس بطليموس وأرصاده) وأكملوا نواقصها وقاسوا اختلاف منظر القمر واستعمال مناهج حسابية غير معروفة عند الإغريق^(١) .

وقد ضرب الدكتور فؤاد سزكين بمرحلة الخلق والإبداع والثقة العلمية بالنفس - الذي لدى علمائنا وقدرتهم على التوصل إلى نتائج لم يتوصل إليها علماء اليونان بدراسات (الإخوة الثلاثة المشهورين ببنى موسى ، والذين كانوا يقومون بعمل مشترك

(١) مكانة العرب في تاريخ العلوم ص ٤٨

في دراساتهم لأرخميدس وأبلونيوس . .
هؤلاء الإخوة الثلاثة كانوا يحاولون -
الوصول إلى تحديد الرقم اليوناني ليكون
أدق مما وصل إليه القدماء وإلى حل جديد
لمسألة تقسيم الزاوية إلى ثلاثة أقسام
متساوية وقد كانوا يصححون ما وقع
لأبلونيوس في كتابه (المخروطات) على
رأيهم^(١) .

ولم يختلف علماء الأندلس عن رأى
علماء العرب في المشرق فقد كانوا شديدي
الحذر من أخذ علوم اليونان بالرغم من أن
هناك جذوراً فكرية تنازع الفكر العربي
الإسلامي في أحداثه متصلة باليونان ، لكن
الفكر الإسلامي والإبداع عند علمائنا رفض
آراء بطليموس في الفلك وأعادة تكوين
علم جديد يلائم ما يريدون مفضلين أرسطو
عليه .

انشاء نظرية جديدة في الفلك :

فقد وقف من نظرية بطليموس ابن طفيل
وابن رشد وابن ميمون وجاء في أثرهم
البطروجي بنظرية جديدة معارضة للفلك

البطلمي في نهاية القرن الثاني عشر الميلادي
ورغم أن محاولة البطروجي لم تكن موفقة من
الناحية الرياضية فإنها دليل واضح على قوة
التيار الفكري الجديد في الأندلس ومداه .
ولا جدال في أن نزعة التجديد والنقد
والتطور صاحبت العلوم الأخرى فالطب
والرياضيات والفلك مثل تطور العلوم
الأخرى .

خامساً : الأمانة العلمية :

كان تراثنا آميناً كل الأمانة في ذكر
المصادر والمراجع التي أخذ منها وتسلسل
الرواة والرواية والتثبت من كل رأى وفكر
في البحث العلمي لإتمام بحوث الذين
سبقوه من العلماء ليكون آميناً في النقل
والرواية .

ففي البحث العلمي المعاصر الذي أخذنا
شكله العام من الغرب لا بد أن توجد
هوامش في البحوث ترقيم عند أخذ النص
في المتن ويشار إلى الكتاب الذي أخذت منه
المعلومة ويذكر اسم المؤلف والصيغة وسنة

(١) مكانة العرب في تاريخ العلوم ص ٤٨ .

طبع الكتاب ومكان طبعه وغيرها لمعرفة هوية الكاتب واضحة لتوثيق الرأي ، لأن المطبعة أثرت الحياة العامة بالكتب المختلفة في العلوم المتنوعة .

ولا تختلف أساليب علمائنا عن هذا التوثيق يضاف إليه دراسة صاحب النص ومقدار صدقه وعلمه وخبرته فيما يؤلف فيه برغم أن الكتب كانت مخطوطة وصعوبة الحصول على أدوات التأليف قياساً بسهولة اليوم .

وبدأت عملية التوثيق بالحديث النبوي الشريف وظهرت كتب الصحاح وسمار العلماء والأدباء على هذا النهج في التاريخ والجغرافية ورواية الشعر والأخبار والأنباء في الأغاني والطبری والمسعودي والبلاذري وسمير الرجال والأسانيد المختلفة خير دليل على غرابة الخبر ونقده وتمحيص الروايات .

ما كان العالم يفكر في الجنس واللون أو الدين عندما أخذ علومه من الأمم الأخرى كالإيونان والهند والسريران والفرس وما أخذ

هؤلاء من الآشوريين والبابليين إنما كان في فكره الممحص وذكاؤه المغربل ينتقى المعلومات ويقارن بين العلوم ومصادر المعارف بأمانة مطلقة وتدقيق عميق . وكان العالم يذكر رأيه بوضوح وصراحة فهو يمدح الجيد ويؤكد على الصواب ويبتعد عن ما يخالف عقيدته ودينه ورأيه

وللأسف الشديد وجدت بعض علماء الغرب وكثيراً من المستشرقين والمستعربين يأخذون من علومنا وتجارب علمائنا خلال قرون طويلة دون أن يذكرورا مصادر علمهم حتى قيص الله من أبنائهم من أعاد لنا الحق بصراحة واضحة . فمن هؤلاء روجر بيكون الذي (يعد منذ أمد بعيد المؤسس للمنهج العلمي الذي يقوم على أن التجربة هي أساس البحث في العلوم - الطبيعية) ^(١) حتى جاء عالم غربي فوقف أمام هذا الرأي وقال : (إن روجر بيكون أخذ كل الاستنتاجات المنسوبة إليه في العلوم الطبيعية) ^(٢) .

(١ ، ٢) . مكانة العرب في تاريخ العلوم ص ٥٣ .

وقد أكد مكانة العرب العلمية فيديمان وترام فيما كتباه وأوضحا مكانة العلماء في بناء قانون التحربة والنظرية وأثرهم في بيكون ودافنتشي حتى قال فيديمان : إن العرب كانوا سباقين إلى الموضوع ، بل إن ماتوصل إليه بيكون أقل بكثير^(١) مما كان موجوداً عند علمائنا^(٢) فالنظرية والتجربة أهم قواعد البحث العلمى وكانت أساليبهم العلمية متوازنة محسوبة الخطوات ، وقد ذكروا خطوات بحوثهم وتطور أعمالهم حتى يصلوا إلى النتائج العلمية بدقة وهدوء وصدق .

وفي الوقت ذاته كان علماء الغرب يسيطون على معارفنا وينتحلون الكتب بعد ترجمتها مثل انتحال Mignel Serreit كتاب ابن النفيس^(٣) .

ومن الأمانة العلمية الاعتماد على التجربة العلمية للتأكيد على صدق النظرية لإرضاء الضمير العلمى الذى يؤكده الدين الذى يمنع الكذب والسرقة والسطو على الآخرين وبذلك وجدنا صدق الرواية والتخرج من

الظن والحدس والتخمين بالخطوات - المتسلسلة التى تأخذ حلفاتها واحدة بآخرى ، للوصول إلى اطمئنان نفسى من النتائج والنجاح فى الدراسة .

وظهرت تلك الأساليب فى جميع العلوم المختلفة والتحارب المتنوعة فى إنشاء المراصد والتدقيق من الرصد عكس الغرب الذى كان يأخذ من علمائنا ويزعم أنها من اليونان ويكتب عليها أسماء علمائه^(٤) وفلاسفته^(٥) .

انصاف للعرب :

إن الاهتمام بالشرق وبالمسلمين كان جزءاً لا يمكن تجاهله من حياة الغرب الذى كان يطمح أن يكون مثل علماء العرب والمسلمين . وقد كانت كلمات الشرق والإسلام والعرب متحدة ومتشابكة لوجود الاختلاف الفكرى والدينى بين أوروبا والشرق . فلا عجب أن نجد العداء النفسى لكل ما هو غير عربى ، والتجاهل التام للحضارة الإسلامية والتراث العربى والإرث الشرقى .

ثم بدأ بعض الكتاب والشعراء فى الاستفادة من الأدب العربى بالترجمة التى

(١) مكانة العرب فى تاريخ العلوم ص ٥٣ ، ٥٤ .

(٢) مكانة العرب فى تاريخ العلوم ص ٥٧ .

نشرت منه وكانت هذه الترجمة مقدمة
للتعرف على الفكر في حضارتنا وبداية ألفه
للمقاومة روح العداة التي استشرت في أوروبا
ولعل الأدب كان أول طريق مهدي للعلوم
وأفسح المجال لمحاربة هذا العداة التقايدى
لثرائنا .

وما جاء القرن الثامن عشر والقرن التاسع
عشر إلا أخذت حضارتنا تحلب لها جماعة
من المستشرقين تتعاطف معها ثم اعترفت
بالأثر الحضارى فى حصار الغرب من هؤلاء
كارلايل ونلليانو وفيديمان وأخيراً سكريد
هونكه وكبريالى ورزيتانو وشاخت ،
وسير هملتن كب واربرى وبوزورت من
القرن العشرين .

ومن أخذ شهرة جورج سارتون عندما
كتب المدخل إلى تاريخ العلم وأعطى أهمية
للعلوم العرب بالمقارنة مع تاريخ العلوم عند
الأمم الأخرى وخرج بمنهج أدى إلى إبرار
تفوق العلم العربى على غيره فى الفترة الواقعة
بين منتصف القرن الثامن الميلادى ونهاية

القرن الرابع عشر^(١) وأبرز رواد البحث
العلمى فى ثرائنا وسمى فترات التطور
العلمى بأسماء عاش أصحابها فى العالم
الإسلامى ودونوا مؤلفاتهم باللغة العربية مثل
عصر جابر بن حيان وعصر الخوارزمى
وعصر الرازى^(٢) .

ولاشك أن الحضارات تأخذ من بعضها
وتستفيد من تجارب الأمم الأخرى فى
مختلف العصور وتباين المعارف وحضارتنا
جزء من الحضارة العالمية وماتوصل إليه
علمائنا جزء لا يمكن فصله عن تحارب
ونائج السحت عند علماء الأمم وبخاصة
اليونان والهند وبلاد فارس بعد أن نقل
العرب علوم الحضارات الأخرى إلى العربية
ومن ثم أخذت أوروبا ما عندها وترجم إلى
اللغة اللاتينية بمختلف المعارف العلمية
والأدبية ورغم الموقف السلبى مما فى حضارتنا
من إبداع وخلق وإضافات وإصلاح أغلاط
ومناقشة للآراء للوصول إلى الحقيقة العلمية
المجردة لأن العلماء كانوا صادقى الرغبة
فى الاستفادة من الحضارات التى سبقتهم

(١ و ٢) تاريخ العلوم عند العرب ص ٦٠ و ٦٥ للدكتور عبد الحميد صبرة .

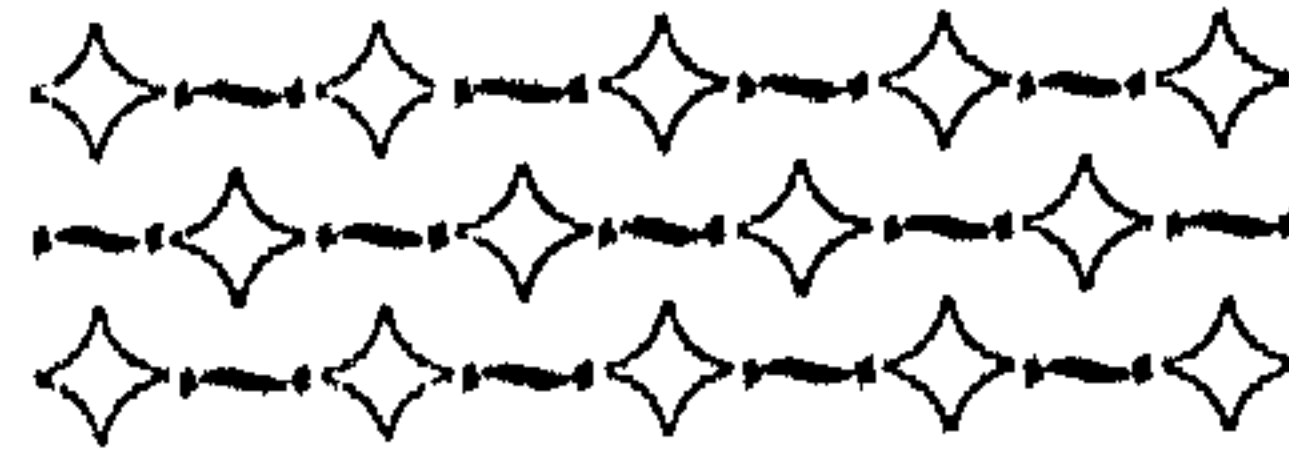
وعاصرتهم بداية من الآشوريين والبابليين الذين أسسوا العلوم وأسجبوا الحضارة العالمية الأولى وأثروا في كل من جاء بعدهم كاليونان والسريران والفرس والهند وبلغت الحضارة العربية والإسلامية مرحلة النضج العلمي بعد هضم مراحل التطور العلمي للأمم الأخرى ووصلت إلى نتائج علمية ، وفكرية متقدمة في الفحص والدراسة .

أخذ العرب الحساب عن اليونان ولكنهم أضافوا إليه^(١) دون جهل للحساب الستيني البابلي الذي أخذته اليونان منهم بما فيه من خليط من جذور وأصول قديمة وبخاصة

نطبق النظام العشري على الأعداد الصحيحة والكسور على السواء بالإضافة إلى استخدام لأرقام الهندية ، ولا شك أن الكاشاني قد اهتمدى فيه إلى حساب الكسور الستينية^(٢) فقد سبق ظهور هذه الكسور في أوروبا حوالي مئتي عام^(٣) ومثلها في الجبر الذي لا شك في أنه عربي بأسلوبه وطريقته واسمه ، ولا يعرف في اليونان سبق له ، وكتاب الخوارزمي دليل واضح على هذه الأصالة ، ثم أضاف إليه العلماء المسلمون فيما بعد إضافات أبرزته كالكرجي والخيامي والطوسي .
والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

يوسف عز الدين

عصر المجمع المراسل (من العراق)



(١) تاريخ العلوم عند العرب ص ٦٠ .

(٢) المصدر السابق ص ٦٥ .

العلاقات الثقافية بين القاهرة وتونس من خلال رسائل الزبيدي صاحب العروس للأستاذ أبو القاسم محمد كرو

المولى وثيقة أخرى غير تلك الإجازة التي أتحفنا بها الشيخ العباسي وثيقة من نوع مختلف وتصنيفها مجموع خطي نفيس كان تأليفها ومغموه في مكتبتي الخاصة . وقد تعلّنتني عنه الشواغل الكثيرة والغفلة والنسيان .

يتضمن المجموع مختارات عديدة من الرسائل والإحارات والأشعار اختارها وسخها بقلمه عالم مغربي مغموه^(١) . كان مقيماً بتونس عام كتابتها ١٢٤٤ هـ وهذا المجموع هو أقرب ما يكون إلى تأليف أدنى ، وإن لم يوضح ذلك حامعه .

على أن أهم قسم في هذا المجموع هو القسم الثاني الذي تصمن عشرات الرسائل الشخصية الخاصة الذي كتبها الزبيدي إلى صديق له بتونس عرف في عصره بالعلم والصلاح والتقوى وكان مقعداً ملاماً لسقيفة بيته وهو الشيخ أحمد بن عبد الله

لعل أكثرنا ما زال يذكر ما أتحفنا به [الشيخنا] البعثة الجليل سيدي محمد الفاسي في الدورة الثالثة والخمسين . من بحث قيم عن العلاقات العامة الوطيدة والعميقة بين الشيخ العلامة مرتضى الربيعي صاحب تاج العروس - وبين علماء المغرب وخاصة منهم علماء فاس ، وبينهم العلامة ابن مالك عبد الواحد بن محمد الفاسي الذي أحازه الربيعي فكانت إجازته موضوع البحث المذكور .

وقد تبسط شيخنا الفاسي في ترجمة جده ابن مالك وفي الحديث عن الربيعي وعلاقاته الواسعة مع علماء المغرب الأقصى مما يؤكد أهمية تلك العلاقات التي هي جانب واحد في جوانب التواصل العلمي بل الوحدة الثقافية والمغوية بين المشرق والمغرب .

ومن حسن الصدف أن اكتشفت في العام

(١) يدعى عبد القادر بن عبد القادر بن الزين المغربي الحالدي الميموني كان حياً عام ١٢٤٨ هـ

المسوسى أحد علماء تونس فى القرن الثانى عشر ومطالع الثالث عشر هجرى

ومعلوم أن الزبيدى قد توفى بالطاعون عام ١٢٠٥ . أما صاحبه التونسي فكانت وفاته بعد الزبيدى بثلاث سنوات ١٢٠٨ هـ وأن بغاسة هذه الرسائل تتمثل فى

أولاً : أنها صادرة من الشيخ الزبيدى نفسه إلى واحد من علماء تونس فى أيامه .

ثانياً . أنها تتناول جوانب عديدة من حياة العصر العلمية والسياسية والاقتصادية كما فهمها وناجى بها الزبيدى خليله وصاحبه التونسي .

ثالثاً : أنها توضح جوانب مختلفة من العلاقات الثقافية بين القاهرة وتونس ، وأيضاً بين المغرب والمشرق ، خلال القرن الثانى عشر ، وذلك بما تتحدث عنه من شئون وشجون تتصل بالأدب والكتب وما كان بين العلماء من تباين واهتمامات علمية وإنسانية .

رابعاً : أنها توضح ، ولأول مرة ، حواشٍ طريفة وخاصة جداً من حياة

الزبيدى العائلية والشخصية لم يذكرها - فيما نعلم - أقرب تلاميذه المتصلين به وأكثرهم معرفة بخصوصياته وهو المؤرخ الشهير عبد الرحمن الجبرتي الذى ، وإن حدثنا عن زوجة الزبيدى الأولى والثانية فإنه أكد أن الزبيدى لم يرزق أولاداً ولكن الزبيدى يتحدث فى رسائله بأن الله قد رزقه ولداً وأنه سماه « عبد الله » تيمناً باسم والد صديقه المسوسى ، لما كان عليه هذا التونسي من صلاح وتقوى حملت الزبيدى على أن يلتبس منه - فى معظم الرسائل - البركة والدعاء له ولابنه ولزوجته الأولى - أم ولده - وأن يستجيزه أيضاً لنفسه ولابنه

وفى هذا الجانب وحده ما يبرهن على طرافة هذه الرسائل وأهميتها التاريخية والأدبية .

وخلافاً لما تحدثت عنه المصادر المشرقية ، وخاصة تاريخ الجبرتي ، من تهافت المغاربة - علماء وأمراء وعامة الناس - على الزبيدى طلباً لبركته والتماساً لرضاه ودعواته ، حتى رعم الجبرتي بأن الحجاج المغاربة كانوا يعتقدون أن حجهم يظل ناقصاً إذا لم

سروروا الشيخ الزبيدي ليمنحهم رضاه
ربركنه .. إخلافاً لهذا الرعم فإن رسائل
الزبيدي تكشف لنا عن تهافته وخضوعه
يل سد إحتاجته أحياناً من هذا العالم
لتونسي المغربي الذي لم يكن في عصره من
لعلماء الدارين ، كما لم يترك أثراً علمياً
احداً .

كذلك تكشف لنا رسائل الزبيدي عن
وقوف مماثل نحو أمراء تونس البابات ،
كيف كان الزبيدي يبعث إليهم - من
للقاء نفسه - الهدايا النفيسة وقصائد
المديح وإجازاته العامية - في حين يذكر
هو نفسه مواقف معاكسة نحو أمراء مصر
صدور الخلافة الذين - كما يقول - كان
رفض هداياهم .

مهما يكن من أمر ، فإن عدد هذه
لرسائل - على اختلاف حجتها - يتجاوز
أخمس مائة رسالة ، وهي تقضي زهاء العشر
سنوات الأخيرة من حياة الزبيدي ، وهي
اتجاه واحد أي من الزبيدي إلى صديقه
لتونسي إذ يبدو أن صاحبه التونسي لم

يحتمل لنفسه بنسخة من رسائله للزبيدي .
ونظراً لوقتنا المحدود ، ولأنني أقوم
حالياً بتحقيق مفصل لهذه الرسائل تمهيداً
لطبعتها . فإني أكتفي هنا بتقديم معلوماتين
جديلتين مما تضمنته هذه الرسائل كدليل
على أهميتها مع ماحق به صفحة من رسالة
هامة :

المعلومة الأولى تؤكد أن الزبيدي - كما
تحدث في رسائله أكثر من مرة - قد رزقه
الله ولداً بعد طول انتظار ويأس ، وأنه
سماه - كما أشرت سابقاً - عبد الله .
وها هو يتحدث عنه فيقول^(١) :

« ... وذكرت لكم في الكتاب الذي
قبل هذا من قبل ولدي عبد الله ، فقد
تزايد لي في ليلة سبع وعشرين من شهر
رمضان من شهر سنة ١١٩٤ م وسميته
باسم والدكم المرحوم تبركا به ومحبة إليه
وكنيته أباً المفضل ، أسأل الله العظيم أن
يجعله باراً بوالديه عالماً عاملاً محدثاً ،
صوفياً . ولقد جاعني بعد أن يشت
وطرق المشيب المفارق ... فأحييت أن

تشرفوه بالإجارة يسمو بها بين الأنام
وتنعميمه بحملها يحفظ من صـوارف
الأيام . . . »^(١) .

ولكن هــذا المولود لم يعيش طويلاً في
إحدى رسائله عام ١١٩٦ هـ يخبر بوفاته
وبمكان دفنه وحرزه عليه حزناً شديداً حتى
بنى قبرين حول قبره ، واحداً له والآخر
لزوجته التي توفيت بالفعل عام ١١٩٨ هـ
كما سجل ذلك الجبرتي وأكدته لما رسائل
الزبيدي مع تفاصيل أخرى .

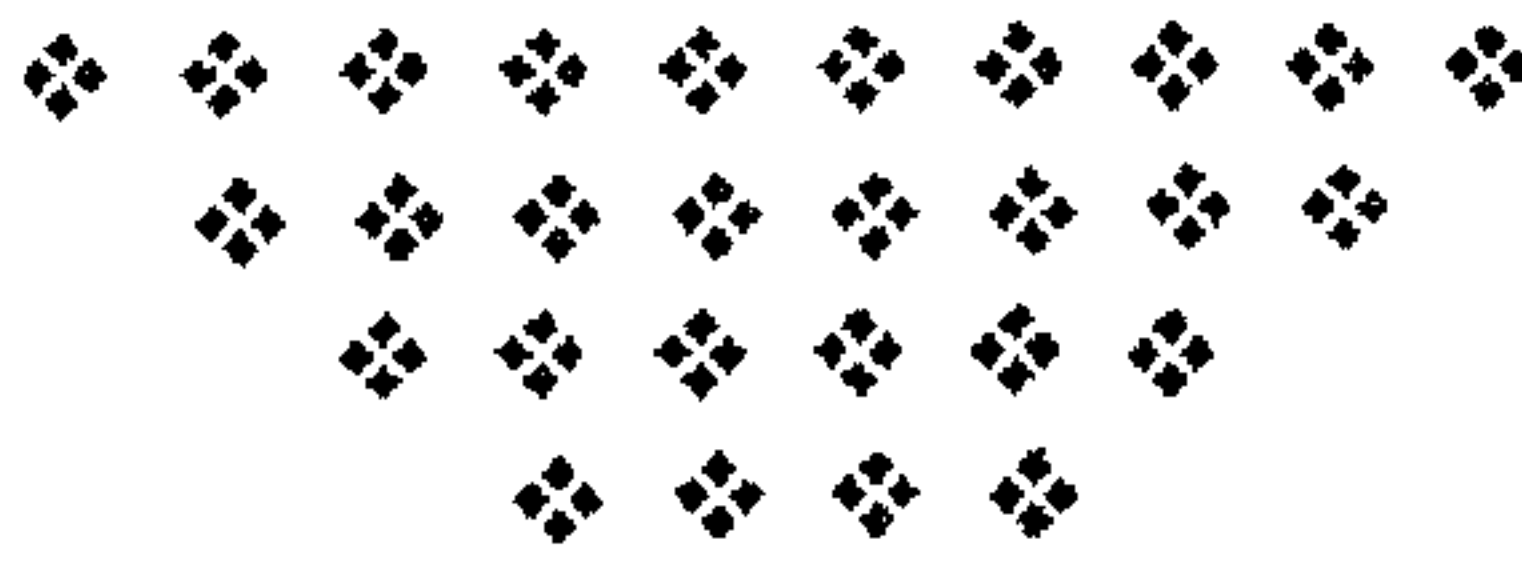
والمعلومة الثانية : أن الزبيدي كان يحب
الشكلاطة ويبدو أنها لم تكن معروفة في
القاهرة . وكان صديقه التونسي يرسل
له منها باستمرار ، ربما كل شهر ، حيث

كان تبادل الرسائل بينهما شهرياً وعلى
مدى عشر سنوات في رسالة متأخرة
شكر الزبيدي صاحبه التونسي على مختلف
الهدايا وتذكره كذلك على الشكلاطة وعلى
الآلة الخاصة بصنعها والتي كانت مع
الهدايا .

على أن لزيدي كان بدوره يهدي صاحبه
رسائل من الشرق وبالكتب التي يظاها .
ويتحدث إليه عن كثير من شحوته وعن
أبحاثه العلمية وعن كل قسم أو جزء يكماه
من شرحه لكتاب إحياء علوم الدين

رحم الله الجميع وأفادنا بعلمهم وتراهم .

أبو الفاسم محمد كرو
عصو المجمع المراسل من تونس



(١) باقى الرسالة فى الملحق .

على حب الله تعالى وحبيب النبي صلى الله عليه وآله وسلم والحقائق
 والعبادة والاجتماع طريقتا الديار ولا سيما الخطاب على المستوحشين النجوى
 واليه انتهى الى هذا الحق المختار بعد قيام غزوة واداء وصيعة شكره عسى ان يجمع
 شمله مع هذا العلم ويكشف عن ركن من ركن الوفاء في الاثبات والحق صيدان
 وان يشر من عوكر تكميل الفصول وانفسيلنا ومنت كلمات ركب صغائر عن الله والاسماء
 هم وغاية هذا السبيل وذكر من في الاقطاب النوراني من قبله من قبله عبد الله
 عظيم في ابي في ليلة سبع وعشرين من شهر رمضان من شهر ١١٩٤ هـ ومميتة
 يدسم والبركة المحمودة تير كلبه ومحبته اليه وكنيته ابا الفضل اسرار الله العليم
 ان يجعله بار ابراهيم علم على ملا عبد الله صوفي وفسر حيايته بعد ان ياتى
 وحرفها الحشيب المعارف والتم التزير وعلا القيس جاحيفت انا تشرعوه بالاجازة
 بيسمويها ينزل الله ونجته بجمعها من صوارب الاديان وتلا حذو الله
 كنز الله الاجازة من احبته من علماء الابدان من رسله وآثاره واثار اصله
 كبرى هذا الكتاب الى حفرته بنسخة صغيرة كتبت جمعها على سائر علماء السلوك على
 مشرب الكارمية النفسانية برفع الله بهم تشرع بعلوم انفسهم على
 وسيرة خضر آء وطرفية بفضله ليح الاقلال بكنز من الحوشتين المسلمين
 بمنازلة اولى وتبصر الشانين ولا تواتر حروفه في قلته اراوبه على حب
 والحب دايم في مقام الادلال بين التذلل والتذلل نفقة يختار به العالم النجوى
 وعيسى رتبة من مقامه في مقام تنم نعمة من بوب كعب تذكر الانعام عذرا للمقام
 على من ارايهم وانتم في حكمة الله العليم وصلى الله على سيدنا محمد وآله
 وعلمه وكتبه ما هو حرام وكل ركب في ليلة الاثنين من شهر ربيع الاول

١٩٥

الإطار التاريخي لسورة براءة للكاتب حسين مؤنس

بعام هجري على وجه التقريب ، فهي ترتبط
كذلك كل الارتباط بغزوة تبوك التي
كانت في رجب وشعبان سنة ٩ هجرية -
(أكتوبر - ديسمبر سنة ٦٣٠ ميلادية)
وعندما نقرأ السورة وندرس الظروف التي
وقعت فيها غزوة تبوك ندرك تمام الإدراك
أن الله سبحانه وتعالى بعث رسوله في هذه
الغزوة اختباراً للمجتمع المدني وبياناً لأحواله
وعيوبه ووجوه التقى فيه لتجىء سورة التوبة
بعد ذلك حداً فاصلاً بين العصر الذي كان
يباح فيه للعربي أن يبقى على الجاهلية ،
والوثنية أو يدخل الكعبة . فإن السورة
نفسها تبدأ بوضع الحد الفاصل بين
العصرين وذلك في آياتها الأولى :

« بَرَاءَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ
عَاهَدْتُمْ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ * فَسَمِّحُوا فِي
الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ شُهُورٍ وَعَلِّمُوا أَنْكُمْ غَيْرُ

يذهب الكثيرون من علماء القرآن
الكريم والمفسرين إلى أن سورة براءة
أو التوبة ، وهي التاسعة من سور المصحف
المتداول هي آخر سورة كاملة أنزلت على
رسول الله ﷺ ويقولون : إنه أنزلت
على رسول الله بعد براءة آيات كثيرة
دخلت في سور أخرى ، والعامل الرئيسي
الذي يجعل العلماء يقولون ذلك هو :
ارتباط هذه السورة الشديد بغزوة تبوك
التي بدأت السورة تنزل على رسول الله
وهو عائداً منها ، واتصال آياتها الوثيق
بحوادث تلك الغزوة وما وقع فيها .

وإذا كانت سورة براءة أو التوبة تتميز
في مجموعها بوحدة الموضوع ، فكل آياتها
تدور حول أحوال المدينة خلال العام التاسع
للهجرة وبيان العيوب التي كانت في ذلك
المجتمع قبل انتقال الرسول إلى الملا الأعلى

مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ *
وَأَذَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ
الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ
وَرَسُولُهُ فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِنْ
تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ
وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ *
إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ
يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ
أَحَدًا فَلَتَبْتُمُوهُمُ إِلَيْهِمْ عَاهِدُهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ
إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ » .

ثم يلي ذلك أمر من الله بالحرب على
المشركين وضرورة قتالهم حتى يتوبوا عن
الكفر ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة ،
فإذا هم فعلوا ذلك توقف المسلمون عن
قتالهم .

«فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرْمُ فَاقْتُلُوا
الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ
وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصِدٍ فَإِنْ
تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا
سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ » .

وهذا في ذاته حادث فاصل في تاريخ
الدعوة الإسلامية ، وإذا نحن تأملناه ملياً
تبييناً لماذا نزلت هذه السورة بعد غزوة
تبوك ، فإن غزوة تبوك آخر الغزوات

التي قادها رسول الله ﷺ ، وقد سبق
له أن قاد حوالي أربعاً وعشرين غزوة ،
أما رقمها بين كل العمليات الحربية التي
قادها رسول الله ﷺ فهو تسعة وثمانون ،
وتبقى بعد ذلك بالإحصاء الدقيق سبعة
أعمال عسكرية سيبحث بها رسول الله ﷺ
خلال العام الأخير من حياته .

ولا ينبغي أن يهولنا ذلك العدد من
الغزى والسرايا والبعوث فإن رسول الله
منذ نزل المدينة سنة ٦٢٢ ميلادية رسم
خطته على العمل على تحويل المدينة إلى
قاعدة الإسلام ، واستخدام هذه القاعدة
في نشر الإسلام في جزيرة العرب كلها ،
وإعدادها لفتح العالم كله بعد ذلك وسار
في عمله بوحي من الله طبعاً . بنظام دقيق
وجهد بالغ .

وفي سياق هذا الجهد تحتل غزوة تبوك
مكاناً فاصلاً ، فهي الغزوة التي تعين نهاية
الجهود لإدخال الجزيرة العربية كلها في
الإسلام وتلى ذلك أعمال مكمل لفتح
الجزيرة العربية وإدخالها كلها في الإسلام
وستبدأ مرحلة نشر الإسلام خارج الجزيرة
بعد وفاة الرسول ﷺ وانتهاء أبي بكر
من حروب الردة .

وغزوة تبوك تبدو لنا وكأن الله سبحانه أراد بها أن تكون إشعاراً بهذا التطور في مسيرة الدعوة الإسلامية ، وبعض المراجع تذكر أن رسول الله خرج بها في وقت عسرة وهو يظن أن الروم أعدوا شيئاً ضد الإسلام في الجزيرة وهذا غير صحيح ، ولا جائز في السيرة النبوية ، فإن الروم لم يعدوا شيئاً ، وهذا واضح من كلام - الواقدي وهو مرجعنا الأكبر في كل ما يتعلق بالمغازي فقد قال هنا ج ٣ (ص ٩٩١ - ٩٩٢) والتفاصيل التي لدينا تدل على ذلك فقد ذكر الواقدي بعد ذلك بقليل (ص ٩٩٢) كلاماً يدل على أن رسول الله ﷺ مع عظيم استعداده لهذه الغزوة إلا أنه كان يعرف أن الروم لم يعدوا في الحقيقة شيئاً لغزو الجزيرة العربية .

ولهذا فهو لم يخف وجهته ، بل أعلنها صراحة لكي تعرف القبائل العربية أنها تسير إلى غزوة خطيرة فيكون ردها على إنذار النبي ﷺ دليلاً على إيمانها أو ضعف إيمانها ، ويكون ذلك كما يتجلى من سورة براءة مناسبة لدرس من الله سبحانه للمسلمين ، وهذه الدروس قائمة على تفاصيل تحريبتهم الكبرى في غزوة تبوك ، وهذا هو الذي

نريد أن ننص عليه في هذا البحث ونزيده وضوحاً بالتفاصيل . وأعتقد أن هذه واحدة من أظهر المناسبات التي تدل على أن السيرة النبوية في مجموعها كانت درساً أو دروساً عظيمة للمسلمين لا في العصر النبوي فحسب ، بل في تاريخهم كله بعد ذلك .

وهذا النظر إلى غزوة تبوك وسورة براءة نظر حديد لم يتنبه له السابقون من المفسرين القدماء الذين تعودوا على أن ينظروا إلى الحوادث على أنها مجرد حوادث لا يرتبط بعضها ببعض بروابط تاريخية ودينية وأخلاقية ، وهذا في ذاته حال بينهم وبين أن يستخرجوا الدروس العظيمة التي تتضمنها سورة التوبة ، فهم دائماً مشغولون بالجزئيات والتفاصيل . وعلى هذا الضوء نرى أن غزوة تبوك ذاتها كانت مناسبة أرادها الله سبحانه ليضع أمام المسلمين قواعد واضحة لعصر جديد سيدخل فيه الإسلام والمسلمون بعدها ، وهذا في ذاته يعيننا - أولاً - على فهم تفاصيل غزوة تبوك ويمكننا - ثانياً - من فهم آيات سورة التوبة وما تتضمنه من الحكم والتوجيهات التي تتضمنها تلك السورة .

والآن فلننظر إلى غزوة تبوك بإيجاز :

سبقت غزوة تبوك سبع سرايا كلها في سنة ثمانية هجرية وأوائل سنة تسعة هجرية وكلها كانت بعد إرسال رسول الله ﷺ للمصدقين في الحرم سنة تسع هجرية.

والمصدقون هنا لم يكونوا حكاماً كما يظن بعض المؤرخين وإنما كانوا مشرفين على إسلام الناس وإخراجهم الصدقات ، ولكن المؤرخين جعلوهم حكاماً أو ولاية سياسيين وما كانوا بذلك ، فعباد بن بشر الأشجلى الذي أرسل إلى قبيلتي سليم ومزينة لم يكن حاكماً لهم ، بل لم تكن له أية سيطرة على القبائل إنما كان ممثلاً للإسلام في تلك القبائل ومعلماً للناس ومبيناً لأصوله ومشرفاً على إخراج الزكوات

وتفاصيل غزوة تبوك سندنا كاملة بفضل الواقدي الذي أتانا بها في كتاب مغازيه الذي نشر كاملاً منذ سنوات ، وهذه التفاصيل تعطينا - إذا جمعت ودُرست - تفصيلاً دقيقاً لأحوال المدينة المنورة في السنة التاسعة للهجرة .

والناس عندنا يعتقدون أن المجتمع

المدني - بعد تسع سنوات من قيادة الرسول - قد أصبح مجتمعاً مثالياً . ولا عيب فيه . ولكن التفاصيل التي لدينا لا تدل على أن كل أهل المدينة كانوا قد دخلوا الإسلام وآمنوا به ، بل كان هناك الكثيرون من المنافقين والمستهزئين ، وسورة براءة التي نزلت بعد ذلك تؤكد ذلك وتري المسلمين كيف كان تصرف الرسول مع هؤلاء - الأعداء على مستوى رفيع جداً من الإنسانية وبعد النظر .

والقرآن هنا يؤكد ذلك كله ويشرح للمسلمين طريق التصرف مع كل طراز من أولئك الأعداء .

لأن المنافقين مثلاً لم يكن هناك أمل في إصلاح أحوالهم ، ولكن معاملتهم لا تكون بالعنف والقسوة ولكن بالصبر والحكمة كما نرى في مثال الجند بن قيس الذي كان مرة ظهر نفاقه ، أي إظهاره للإسلام بالمسلمين بالكذب والتظاهر بالإيمان بها - نفاقه هنا - أي أثناء استعدادا تبعدو بصورة واضحة جداً يحكيها لنا .

وقال رسول الله ﷺ للجند بن قيس : أبا وهب ، هل لك العام تخرج معنا لعلك

تحتقب^(١) من بنات الأصفر ؟ فقال
الجد : أَوْتَأْذَن لِي وَلَا تَفْتِنِّي ؟ فوالله ،
لقد عرف قومي ما أحدٌ أشدَّ عُجْبًا بالنساء
منى ، وإنى لأخشى إن رأيتُ نساء -
بنى الأصفر لا أصبر عنهن . فأعرض عنه
رسول الله ﷺ فقال : قد أذنتُ لك !
فجاءه ابنه عبد الله بن الجد - وكان
بذرياً ، وهو أخو مُعَاذ بن جَبَل لأمه -
فقال لأبيه : لِمَ تردُّ على رسول الله ﷺ
مقالته ؟ فوالله ما فى سَلِمةٍ أكثرَ مالا
منك ولا تخرج ولا تحمل أحداً ! قال :
يا بُنَيَّ ، مالى وللخروج فى الريح والحر
والعسرة إلى بنى الأصفر ، والله ما آمن
خوفاً من بنى الأصفر وإنى فى منزلى -
بخُرْبَيَّ ، فأذهب إليهم فأغزوهم ، إننى
والله يا بُنَيَّ عالمٌ بالدوائر ! فأغلظ له
ابنه ، فقال : لا والله ، ولكنه النفاق ! والله ،
ليُنْزِلَنَّ على رسول الله ﷺ فىك قرآنٌ
يقرأونه . قال : فرفع نعلَهُ فضرب بها
وجهه ، فأنصرف ابنه ولم يكلمه . وجعل
المُخْبِثُ يُتَبِّطُ قومه ، وقال لجَبَّار بن صخر
ونفِرٍ معه من بنى سَلِمة : يا بنى سَلِمة ،
لا تَنْهَرُوا فى الحرِّ . يقول : لا تخرجوا
فى الحرِّ زهادةً فى الجهاد ، وشكاً فى الحقِّ

وإرحافاً برسول الله ﷺ . فأنزل الله
عزَّ وجلَّ فيه : « وَقَالُوا لَا تَنْهَرُوا فى
الحرِّ » إلى قوله : « جَزَاءٌ بِمَا كَانُوا
يَكْسِبُونَ »^(١) . وفيه نزلت : « وَمِنْهُمْ
مَنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِي وَلَا تَفْتِنِّي .. »^(٢) الآية ،
أى كأنه إنما يخشى الفتنة من نساء
بنى الأصفر ، وليس ذلك به ، إنما تعذر
بالباطل ، فما سقط فيه من الفتنة أكثر ،
بتخلُّفه عن رسول الله ﷺ ورغبته بنفسه
عن نفسه . يقول الله عزَّ وجلَّ : « وَإِنَّ
جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ » يقول : إنَّ
جهنمَ لَحِجْرٌ ورائه ، فلما نزلت هذه الآية
جاء ابنه إلى أبيه فقال : ألم أقل لك إنَّه
سوف ينزل فىك قرآنٌ يقرأه المسلمون ؟
قال : يقول أبوه : اسكُتْ عني يا لُكْعُ !
والله ، لا أنفعك بنافعة أبداً ! والله لأنت
أشدُّ على من محمَّد !

وتؤكد ذلك سورة التوبة أو براءة فى
الآية ٤٩ وما يليها ، والسورة هنا تفصل
أمر هذا المنافق وتوضح دخائل المنافقين
بصورة عامة وترى المسلمين أنهم - أى
المنافقين - فى الحقيقة أشرار وأشقياء
بشرهم ولا فائدة فى استعمال القوة معهم ،
لأنهم هم أنفسهم يشعرون بخرج مركزهم

فى المجتمع الإسلامى المؤمن ، ولكنهم لا يعرفون كيف يتصرفون . بل إن السورة توضح لنا موضوع الصدقات وفيما تصرف فى الآية ٦٠ وهى آية معروفة ومشهورة ، وهى تتضمن كذلك تفاصيل تكشف عن بعض الفضائل الإنسانية التى يتميز بها الإسلام وتلى ذلك (الآية ٦١) صورة للأذى الذى كان رسول الله ﷺ يتحمله من أولئك المنافقين الذين كانت كراهيتهم للإسلام وخوفهم من المسلمين تؤدى بهم إلى الوقوع فى أخطاء جسيمة ، ولكن الله ينصح المسلمين بالصبر عليهم ، ويكفى أن لهم عند الله عذاباً أليماً : « إِنَّمَّا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ » .

(التوبة ٩ / ٦٠)

« وَمِنْهُمْ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنٌ خَيْرٌ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ »

(التوبة ٩ / ٦١)

وتفاصيل غزوة تبوك كما يروها هنا الواقدي وغيره تريدنا كيف أظهر المؤمنون الصادقون - وهم غالبية أهل المدينة - من حقائق إيمانهم واستعدادهم الكامل للبذل فى سبيل الإسلام ما يؤكد لنا بأجلى صورة كيف نجح رسول الله ﷺ فى إنشاء مجتمع من المؤمنين الذين يتصرفون رجالاً ونساءً على أعلى مستوى من الإيمان والاستعداد للبذل فى سبيل الإسلام ، كما نرى فى قول الواقدي فى ص ٩٩١ : (وحض رسول الله ﷺ المسلمين على القتال والجهاد ، ورغبهم فيه ، وأمرهم بالصدقة ، فحملوا صدقات كثيرة ، فكان أول من حمل أبو بكر الصديق رضى الله عنه ، جاء بماله كله أربعة آلاف درهم ، فقال له رسول الله ﷺ : هل أبقيت شيئاً ؟ قال : الله ورسوله أعلم ! وجاء عمر رضى الله عنه بنصف ماله ، فقال له رسول الله ﷺ : هل أبقيت شيئاً ؟ قال : نعم ، نصف ما حشيت به . وبلغ عمر ما جاء به أبو بكر فقال : ما استبقنا إلى الخير قط إلا سبقنى إليه . وحمل العباس - ابن عبد المطلب عليه السلام إلى رسول الله ﷺ مالا ، وحمل طلحة بن عبيد الله

إلى النبي ﷺ مالا؛ وحمل عبد الرحمن ابن عوف إليه مالا، مائتي أوقية، وحمل سعد بن عبادة إليه مالا، وحمل محمد ابن مسلمة إليه مالا. وتصديق عاصم ابن عدي بتسعين وسقاً تمرًا. وجهز عثمان ابن عفان رضي الله عنه ثلث ذلك الجيش فكان من أكثرهم نفقة، حتى كفى ذلك الجيش مؤونتهم، حتى إن كان ليقال: ما بقيت لهم حاجة! حتى كفاهم شناق^(١) أسقيتهم فيقال: إن رسول الله ﷺ قال يومئذ: ما يضر عثمان ما فعل بعد هذا

ورغب أهل الغنى في الخير والمعروف، واحتسبوا في ذلك الخير، وقووا أناس دون هؤلاء من هو أضعف منهم، حتى إن الرجل ليأتى بالبعير إلى الرجل والرجلين فيقول: هذا البعير بينكما تتعاقبانه^(٢) ويأتى الرجل بالنفقة فيعطيهما بعض من يخرج، حتى إن كن النساء ليعلن بكل ما قدرن عليه.

والقرآن الكريم يؤيد ذلك في الآية

٧١ من سورة التوبة حيث يقول سبحانه وتعالى. «وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ» ويقول سبحانه بعد ذلك في الآية التالية (٧٢): «وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِينَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ»

وكلنا نعرف أن القرآن الكريم نزل منجماً على أساس حوادث من الواقع حتى يكون الواقع مؤيداً لما يرد في القرآن.

ويندر فعلاً أن يلتقي الواقع كما كان في عصر الرسول مع آيات معينة في القرآن الكريم مما يؤكد ما سبق أن قلناه من أن غزوة تبوك كانت في الحقيقة مقدمة من الواقع الذي كان المسلمون يرونه ثم جاءت

(١) شناق: جمع شناق، وهو الخيط أو السير الذي تعلق به القرية، والخيط الذي يشد به فمها. (النهاية ج ١، ص ٢٣٩).

(٢) في الأصل: «تتعاقبانه».

آيات سورة براءة لتريهم حكم الله سبحانه على أهل الإيمان وأهل النفاق ، وتأتى بعد ذلك توجيهات من الله سبحانه لرسول الله تتضمن القواعد التى ينبغى أن يسمير عليها الرسول والمؤمنون حيال أولئك الكفار والمنافقين . ومن الواضح أن هذا الطراز من أهل الكفر والنفاق سيوحد في كافة المجتمعات الإسلامية بعد ذلك وإن هذه الآيات الموجهة هنا إلى رسول الله ﷺ تتضمن أحكاماً أساسية ينبغى أن تطبقها الجماعات الإسلامية مع من فيها من الكفار والمنافقين ، وبُرد بالكفار هنا الوثنيون الذين لا يؤمنون بالله سبحانه ، كذلك المنافقون الذين يتظاهرون بالإسلام وما هم بمؤمنين ، أما غير المسلمين من أهل الكتاب فلهم أحكام أخرى لها مكانها المعروف في كتاب الله ونخرج هنا بتوكيدات لموضوع هذا البحث وهو أن سورة براءة أو التوبة ترسم لنا إطاراً للحياة في المدينة المنورة بعد تسع سنوات من جهاد الرسول صلوات الله وسلامه عليه ، وهذا الإطار ينطبق على أحوال المجتمعات الإسلامية فيما بعد . أى أننا هنا أمام تشريعات إسلامية أساسية تصديق في كل زمان ومكان ، وموضع

الأهمية هنا أن لدينا غزوة معروفة التفاصيل وهي غزوة تبوك ، وتفاصيل هذه الغزوة ترسم الظروف التى نزلت فيها أحكام إسلامية في حالات المنافقين والكافرين والذي سراهنا مقال نادر من تطابق الواقع مع أحكام القرآن الكريم وهذا طبعاً موجود في مناسبات أخرى من واقع الحياة أيام الرسول وأحكام الإسلام بشأنها . ولكننا هنا أمام مثال نادر من التطابق ، فإذا كانت تفاصيل غزوة تبوك هي الواقع فإن سورة التوبة تتضمن الأحكام الإسلامية التى ينبغى أن يطبقها المسلمون في مثل هذه الحالات ، ويحكى الواقدي هنا - (١٠٤٢-٣) حكاية تدل على سعة صدر رسول الله ﷺ والتزامه بأحكام الإسلام حتى في أخطر الظروف ذكر الواقدي (ص ١٠٤٢ - ١٠٤٣ - ١٠٤٤) كيف أن نفرًا من المنافقين ائتمروا أن يطرحوه من عقبه في الطريق ، والنص يتتبع فعلاً أنهم حاولوا ذلك ولم يوفقوا فيه ، ونحن نرى هنا أن الرسول عرفهم فرداً فرداً ، وكان يستطيع عقابهم ولكنه رأى أن - يعاملهم بالحسنى أملاً في إصلاح أحوالهم ، بل إن أسيد بن حضير طلب إلى رسول

الله ﷺ أن يعاقبهم . فقال رسول الله ﷺ لأسيدي : إنني أكره أن يقول الناس إن محمداً لما انقضت الحرب بيده وبين المشركين وضع يده في قتل أصحابه ! فقال : يا رسول الله ، فهو لاء ليسوا بأصحاب ! قال رسول الله ﷺ : أليس يُظهرون شهادة أن لا إله إلا الله ؟ قال بلى ، ولا شهادة لهم ! قال . أليس يُظهرون أنني رسول الله ؟ قال : بلى ، ولا شهادة لهم ! قال : فقد نهيت عن قتل أولئك .

وأعتقد أننا مهما بحثنا فإننا لن نجد مثالا أبلى من هذا في بيان سعة صدر الرسول والتزامه بأصول الإسلام .

وفي سورة براءة عدد كبير من الآيات يدور حول المنافقين وأعمالهم وما ينتظرهم من العقاب ، ومع أن السورة كلها لاتزال تشير إلى المنافقين وتصف أعمالهم ، إلا أنها تقف منهم ومن كل ضعفاء الإيمان موقفاً حاسماً ومفصلاً ابتداءً من الآية السادسة والثلاثين التي تبدأ بقول الله سبحانه :

« إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ

وَالْأَرْضِ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرْمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ » .

ويبدو أن هذه الآية مدخل الآيات إلى تفصيل موقف القرآن الكريم من كل هذه الأصناف من ضعفاء الإيمان . فقد تحدثت السورة قبل ذلك عن اليهود والنصارى وبسطت بعض نقائصهم وسوء ما يؤمنون به وما يقولونه ، والقرآن الكريم يصف الأحزاب والرهبان ويبين بعض نقائصهم من وجهة نظر الإسلام .

ولكنه بعد ذلك مباشرة وابتداءً من الآية ٣٦ نفسها يبدأ في تحديد موقف الإسلام من هذه الأصناف من الناس . والكلام كله في هذه الآية وما بعدها مشغل بالأحكام ، وهي تبدأ بإحلال قتال من يقاتلون المسلمين في الأشهر الحرم ، ثم يتحدث عن النسيء وأهله (آية ٣٧) وبعد ذلك تبدأ الآيات في الكلام على الذين يتشاقلون عن الخروج للحرب في سبيل الله إذا دعوا إلى ذلك .

ويبدو أن المفسرين لم يفسروا تلك

الآيات التفسير الذى يبين ضرورة خروج المسلمين للقتال فى سبيل الله وما أعد الله من العقاب للذين لا يخرجون ، ويسدو أنهم مالوا إلى الأخذ بقول الله سبحانه فى الآية ١٢٢ من نفس السورة .

(وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ) .

وعلى أية حال فإن تفسير المفسرين لهذه الآية غير حاسم ولا مقنع لأن كل الآيات فيما عداها تنص على ضرورة الجهاد للقادرين عليه صحيحاً وعقلياً وإذا كان هناك من لا يجدون المال الكافى للنفقة على أنفسهم فلا بد أن يبذلوا غاية الجهد فى ذلك ولا بد كذلك من أن يجتهد القادرون فى إعانة غير القادرين . وهذا فيما أعتقد هو حكم القرآن فى ذلك الموضع الخطير

والواقضى نفسه يقول : ، تفسير هذه الآية فى الباب الذى أحققه منفصلاً عن غزوة تبوك وعنوانه : « ذكر ما نزل من القرآن فى غزوة تبوك ١٠٦٠ : » ما كان

المؤمنون إذا خرج رسول الله ﷺ فى غزوة أن ينفروا كلهم ويتركوا المدينة ولكن ينفر من كل قبيلة طائفة . يقول : بعضهم لينظروا كيف سير رسول الله ﷺ فى المشركين ويعوا ما سمعوا منه « وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ يَحْذَرُونَ » يعنى يخافون الله . وهذا تفسير غير كاف أو مقنع وعلى أى حال فإننا نعتقد أن هذه الآية وما قبلها وما بعدها إن كانت قد فسرت كما يسبغى أن تفسر لكان لذلك أثر بعيد جداً فى تاريخ الإسلام .

وقد لاحظ ابن كثير فى تفسيره لسورة براءة أن سبب غزوة تبوك يكمن فى قول الله تعالى فى سورة براءة :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِن شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ » (٩ - ٢٨) « قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى

يُعْطُوا الْجَزِيَّةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ (٢٩ / ٩) .

وضعف الناس كما سيأتى بيانه إن شاء الله تعالى^(١) .

فقد قال بعد كلام كثير . « وهذه الآية الكريمة نزلت أول الأمر بقتال أهل الكتاب بعد ما تمهدت أمور المشركين (يريد في جزيرة العرب) ودخل الناس في دين الله أفواجا فلما استقامت جزيرة العرب أمر الله رسوله بقتال أهل الكتابين اليهود والنصارى ، وكان ذلك في سنة تسع ، ولهذا دعا رسول الله ﷺ لقتال الروم ودعا الناس إلى ذلك ، وأظهره لهم ، وبعث إلى أحياء العرب حول المدينة فندبهم للخروج معه ، واجتمع من المقاتلة نحو ثلاثين ألفا ، وتخلف بعض الناس من أهل المدينة ومن حولها من المنافقين وغيرهم وكان ذلك في عام حذب ووقت قيظ وخرج عليه السلام يريد الشام لقتال الروم فبلغ تبوك ونزل بها وأقام على ماؤها قريبا من عشرين يوماً ثم استخار الله في الرجوع ، فرجع عامه وذلك لصيق الحال

وهذا الكلام وإن لم يكن كاملاً الصيحة في مجموعة يفتح لنا باباً واسعاً للكلام عن غزوة تبوك وعلاقتها بسورة براءة فإن ابن كثير يقول هنا . إنه بعد إسلام أهل الجزيرة جاءه أمر الله سبحانه بقتال المشركين من أهل الكتاب يهوداً كانوا أو نصارى ، ولم يقتصر الأمر هنا على قتال الروم وحدهم فقد كان من العرب في الشمال أقوام دخلوا في النصرانية أو حالفوا الروم فهم معدودون منهم .

قال الواقدي في الخبر الذي روى عن أن هرقل استعد لقتال المسلمين . (وهو الخبر الذي تبين بعد ذلك أنه غير صحيح : وإن هرقل قدرزق أصحابه لسنة واجلبت معه الخيول وحذام وعسان وعاملة وزحفوا وقدموا مقدماتهم إلى البلقاء وعسكروا بها وتخلف هرقل بحمص . ولم يكن ذلك ، إنما ذلك شيء قليل لهم فقالوه^(٢) .

(١) تفسير ابن كثير (٤ / ٧٤ - ٧٥) .

(٢) الواقدي ، مغازي ٣ - ٩٩٠ .

وإذن فلم يكن الروم وحدهم هم المقصودون بهذه العزوة ، وإنما قبائل عربية دخلت المسيحية وساروا مع الروم ، وقد ذكر الواقدي هنا لخمياً وجذاماً وعاملة فأمّا الثلاثة الأخيرة من هذه فكانت فيما عرف بعرب الروم أو نصارى العرب ، وهم قبائل عربية في مداخل الشام من فروع قضاعة ، وكانت قضاعة قد تفككت رضعف أمرها ، ومن أكبر ما تفرق منها جذام وغسان وعاملة وجهينة وباهلة وذات القين وغيرها . وكانت هذه القبائل تتفرق وتمتد حتى تقترب من المدينة المنورة ، وكانت تتعالى على بقية العرب وتحسب نفسها أرفع منها مكاناً ، وكان رسول الله ﷺ قد أدرك ذلك لأول دخوله المدينة فاتجهت همته إلى غزو جهينة التي كانت بلادها تمتد إلى شمال الجزيرة فسير إليها صاحبه عبد الله بن جحش في نفر من أصحابه فأتخافها ، وأعلنت رغبتها في محالفة المسلمين فطلبت أن يعطيها الرسول ميثاقاً بالأمان (أوثق لنا موثقاً) فأعطاهم عبد الله بن جحش الأمان الذي سألوا ، وهذه سرية لم يذكرها أصحاب المغازي وإنما جمعنا تفاصيلها من النصوص التي

بين أيدينا ، وفيها يقال إن عبد الله بن جحش كان أول من لقب بأمير المؤمنين ، أي أمير المقاتلين من المسلمين المؤمنين وهذه سرية سابقة على سرية سيف البحر التي تعد أول السرايا في كتب السيرة .

وبقيت من فروع قضاعة التي حلفت الروم قبائل كثيرة تمتد بلادها من شمالي خيبر إلى مداخل البلقاء وأهمها هي الثلاث المذكورة هنا (جذام وغسان وعاملة) وكان لا بد من إدخالها في الإسلام أو في عهده قبل غزو الروم وقد ورد هنا أيضاً ذكر لخم ، ولخم ، المأثور الشائع عندنا كانت في حلف الفرس وطاعتهم ومنهم كانت المناذرة ، ولكسنانرى هنا أن فريقاً من لخم كانوا نصارى ، وكانوا مع الروم وهؤلاء كانوا هم المقصودين في هذه العزوة .

وقد صرح الرسول أصحابه وأهل المدينة جميعاً ومن دخل في عهده من القبائل حول المدينة بوجهته حتى يعرف الناس أنهم يتوجهون إلى بلد بعيد وقتال شديد ، فلايزعم أحد منهم بعد ذلك أنه لم يعرف إلى أين كانت الغزوة ولكي يختبر المسلمين بذلك ، فمن الناس من تقعد به الإرادة

عن الحرب البعيدة لأنَّ إيمانهم لم يبلغ المبلغ المطلوب في الجهاد ، وقد حدث من هذا كثير ، وكانت تبوك من هذه الناحية اختباراً للمسلمين أولاً ثم وسيلة لبيان موقف الإسلام من هؤلاء .

وقد أظهر أغلب المسلمين - كما رأينا - إيماناً عظيماً وبذلوا أنفسهم وأموالهم في سبيل الله راضين سعداء .

وقد ذكر الواقدي أمثلة كثيرة من دلائل إيمان هؤلاء ، بل إنه يقف طويلاً عندما أظهرته المؤنات من كرم وسماحة وقال : « حتى إن النساء كنَّ يجدن بكل ما قدرن عليه قالت أم سفيان الأسلمية : قد رأيت ثوباً مبسوطاً بين يدي رسول الله ﷺ في بيت عائشة رضي الله عنها فيه مسكة (سورة من دئل^(١) أوعاح) ومعاصد وخلخل وأقرطة وخواتيم وخدمات مما يبعث به النساء يُعَنَّ به المسلمين في جهازهم والناس في عسرة شديدة »^(٢) .

ثم يحدثنا الواقدي بعد ذلك عن

اهتمام الرسول ﷺ بتنبيه المسلمين إلى أهمية هذه الغزوة وضرورة بذل أكبر الجهد فيها والإسراع في ذلك ، ثم رحل وصرب معسكره في ثنية الوداع (شمالي المدينة) ليلحق به من يريد اللحاق ، وقد لحق به الكثيرون جدا حتى بلغت عدة الجيش ثلاثين ألفاً وكانت هذه أكبر قوة عسكرية عرفت لها الجزيرة إلى ذلك الحين .

ولكن المنافقين ظلوا رغم ذلك كله منافقين ، أي مطهرين للإسلام مخفين العداء له ، وهذا طبيعي في حالتنا تلك لأن المؤمن الذي فتح الله قلبه للإيمان آمن ، أما الذي امتلأ قلبه بالشكوك فكيف يؤمن ؟

ويبدأ الواقدي هنا فيحدثنا عن الجدد ابن قيس وكان من كبار المنافقين الذين لم يؤمنوا قط . وقد زعم هنا أنه لا يستطيع الخروج لحرب الروم خوفاً على نفسه من نسائهم ، وزعم هنا أنه يخشى أنه إذا رآهن ضعف ووقع في الفتنة ، وواضح أن هذه مجرد تعلة لأن المسألة إذا كانت

(١) الدبل حلد السلحفاة البرية أو البحرية تتخذ منه الأسورة والأمشاط .

(٢) الواقدي ، مغازي ٣ - ٩٩١ - ٩٩٢ .

مسألة فتنة نساء الروم فكل العرب كانوا معرضين لهذه الفتنة ، ولكن إيمانهم كان أقوى منها ، فهم لا يخشون على أنفسهم منها لأن إيمانهم يغلب على ذلك كله ، وهم ذاهبون لقتال الروم لا للتعرض لنسائهم ، والواقدي يؤكد هنا أن الرجل لم تكن به كل هذه الفتنة بنساء الروم ، وكان أكبر من أنكر موقف الجد بن قيس ابنه عبد الله الذي لام أباه لوماً شديداً وقال له : فوالله ما في بني سلمة أكثر منك مالا ، ولا تخرج ولا تحمل أحداً .

وهنا اضطر الرجل إلى أن يكشف لابنه عن حقيقة نفسه وما دعاه إلى القعود عن الخروج مع الرسول صلوات الله وسلامه عليه ، وتعلق هنا أيضاً بحجة الخوف من فتنة نساء الروم ، فرد ابنه عاياه قائلاً له : لا والله ولكنه النفاق ، والله لينزلن على رسول الله فيك قرآن يقرأونه ! « فغضب الرجل على ابنه وخلع نعله وضرب بها وجهه ، فانصرف ابنه ولم يكلمه ، وكشف الحر عن وجهه فمضى يثبط من هم على

شاكلته عن الخروج للحرب ، وجعل يوجه كلامه إلى بني سلمة وهم قومه وأولا النفاق لكان رئيسهم وسيدهم وجعل يقول : (لا تخرجوا في الحر) زهادة في الجهاد وشكاً في الحق وإرجافاً برسول الله ﷺ ولم يعمل الرسول به شيئاً ولكن الله سبحانه أنزل فيه وفي أمثاله قوله :

« فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ * فَلْيَصْحِكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَرَاءَ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ * فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِئِينَ * وَلَا تَصِلْ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَدَاً وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ * وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ » (١) .

يقول الواقدي . « فلما نزلت هذه الآية جاء الابن إلى أبيه فقال : أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إنه سوف ينزل فيك قرآنٌ يقرؤهُ - المسلمون ؟ قال : يقول أبوه : اسكت عني يا لكع ، والله لا أنفعك بِنافعة أبدًا ، والله لأنت أشد عليَّ من محمد » (١) .

وهذا الموقف والكلام من الجد بن قيس يدل على أنه كان في الحق تعيسًا بموقفه من رسول الله والإسلام ولكن ما عساه يفعل في نفسه وقد امتلأت عيرة من رسول الله ونفورًا من الإسلام .

ويقول المفسرون في تفسير الآيات الأخيرة من الآيات التي ذكرناها أنها نزلت في عبد الله بن أبي الذي يوصف دائماً بأنه كبير المنافقين وكان رسول الله يعلم بأنه منافق وكاذب ، ولكنه كان يتركه على حاله ليتعذب بموقف المسلمين منه واحتقارهم إياه وعجزه عن القيام بشيء ، وقد أراد الله سبحانه أن يكون هذا حالهم لكي - يكونوا عبرًا للمسلمين .

وكذلك كان موقف الصبر وطول البال

وبعد النظر من جانب رسول الله دروسًا للمسلمين ، فلو أنه أراد أن يقضى عليهم كلهم في ساعة لتم له ما أراد ، ولكن الله سبحانه أراد هنا أن يعلم المسلمين ويعرفهم كيف ينبغي أن تكون مواقفهم في هذا الطراز من أهل النفاق .

ومن المعروف أن الإسلام دين الصبر على الأعداء وطول البال معهم والحكمة في معاملتهم ، وما كان شيء من هذا ليتحقق لو أن محمدًا صلوات الله وسلامه عليه انتهى من أمرهم في يوم ، لأن العبرة كانت في أن يرى المسلمون تعاستهم ، وعذابهم وسوء مركزهم وسط المسلمين .

وكان ابن أبي لا يستطيع كتمان نفاقه لأنه في الواقع كان يعاني منه وكان غروره بنفسه يمسكه عن الإيمان برسول الله ﷺ .

قال الواقدي : « فلما سار رسول الله ﷺ تخلف ابن أبي عن رسول الله ﷺ فيمن تخلف من المنافقين وقال : يغزو محمد بنى الأصفر ! مع جهد الحال والحر والبلد البعيد إلى ما قبل له به !

(١) الواقدي ، مغازي ٣ - ٩٣ .

يَحْسِبُ مُحَمَّدٌ أَنْ قَتَلَ بَنِي الْأَصْفَرِ
الْلعِب !

ونافق معه من هو على مثيل رأيه ، ثم
قال ابن أبي . والله لكأني أدطر إلى أصحابه
غداً مقرنين في الحديد ! إرجافاً برسول
الرسول ﷺ (١) .

ومع ذلك فقد تركه رسول الله على حاله
لتزداد تعاسته وسط المسلمين . وكان الناس
يعرفون المنافقين بينهم ، ولكنهم كانوا
يتركونهم على مذهب رسول الله ﷺ من
هذا الطراز من الناس ، قال الواقدي :
« قال : حدثني يونس بن محمد عن
يعقوب بن عمر بن قتادة عن محمود
ابن أبيدا أنه قال له :

هل كان الناس يعرفون أهل النفاق
منهم ؟ فقال : نعم والله ! إن كان الرجل
ليعرفه من أبيه وأخيه وبني عمه . سمعت
جداً قتادة بن النعمان يقول : تبعنا في
دارنا قوم منا منافقون ثم من بعد سمعت
زيد بن يسار يقول في بني النحر : من

لأبارك الله فيه ! فقال : من يا أبا سعيد ؟
فيقول : أسعد بن رارة وقيس بن قهده ،
ثم يقول زيد : لقد رأيتنا مع رسول
الله ﷺ في عزوة تبوك فلما كان من أمر
الماء ما كان دعا رسول الله ﷺ فأرسل الله
سحابة فأمطرت حتى ارتوى الناس .

فقلنا : يا ويحك أبعد هذا شيء ؟

فقال : سحابة حارة ! وهو والله رجل
لك به قرابة .

قال محمود : قد عرفته (٢) !

وإذن فموقف المسلمين من المنافقين
تسامح وعقل مقصودان كي يتعلم
المسلمون كيف يصبرون على المنافقين في
وسطهم حتى يبلغ بهم الأمر أن يؤمنوا
أو يموتوا على حالهم من النفاق والبعد عن
الناس .

وقد حكى الواقدي بعد ذلك حكاية
رجل من المنافقين يسمى زيد بن اللصيت
وكان من بقايا بني قينقاع ، وكان رسول
الله ﷺ قد فقد ناقته فقال المنافقون

(١) الواقدي ، مغازي ، ٣ - ٩٩٥ - ٩٩٦ :

(٢) الواقدي ، مغازي ، ٣ - ١٠٠٩ .

وفيههم زيد هذا ما معناه كيف يأتيكم محمد
بخبير السماء وتصديقونه ، وقد ضاعت
ناقته فهو لا يعرف أين تكون ، وقد دل
رسول الله ﷺ على مكانها ، وذهب الناس
وعادوا بها ، فقال زيد بن اللصميت لكأنني
لم أسلم إلا اليوم لقد كنت شاكاً في محمد
وقد أصبحت وأنا فيه ذو بصيرة ، وأشهد
أنه رسول الله ، فزعم الناس أنه تاب ؛
وكان خارجة بن زيد بن ثابت ينكر
توبته ويقول : لم يزل فسلاً (أى رذلاً)
حتى مات ^(١) .

وبهذه المناسبة أظهر الرسول ﷺ من
العناية بالخييل ما زاد من محبة الناس لها
والحرص عليها ، قال : قالوا : وبيننا
رسول الله ﷺ بتبوك قام إلى فرسه
الظرب فعلق عليه شعار (الشعار ما ولى
الجسد من الثياب) وجعل يمسح ظهره
بردائه . قيل : يا رسول الله ، تمسح ظهره
بردائك ! قال : نعم ، وما يدريك لعل
جبريل أمرني بذلك ، مع أنني قد بت الليلة

وإن الملائكة تعاتبني في حسن الخيل ،
ومسحها .

وقال : أحبرني خليلي جبريل أنه يكتب
لي بكل حسنة أوفيتها إياه حسنة ، وأن
ربي عز وجل يحط بها عني سيئة ، ومامن
المسلمين من يربط فرساً في سبيل الله فيوفيه
بعليفه يلتمس به قوته ، إلا كتب الله له
بكل حسنة حسنة وحط عنه بكل حسنة
سيئة ^(٢) .

بل إن الرسول صلوات الله وسلامه عليه
وجد في هذه الغزوة الكبيرة فرصة لتربية
الناس وحشهم على الثبات والعقل ، فقد
فزع الناس ذات مرة لأمر ما ، ويبدو أن
فزعهم زاد على الحد فخرج رسول الله
عليه السلام معضباً فقال : أيها الناس ، ما هذه
الخفة ، ما هذا النزق ألا صنعتُم ما صنع
هذان الرجلان الصالحان ^(٣) ، يريد عبد الله
ابن عمر أو عبد الله بن عمرو بن العاص
وسالماً مولى حذافة .

والآيات تتوالى ، بعد ذلك في بيان أعمال

(١) الواقدي ، مغازي ٣ - ١٠٠٨ - ١٠١٠ .

(٢) وقد أمر الرسول بالعناية بالخييل في مناسبات أخرى - الواقدي ٣ - ١٠٢٠ .

(٣) نفس المصدر ، ٣ - ١٠٢١ .

المنافقين وأهل الكفر وما أعد الله لهم من العقاب ، وهنا تلقى آيات كثيرة تنص على وجوب قتال المشركين ، ويلاحظ هنا أننا في العادة نفرق بين الكافر - والمشرک ، فنقول : إن الكافر هو من كفر بالله ، أى أنكره وأنكر الإيمان به إنكاراً تاماً .

أما المشرک فهو الذى يؤمن بالله ولحمه يشرك معه غيره فى الألوهية والعبادة . فأما الكافر وهو فى الغالب وثنى فلا بد من قتاله حتى يؤمن أو يموت ، وأما المشرک فإنه يقاتل حتى إذا استسلم للمسلمين خيراً بين أن يسلم ويصبح واحداً من المؤمنين أو يبقى على دينه ويؤدى الجزية | فيصبح من أهل الذمة أى من الداخلين فى طاعة المسلمين وحمايتهم أو يقاتل حتى يموت ، وقد درس الفقهاء والأئمة ذلك كله وانتهوا إلى أن الجهاد خارج بلاد المسلمين واجب على المسلمين جميعاً باستثناء من عجز عن القتال للضعف أو المرض أو الشيخوخة ، وجعلوا لكل حالة حلاً أو حلولاً .

أما داخل بلاد الإسلام فإن الكافر بالله

لا يترك على كفره أبداً ، بل لابد أن يؤمن أو حتى الموت أما المشرک فقد ذكرنا حكمه فيما سبق .

* * *

والآيات بعد ذلك تتبع أعمال المنافقين فى المدينة وتصدر حكم الله على كل طائفة من المنافقين ، مثال ذلك أن نفرًا من المنافقين استأذنوا رسول الله فى عدم الخروج للغزو وتعلموا فى ذلك بتعلات شتى ، فقال الله فى الآية ٤٣ وما بعدها :

«عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ * (٤٣) لَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ (٤٤) * إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ * (٤٥) وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً ، وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ * (٤٦) لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُوكُمْ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (٤٧) » .

وللمفسرين كلام جميل في معاني هذه الآيات ، فقال ابن كثير نقلاً عن ابن أبي حاتم عن رواته : هل سمعتم بمعاتبه أحسن من هذا ؟ بدأ بالعفو قبل المعاتبه فقال : « عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذْنَتْ لَهُمْ » .

وقال ابن كثير أيضاً . ولكن نقلاً عن قتادة بن النعمان : عاتبه كما تسمعون ثم أنزل (الآيات) التي في سورة النور فرخص له في أن يأذن لهم إن شاء : « فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأُذِنَ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ » (٢٤ - ٢٥) .

ثم يقول الله بعد ذلك : إنهم إذا أرادوا الخروج لاستعدوا له وخرجوا ، ولكن الله يعلم بما في قلوبهم من الضعف فشبطهم عن الخروج حتى لا يكون لهم شرف الخروج ، ثم لكي يحمي المسلمين منهم لأنهم لو خرجوا مع المؤمنين ما كفوا عن تشبيطهم ومنهم ناس يسمعون لهم .

ثم يتول الله تعالى : « لَقَدْ ابْتَعُوا الْعِثَّةَ مِنْ قَبْلُ وَقَلَسُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّى جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ » (٩ - ٤٨) .

قال ابن كثير : « وذلك أول مقدم رسول الله ﷺ ، رمته العرب عن قوس واحد

وحاربته يهود المدينة ومنافقوها ، فلما نصره الله تعالى يوم بدر وأعلى كلمته قال عبد الله ابن أبي وأصحابه : هذا أمر قد توجه ، أى أن تشبيط أمور المسلمين انتهى أجله وانقضى فدحوا في الإسلام ظاهراً ثم أنهم لما أعز الله الإسلام وأهله غاظهم ذلك وساءهم ولهذا قال الله تعالى :

« حَتَّى جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ » .

ثم يدخل القرآن بعد ذلك في تفاصيل بعض ما حدث قبيل خروج الرسول ﷺ إلى تبوك من تعلق بعض المنافقين بتعلات واهية - بل سخيصة - لتبرير عدم الخروج للجهاد فيقول - مثلاً في الآية ٤٩ من سورة التوبة :

« وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِي وَلَا تَفْتِنِّي أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ » والإشارة

هنا واضحة ، والمراد بها هنا الجد بن قيس أخو بني سلمة ، وكان واحداً من أكبرهم ، وكان معروفاً أنه في جملة المنافقين ، وقد دعاه رسول الله ﷺ إلى الخروج للغزو في أسلوب لطيف مجاملة له ، قال ابن كثير

فقال : يا رسول الله ، أوتأذن لي ولاتفتني فوالله لقد عرف قومي مارجل أشد عجباً بالنساء مني ، وإني أخشى إن رأيت نساء بني الأصفر ألا أصبر عليهن وأعرض عنه رسول الله ﷺ وقال : قد أذنت لك وهذا كان كلام الجذ بن قيس... أي أنه كان يخشى من نساء بني الأصغر ، وليس ذلك به ، فما سقط فيه من الفتنة بتخلفه عن رسول الله ﷺ والرغبة بنفسه عن الجهاد أعظم (تفسير الطبري) ، الأثر ٥٦٧٨٨ (١٤ / ٣٨٣) ، وينظر سيرة ابن هشام (٢ / ٥١٦) . وواضح أن هذا الرجل كان في الغاية من التفاهة عندما قال ذلك ، فإن في كل رجل صحيح ميلاً إلى النساء ، ولكن الإنسان يضغط على نفسه ويوجهها ولا يخشى أن يخرج للقتال ، فيتعرض للفتنة من نساء الأعداء ، ولهذا فقد كان إنكار الله سبحانه لموقفه هذا شديداً ، وكان رسول الله قد صرف النظر عنه لأنه كان يعرف أنه منافق ، فلما نزل حكم الله فيه افتضح أمره بين المسلمين وساء مركزه ولكنه ظل منافقاً .

وفي آيات أخرى بعد ذلك نجد

الإشارة إلى المخلفين ، وهم نفر من المتأدريين على القتال تخلفوا عن رسول الله كسلا وميلاً إلى الدعة ومنهم مرارة بن الربيع وكعب بن مالك وهلال بن أمية ، وهؤلاء اختلف فيهم حكم الإسلام بحسب موقفهم بعد تبوك .

قال ابن كثير : « فكانت منهم طائفة ربطوا أنفسهم بالسوارى كما فعل ابن لبابة وأصحابه وطائفة لم يفعلوا ذلك ، وهم هؤلاء الثلاثة المذكورون ، فنزلت توبة هؤلاء قبل أولئك ، وأرجى هؤلاء عن التوبة حتى نزلت الآية الآتية ، وهي قوله تعالى :

« لَمَّا تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ... » (الآية ١١٧) « وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خَلَفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ... » (الآية ١١٨) .

كما سيأتي بيانه في حديث كعب بن مالك وقوله :

« فَإِذَا يَعْذِّبُهُمْ وَإِذَا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ »

أي . هم تحت عفو الله ، إن شاء فعل بهم

هذا ، وإن شاء قعل بهم ذاك ، ولكن رحمته تغلب غضبه ، « وَهُوَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ » أى عليم بمن يستحق العقوبة ومن يستحق العفو ، حكيم فى أقواله وأفعاله ، لا إله إلا هو ولا رب سواه^(١) .

وهذا الكشف عن أعمال المسلمين وعرضها فى الآيات هو الذى جعل المسلمين المعاصرين لرمول الله ﷺ يخافون هذه السورة خوفاً شديداً ، فقد كانت آياتها تنزل على رسول الله شيئاً فشيئاً ، وكل منهم يخاف أن يكون قد فعل شيئاً لا يرضى عنه الله سبحانه دون أن يدرى ، ولهذا وصفت سورة التوبة بأنها الكاشفة والفاضحة .

وهذا التطابق بين ماورد فى القرآن وما كانت عليه أحوال المسلمين فى العام التاسع من جهاد الرسول فى المدينة هو الذى جعلنا نقول : إن السورة تعطينا إطاراً لأحوال المسلمين فى المدينة فى ذلك الوقت ، فما دامت الإشارة قد وردت فى القرآن إلى عمل من أعمال المؤمنين أو المنافقين كان ذلك دليلاً لا يقبل الشك على حقيقة ذلك .

وقد تنبيه المفسرون الماضون إلى ذلك ، ولكن أذهانهم اتجهت فى الغالب إلى الأحكام الفقهية لأنهم فقهاء ، وما يهمهم فى المكانة الأولى هى الأحكام ، ونحن - طبعاً - تهمننا الأحكام ، ولكن الوقائع التاريخية تهمننا أيضاً .

وهذه حقيقة جديدة بالذكر ، فغالبية المسلمين يجمع على أن المجتمع الإسلامى فى المدينة كان صافياً خالصاً لانفاق فيه ولا غش ، والحقيقة أنه كان فيه غش ونفاق كثيران ، وتلك هى العبرة فى ذكر القرآن لذلك كله فالقرآن لم ينزل للصحابة ومعاصرى رسول الله ﷺ وحدهم ، وإنما نزل لهم وللأجيال التالية لهم ، وهذا هو مجال العبرة والحكمة الإلهية .

وفى ما بين ذلك أنزل الله سبحانه آيات كثيرة تحمل قواعد إسلامية ثابتة وعامة وصادقة على اختلاف العصور والظروف ، مثل قوله تعالى فى الآية الستين من السورة .

« إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي

(١) ابن كثير ، تفسير القرآن العظيم ٤ / ١٨٤ .

الرقاب والغارمين وفي سبيل الله) فهنا نجد قواعد عامة عادلة لا بد أن يطبقها المسلمون في التصرف في أموال الصدقات ، فلا بد أن تقسم على الطوائف الثمانية الذين وردوا في هذه الآية ، وحيث إن الصدقات فريضة على كل المسلمين فهذه طريقة التصرف فيها ، وليس لمسلم أن يتصرف فيها كما يشاء . وللمسلمين كلام كثير في ذلك كما أن كثيراً منحكام المسلمين أساءوا التصرف في الصدقات فاعتبروها ضمن ماظنوا أنه حق لهم من الضرائب على الناس . وقد أورد الصحابي عبد الرحمن بن زياد بن أنعم مع سنده قال فيه : فأتى رجل رسول الله فقال أعطني من الصدقات فقال له : إن الله لم يرض بحكم نبي ولا غيره في الصدقات حتى يحكم فيها هو ، فجزأها ثمانية أصناف فإن كنت من تلك الأجزاء أعطيتك ^(١) .

وهذه الآية معروفة لنا جميعاً . وهي متداولة في كتب كثيرة لأهميتها . والآيات التي تتضمن أحكاماً عامة تصدق في كل زمان كثيرة جداً في هذه السورة

التي نزلت في مناسبة معروفة هي غزوة تبوك ولكنها تصدق على المسلمين في كل زمان ومكان ومن ذلك قوله تعالى في الآيتين ٦٥ و ٦٦ من نفس السورة :

« وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ، قُلْ أَلَا لِلَّهِ آيَاتُهُ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ * لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِنَّ نَعْفَ عَنْ طَائِفَةٍ مِّنْكُمْ يُعَذِّبُ طَائِفَةٌ بَأْسُهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ . »

وقد روى ابن كثير خبراً غير محدد ولكنه يؤكد حقيقة ما وقع من المنافقين قال بعد السند : قالوا : قال رجل من المنافقين : ما أرى قراءنا هؤلاء إلا أرغبنا بطوناً وأكذبنا ألسنة وأجببنا عند اللقاء ، فرفع ذلك إلى رسول الله ﷺ ، فجاء إلى رسول الله ، وقد ارتحل وركب ناقته ، فقال : يا رسول الله ، إنما كنا نخوض ونلعب ، فقال : « أَلَا لِلَّهِ آيَاتُهُ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ » إلى قوله « مُجْرِمِينَ » ، وإن رجله لتنسفن الحجارة ، أي أنه في تتبعه لرسول الله يشق الأرض برجليه

(١) أحادنا ابن كثير هنا إل سنن أبي داود « كتاب الزكاة » باب من يعطى الصدقة وحده إلى الحديث : ٢١٧ - ٢ ، ١٦٣٠ . وقد قال ابن كثير إن الحديث ضعيف ، وهو ضعيف فملا (انظر تفسير ابن كثير ٤ ، ٢٠٥) .

كأنهما تقتلعان الحجارة وما يلتفت إليه رسول الله ﷺ (والنسعة بكسر وسكون سَبْرٌ مضمفور يجعل زمماً للبعير)^(١) .

والآية تدل على وجود هذه الطائفة من المسلمين الذين لم يستقر في نفوسهم جلال الإيمان ، فهم يستهزئون في أحاديثهم بين بعضهم وبعض بما لا يجوز أن يستهزأ به وإن كنا نلاحظ أن الحادثة التي رواها ليست بحادثة وإنما هي مجرد تصوير لما يمكن أن يكون قد وقع بين رسول الله ﷺ وواحد من أولئك المستهزئين الذين أرادوا تخفيف جرميتهم بالقول بأنهم في أحاديثهم التي وقع فيها الاستهزاء لم يكونوا جادين في الكلام ، وإنما هم كانوا يخوضون في الحديث لمجرد الكلام . ولكن موقف الرسول ﷺ منه كان موقفاً بالغاً في الحزم والغضب ولا شك أن هذا درس لا ينسى لكل المسلمين بعد ذلك ، وهذا هو المقصود من الآية القرآنية وموقف رسول الله ﷺ من أولئك المنحرفين والآية ٦٧ من سورة التوبة تجعل المنافقين

فاسقين كفاراً والآية التي تليها تبين عقابهم :

« الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْسِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ [٦٧] وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعْنَهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ » [٦٨] .

والآيات التالية تعطينا أمثلة من المنافقين والمنافقات قبل الإسلام ، يجعل مسئولية النفاق على المنافق نفسه : (فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ » (الآية ٧٠) .

ونعتقد أن هذه الآيات كانت نهاية النفاق والمنافقين في المجتمع الإسلامي ، حقاً لقد بقي منهم منافقون قدماء ولكن هؤلاء كانوا قليلين ، ولكننا فيما عدا هؤلاء لم نعد نسمع عن منافقين في العصر النبوي الذي يمتد إلى نهاية العصر الراشدي وبعده آيات يبين الله فيها فضل المؤمنين

(١) ابن كثير ٤ / ١١١

الصادقين وما أعد الله لهم من حسن الجزاء
نجد الآية الرابعة والمسلمين تفتح لمن يريد
إصلاح نفسه والانضمام إلى المسلمين
الصادقين طريقاً للتوبة :

« يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا ، وَلَقَدْ قَالُوا
كَلِمَةً الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بِعَدِ إِسْلَامِهِمْ وَهُمْ
بِمَا لَمْ يَنَالُوا وَمَانَعَهُمْ إِلَّا أَنْ أَعْمَاهُمُ اللَّهُ
وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا
لَهُمْ وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ عَذَابًا فِي
الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَالَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ
وَلَا نَصِيرٍ » .

ونعتقد أن هـ هذه الآية التي فتحت
أبواب التوبة والرحمة أمام المنافقين
هي التي أوقفت النفاق في المدينة ،
والمجتمع الإسلامي كله بعد ذلك ،
ونلاحظ أن الآية تنص على أن الله أغنى
أولئك الناس وبقية أهل المدينة من فضله ،
وتلك حقيقة تاريخية لم يتنبه إليها أحد
من أرخوا للسيرة أو لعصر الرسول ، فإن
هجرة الرسول إلى المدينة وإنشاء الجماعة
الإسلامية فتحت أمام أهل المدينة أبواباً
واسعة من الغنى ، فقد هدأت الأحوال
فيها وكثر توافد الناس عليها ، فاتسعت

مساحتها وزادت أبواب الرزق أمام أهلها ،
فاغتذوا وأصبحوا أغنى من أهل مكة .

حقاً لقد بقي في مكة نفر قليل من الأغنياء
ولكن البلد كله افتقر بعد أن توقفت
تجارته ولم يعد الناس يزورونه للحج كما
كان الحال قبل .

ولا ننسى هنا أن تحسن الأحوال
الاقتصادية في المدينة يرجع إلى الإسلام
ومبادئه وإلى الطريقة المثلى التي سار عليها
رسول الله في قيادة أهل المدينة ، فقد كثر
السكان وكان لابد من أعمال صناعية
وتجارية للقيام بشئون هؤلاء السكان
الجدد ، ثم إن الإسلام ينص على أن
يشترك المسلمون جميعاً في الغزو أو الإنفاق
على الغزوات والسرايا والبعوث .

ومن هنا نفهم كيف أن تحسن الأحوال
في المدينة لم يؤدِّ إلى ظهور طبقة من
الأغنياء وأصحاب رؤوس الأموال كما كان
الحال في مكة ، إنما هي كانت حالة رخاء
عام ونشاط في العمل والإنتاج مع النص
على أن الأغنياء ينبغي أن ينفقوا أموالهم
على مصالح الجماعة .

وقد أخطأ نفر من المفسرين فقالوا
هنا إن الإسلام كان يأتى على الإنسان أن
يعتنى ولو قام بكل مسؤولياته حيال الجماعة
وهذا ليس بصحيح ، لأن الإسلام لا يتدخل
في أموال الناس التي يكسبونها حلالاً ويؤدون
عنها ما أمرهم الله أن يؤدوا .

وفي الآية ٧٥ - ٧٧ يقول الله سبحانه
وتعالى : « وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهُ لَئِنْ آتَانَا
مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ *
فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا
وَهُمْ مُّعْرِضُونَ * فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي
قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ
مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ » .

وهذه صياغة قرآنية كريمة لقصة
حقيقية وقعت لرجل يسمى ثعلبة سأل
رسول الله أن يدعو له الله أن يرزقه مالا
فنبهه رسول الله إلى مسئولية صاحب المال
في ماله ، بل سأل إن كان لا يعجبه أن
يكون كرسول الله ﷺ فإن الرسول
كان يستطيع أن يدعو الله أن يرزقه
فيرزقه كيف شاء ، ولكنه فصل أن يظل
على ما هو عليه مكتفياً بالقليل الذي يغنيه
عن الحاجة ولكن الرجل أصر ، فدعا له

الرسول وتركه ، فاشترى الرجل غنماً
ونماها حتى كثرت حتى ترك المدينة إلى
موضع قريب منها ليرعى غنمه ويستكثر
منها واعتنى فعلاً حتى صرفه المال عن
الصلاة ، وبلغ الرسول خبره وكان يتوقع
له ذلك ..

فقال ياويح ثعلبة ! ياويح ثعلبة !
وعندما مر رجال الرسول بثعلبة وطلبوا
صدقة ماله قال : ماهذه إلا ضريبة ! ماهى
إلا أخت الجزية ، وقال لهما انطلقا حتى
تفرغا ثم عودا إلى ، وكان الله قد أنزل
على رسوله قوله تعالى :

« وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهُ لَئِنْ آتَانَا مِنْ
فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ
(٧٥ - ٩) فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ
بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُّعْرِضُونَ (٧٦ - ٩)
فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ
بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا
يَكْذِبُونَ (٧٧ - ٩) أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ
سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ
(٧٨ - ٩) » .

فكانت هذه الآيات قاضية على ثعلبة
وأمثاله ، فقد حاول الرجل أن يتصالح

مع الرسول ويقدم له من أمواله ورفض
الرسول ﷺ ورفضه كذلك أبو بكر
وعمر وعثمان ، وانتهت حياته ذليلاً تعيساً
في خلافة عثمان .

وكانت هذه الآيات كافية للقضاء على
مثل هذا الرجل وأمثاله فلم نعد نسمع
بأحد في العصر النبوي فعل مثل ذلك .

وشبيهه بذلك وأولئك الذين نزل فيهم
قوله تعالى :

« الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ
فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ
فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ ، سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ ،
وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ » (٩ - ٧٩) .

فهنا أيضاً نجد الإشارة إلى ناس
حقيقيين من أولئك المنافقين ممن جعلوا
همهم السخرية من المؤمنين الذين كانوا
يجودون بما يستطيعون من أموالهم في
سبيل الإسلام .

فقد جاء رجل بسيط أسود اللون قصير

القامة فتقدم لرسول الله بفاقة ويقول
راوى الخبر إنه لم ير في البقيع أحسن
منها فقال المنافقون . « هذا يتصدق
بهذه ؟ فوالله لهى خير منه !

فسمعها رسول الله ﷺ فقال :
(كذبت بل هو خير منك ومنها - ثلاث
مرات) .

ثم قال : ويل لأصحاب المؤمنين من الإبل
- ثلاثاً - فقالوا إلا من يا رسول الله ؟

قال : [إلا من قال ^(١) بالمال هكذا
وهكذا ، وجمع بين كفيه عن شماله وعن
يمينه ثم قال : قد أفلح المزهة المجهد ،
ثلاثاً . المرهد في العيش ، المجهد في
العبادة ^(٢)] .

وقد حدث بعد ذلك أن عبد الرحمن بن
عوف قدم نصف ماله كله - وقدر النصف
أربعة آلاف على سبيل الصدقة ،
وقدم رجل آخر يسمى أبا عقيل صاعاً
من تمر ، وكان هذا نصف ماعنده ، فقالوا
إن عبد الرحمن بن عوف أعطى ما أعطى

(١) هذا الكلام ينقل عن تفسير ابن كثير ، والقوسان من عنده ، المراد بالأمن قال : إلا من فعل .

(٢) تفسير ابن كثير ٤ / ١٢٦ .

نفاقاً ، وأما عن صاحب الصاع فقد تضاحكوا به وقالوا : إن الله لغنى عن صاع أبي عقيل ! فقبل رسول الله ﷺ من كل منهم ما تقدم به وقال لكل منهم : بارك الله لك فيما أعطيت ، وبارك الله لك فيما أمسكت .

وقال ابن كثير بعد ذلك : وقوله : فيسخرون منهم ، وهذا على باب المقابلة على سوء صنيعهم واستهزائهم بالمسلمين لأن الجزاء من جنس العمل ، فعاملهم معاملة من سخر بهم انتصاراً للمؤمنين في الدنيا ، وأعد للمنافقين في الآخرة عذاباً أليماً^(١) وقال الله سبحانه بعد ذلك مخاطباً رسوله الكريم :

« اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ ، إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ . وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ » (٩-٨٠)

ونحن نرى هنا أن الله سبحانه وتعالى ترك هؤلاء المنافقين يتصرفون على هواهم ، وكان قادراً على أن يسكتهم إلى الأبد ،

ولكن الله أراد أن تكون في هذا دروس للمؤمنين ، وأن نرى بأعيننا الحرية التي كانت للناس في عهد الرسول ، وهذه الحرية هي التي قضت على أولئك الناس لأنهم تصرفوا على مارأوا دون أن يتدخل الرسول في حياتهم ، ثم جاء الله بالحل الأمثل والدرس الأعظم الذي نفع المسلمين في العصر النبوي ، فقد كانت آيات الله سبحانه خير علاج ، وبالفعل فإن هذه الطرز من المنافقين احتفت من المجتمع الإسلامي اختفاء تاماً ، وما كانت لتختفي على هذا النحو إذا كان الرسول قد أخذهم بالعنف .

ونعتقد أن الحرية هنا كانت جزءاً أساسياً في العلاج ، فقد رأى الناس كلهم هؤلاء الناس وما كان من تصرفهم ، ثم جاء حكم الله خير علاج لأحوالهم .

وتأتى بعد ذلك آيات تكرر الغضب على الذين تخلفوا عن الخروج مع رسول الله كسلاً وكراهة في الحرب ، ولم يكتفوا بذلك بل مضوا في حث الناس على القعود وعدم الخروج في الحر :

(١) ابن كثير ٤ / ١٢٦ .

« فَرَحَ الْمُخَلَّدُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُخَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا: لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ . قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ (٩ - ٨١) . فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ » (٩ - ٨٢) .

ثم تلى ذلك آيات تذكر عقابات أخرى لهؤلاء :

« فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ (٩ - ٨٣) وَلَا تَصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ (٩ - ٨٤) وَلَا تَعْجَبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ (٣ - ٨٥) .

وهكذا نرى أن الله سبحانه جعل عقاب أولئك المخالفين والقاعدين بيده وحده ،

وهو الذى عاقبهم وحكم عليهم فكان ذلك أباح حكمهم ، فاختفوا بحكم الله لا بحكم أحد ، لأن الناس قد يخطئ بعضهم فى حق بعض ، وقد يسئ بعضهم الحكم على بعض فتكون العقوبة غير عادلة ، ولكن الله سبحانه يعرف الناس أجمعين ظاهراً وباطناً ، ولهذا كان عرضه لحالاتهم صادقاً وحكمه عليهم حاسماً .

وهذا هو الذى نراه فى المجتمع الإسلامى فى العصر النبوى ، وهو يصدق أيضاً على كل الجماعات الإسلامية بعد ذلك ، وهذا هو موقف العبرة الكبرى فى الإسلام فإن الله سبحانه هو الذى يهتدى الناس ، والناس لا يستطيعون هداية بعضهم بعضاً ، وإنما يقف جهدهم عند بيان الدين وشرحه للكافرين أو المقصرين ، والبقية ، وهى هدية الناس أو عقابهم إذا كانوا لا يفتحون قلوبهم للحق - بيد الله سبحانه وتعالى .

وحتى لو جاءوا بعد ذلك يعرضون على الرسول أن يخرجوا معه فإن الله سبحانه لا يرضى عن خروجهم ويقول لهم : لقد قعدتم عن الخروج أول مرة كسلاً وتهاوناً بأمر

اللَّهُ (فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ) . بل إن الله يأمر رسوله الكريم بألا يصلي على أحد مات منهم ولا يقوم على قبره لأنهم كفروا بالله ورسوله وماتوا وهم فاسقون .

وكان رسول الله ﷺ يرى قبل نزول هذه الآيات أن الله خيره بين أن يصلي على هؤلاء المنافقين أو لا يصلي ، فاحتار الصلاة على ابن أبي بن أبي سلول لأن ابنه كان مؤمناً ، وقد سأل رسول الله أن يصلي على أبيه عندما مات وصلى عليه فعلاً وقام على دفنه وقد أنكر ذلك عمر وأنكره جبريل كذلك فجاءت هذه الآيات حاسمة هنا حتى لا يصلي المؤمنون على المنافقين والكاذبين بعد ذلك أبداً ، بل إن الله سبحانه حذر رسوله من العطف على أحد من المنافقين إكراماً لأبنائهم المؤمنين .

« وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ » .

وبعد ذلك وزيادة في التوضيح من الله سبحانه وتعالى في هذه المواقف جاء قول الله سبحانه :

« لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ » (٩ - ٩١)
وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ (٩٢ - ٩) .

وهذا حدث فعلاً ، إذ أن نفرًا من المؤمنين الصادقين لم يجدوا سلاحاً ولا ما يركبونه للخروج في تلك الغزوة البعيدة فاعتذر الرسول إليهم بأنه لا يملك ما يحملهم عليه فاولوا وهم يبكون .

وقد تولى بعض المؤمنين إعانة بعضهم فاعطوا رجلين منهم جملاً ليركبا متعاقبين ولكن بقي الكثيرون عاجزين عن الخروج ، وهؤلاء يعفئهم الله سبحانه من العقاب وهذا يتصدق أكثر في أيامنا هذه لأن الحرب أصبحت أكثر تعقيداً وصعوبة ، وإذا كان كافياً في العصر النبوي أن يساعد مؤمن إخوانه من المسلمين الصادقين فيعطى اثنين منهم جملاً ليخرجوا عليه ، فإن الحرب في أيامنا تحتاج إلى أكثر من هذه المعونة

البسيطة وتصيح الدولة هي المسئولة عن خروج الناس إلى الحرب وبدلاً من أن يذهب الناس إلى الدولة يطلبون المعاونة يجد أن الدولة في أيامنا هذه هي التي تقوم بتنظيم الخدمة العسكرية ، فهي تجند الناس في سن معينة وتعلمهم الحرب وتمرنهم على استخدام السلاح وتعددهم للحرب دفاعاً عن الوطن حتى إذا جاء وقت الحرب كانوا قادرين على الحروح والتبات والحرب واستعمال أجهزة العصر وأدواته .

وأصبح الواجب على الناس في أيامنا الصديق مع الدولة والإخلاص في التدريب واستعمال الأجهزة والسلاح ، وأصبح هذا كله فاصلاً في أيامنا حتى إن رجلاً في الغرب فاتهم سن الحرب والقدرة عليها فلجأوا إلى الكذب في تعيين سسهم لكي يخرجوا مع المقاتلين ولا يبقوا مع القاعدين فاجتهد رجال الدولة في إفهامهم أنهم يعرفون سسهم ويعرفون كذلك أن هذه السن لا تساعد على التبات والقتال في الميادين .

ومن هنا نرى أن ما يزعمه البعض من أنهم مسئولون عن الحرب والدفاع دون إذن

الدولة وتنظيمها وتسليحها خطأ ولا يجوز ، فإن الناس أصبحوا في أيامنا ملايين كثيرة ، ومن الممكن أن يحاول البعض خداع الدولة والزعم بأنهم مسئولون عن القتال مباشرة . وهذا خطأ وخطر ، وحتى إن زعم بعضهم أن الدولة أهملته فإنه لا يحوز له أن يعد نفسه للحرب ويقوم بها بنفسه أو مع جماعة من أمثاله فذلك خطأ .

ومن الواجب أن يتقدم كل من يريد الدفاع عن الوطن والدين إلى الدولة وهي التي تتولى كل مسؤوليات الحرب والجهاد وإعداد الحيوش للقيام بالحروب على مستوى العصر .

وبعد آيات قليلة يأتى الكلام على الأعراب ، والمراد بهم هنا - وفي العصور التالية - الجهال الذين يعيشون في جماعات غير منظمة بعيداً عن الجماعات المستقرة المتحفزة ، فهؤلاء تشغلهم الفوضى التي يعيشون فيها عن الدين ومطالبه ، ثم إن الجهل والفوضى تجعلهم بعيدين بالقلب والإحساس عن طلب الهدى ، وقبل أن نورد كلام الفقهاء في هذه المعاني نورد

الآيات القرآنية الكريمة : قال سبحانه .

« وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَمًا وَتَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرُ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ » (٩-٩٨) وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرْبَاتٍ عِنْدَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٩-٩٩)

ونلاحظ هنا وكذلك لاحظ المفسرون أن الله سبحانه قسم الأعراب هنا إلى قسمين :

قسم منافق كافر وقسم مؤمن .

قال ابن كثير : أخبر تعالى أن في الأعراب كفاراً ومنافقين ومؤمنين ، وأن كفرهم وبماقهم أعظم من غيرهم وأشد وأجدر ، أي أخرى ألا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله ، كما قال الأعمش عن إبراهيم قال : جلس أعرابي إلى زيد بن صوحان وهو يحدث أصحابه ، وكانت يده قد أصيبت يوم نهاوند .

فقال الأعرابي : والله إن حديثك ليعجبني ، وإن يدك لتريبني .

فقال زيد : ما يريبك من يدي ؟ إنها الشمال .

فقال الأعرابي ، والله ما أدرى اليمين يقطعون أم الشمال ؟

قال زيد بن صوحان : صدق الله :

« الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا ، وَأَجْدَرُ أَلَا يَعْلَمُوا حَدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ »^(١)

ونلاحظ هنا أن ذلك الأعرابي لم يكن جاهلاً فحسب ، بل كان كذلك شريراً سيء القلب ، فهو يسخر من الشيخ لمجرد أنه شيخ عالم

وروى ابن كثير هنا حديثاً عن ابن عباس يقول فيه بعد السند :

(من سكن البادية جفا ، ومن اتبع الصيد غفل « عن أوقات الصلاة » ، ومن أتى السلطان افتتن)^(٢) .

وقد علق الترمذي على ذلك الحديث

(١) تفسير الطبري ، الأثر ١٧٠٩٣ (١٤ - ٤٢٩) .

(٢) مسند الإمام أحمد ١ - ٣٥٧ ، ابن كثير ٤ - ١٤٠ .

بقوله : حديث حسن غريب لا نعرفه
إلا من حديث التورى .

ويعلق ابن كثير على ذلك بقوله :
ولمّا كانت الغلظة والجفاء فى أهل البوادر
لم يبعث الله منهم رسولاً ، وإنما كانت
البعثة من أهل القرى كما قال تعالى :

« وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي
إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي
الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ
مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا
أَفَلَا تَعْقِلُونَ » .

(سورة يوسف ، الآية ١٠٩)

أى أن الله سبحانه يختار رسوله من أهل
القرى والجماعات المستقرة المتحضرة .

قال ابن كثير فى تفسير الآية : (وأخبر
تعالى أن منهم « مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ » ، أى
فى سبيل الله مغرمًا أى غرامة وحسارة .
« وَيَتَرَبَّصُّ بِكُمْ الدَّوَّائِرَ » ، أى ينتظر
بكم الحوادث والآفات . ثم يقول بعد
ذلك : « وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ
وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرْبَاتٍ عِنْدَ
اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ » .

هذا هو القسم الممدوح من الأعراب ،
وهم الذين يتخذون ما ينفقون فى سبيل الله
قربة يتقربون بها عند الله ويبتغون بذلك
دعاء الرسول لهم . « أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَهُمْ »
أى إن ذلك حاصل لهم : « سَيَدْخُلُوهُمْ
اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ » .

وقد فات ابن كثير أهم شيء هنا ،
وهو ما كان ينبغى له أن يفوته وهو عدل
الله سبحانه وتعالى فى الحكم على الناس .
فما كان ليصدر حكماً عاماً على كل الأعمال
بأنهم : « أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ
أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ
وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ » . فإن فى الأعراب
مؤمنين أتقياء يتخذون ما ينفقون فى سبيل
الله قربات يتقربون بها إلى الله ويبغون
بذلك أن يدعو الرسول لهم

وهذه حقيقة عن الأحوال الاجتماعية فى
جزيرة العرب فى العصر النبوى فقد كان
الأعراب كثيرين ، ومنهم من كانوا -
مؤمنين ذوى قلوب رقيقة وهؤلاء فهموا
الإسلام حق الفهم ولكن غالبيتهم كانوا
من أشد الناس كفراً ونفاقاً ، لأن هذه
هى طبيعة البداوة وجفاءها وخشونتها ،

ولن يصلح المجتمع العربي في جزيرة العرب إلا إذا قضى على البداوة واستقر سكانها أجمعين وساروا في طريق الحضارة ، وهذا هو ما أدركه الملك عبد العزيز آل سعود عندما تولى أمر جزيرة العرب وقرر أن يخرجها من الصياع والتفرق الذي كانت تعانيه ، وينشئ من أولئك العرب ، بدواً وحضراً مجتمعاً واحداً متحضرًا متساوياً .

أى أمة عربية ، وقد وفق في ذلك ، لأنه كان يسمير في تفكيره السياسى وعمله في تطبيق ذلك التفكير على القرآن الكريم والسنة الشريفة .

ومن الحقائق الاجتماعية والفكرية التي تتضمنها الآيات بعد ذلك ما يقوله ابن كثير : وقال عبد الرارق : أخبرنا معمر عن قتادة في هذه الآية :

« وَمِنْ حَوْلِكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُّوا عَلَى النَّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ » (٩ - ١٠١)

أنه رأى رسول الله ﷺ قال : ما بال أناس يتكلفون علم الناس : فلان في الحمة وفلان في النار ، فإذا سألت أحدهم عن

نفسه قال . لا أدري ، لعمرى أنت بنفسك أعلم منك بأحوال الناس ، وقد تكلفمت أى (كلفت نفسك) شيئاً ما تكلفه الأنبياء قبلك . قال نبي الله نوح : « وَمَا عَلَّمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ » ، وقال نبي الله شعيب : « بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ، وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ » سورة هود (١ - ٨٦)

والمراد ببقية الله خير لكم : أى ما أرقاه الله لكم من الحلال .

(انظر : المصحف المفسر لمحمد فريد وجدى من ٢٩٧ - تفسير سورة هود) .

وقد فات ابن كثير أن يلاحظ أن هذه الآية تؤكد ما سبق أن ذكرناه من عدل الله سبحانه ودقة القرآن الكريم فمادام الله قد ذكر في آية سابقة أن من الأعراب وأهل القرى مؤمنين فكان لابد أن يؤكد هنا أن في الحين منافقين وذلك حتى لا يدرك أهل المدينة عرور فيحسبوا أنهم كلهم أفضل في إيمانهم من الأعراب ، بل أن فيهم أيضاً منافقين مردوا على النفاق لا يعرفون أنفسهم ولكن الله يعرفهم وسيعذبون مرتين ثم يردون إلى عذاب عظيم .

ثم يورد ابن كثير بعد ذلك حديثاً ينسب به إلى السدي رواية عن ابن عباس يقول : فام رسول الله ﷺ خطيباً يوم الجمعة فقال : اخرج يا فلان فيانك منافق واخرج يا فلان فيانك منافق فأخرج من المسجد ناساً منهم ، فضجهم فجاء عمر **وهم يخرجون من المسجد فاخترت منهم** حياة أنه لم يشهد الجمعة ، وظن أن الناس قد انصرفوا ، واختبأوا هم من عمر ، ظنوا أنه قد علم بأمرهم ، فجاء عمر فدخل المسجد فإذا الناس لم يصلوا ، فقال له رجل من المسلمين : أبشر يا عمر ، قد فضح الله المنافقين اليوم !

قال ابن عباس : فهذا العذاب الأول عن إخراجهم من المسجد ، والعذاب الثاني عذاب القبر ^(١) .

وهذا من الأحاديث التي لا يدري الإنسان إن كان يقبلها أو لا يقبلها . من الناحية التاريخية أقصد ، لأن هذا المذهب في معاملة الناس - والمنافقين خاصة - لا يتفق مع ما نعرف من بعد نظر الرسول في معاملتهم

فقد كان ميالاً إلى أن يجعلهم يشعرون بكفرهم وإنكار المسلمين لهم .

والقرآن الكريم كان يؤيد اتجاهه هذا حتى يجيء اليوم الذي يختفون فيه ، ويكون المجتمع في هذه الحالة هو الذي حكم عليهم بالموت ، وهذا هو الذي حدث فعلاً .

والآية التالية تعطينا صورة لطراز آخر من أهل المدينة وهو طراز المؤمنين الذين لا يساور قلوبهم شك ، ولكنهم كسالى وميالون إلى الراحة والقعود عن القيام بما أمر الله سبحانه ، وهؤلاء يعترفون في العادة بذنوبهم ويرحون أن يغفر الله لهم ، وهم يقومون في أثناء ذلك بأعمال صالحة ، خلطوا كسلهم وإهمالهم باعترافيهم به بينهم وبين الله : « خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا » فهؤلاء كما يقول ابن كثير تحت عفو الله وغفرانه .

وهذه وإن كانت نزلت في أناس معينين إلا أنها عامة في كل المذنبين الخاطئين المخلصين المتلوثين ، وقد قال مجاهد : إنها

(١) ابن كثير (٤ - ١٠٤) .

نزلت في أبي لبابة لَمَّا قال لبني قريظة :
(إنه الذبح) وأشار بيده إلى حلقه ،
ولم يكن رسول الله ﷺ قد قال له شيئاً
من هذا ، ولا أذن له فيه ، فتنبه إلى
خطئه ، وذهب فربط نفسه إلى سارية
في المسجد وأصر على أن يظل مربوطاً حتى
يغفر الله له إذا شاء ، وعندما غفر الله له
ونزلت آية بذلك وأذن الله له في أن ينطلق
أو تطلقه ابنته أبي إلا أن يكون رسول الله
بنفسه ، وقد فعل رسول الله ﷺ ذلك .

ويهمنا هنا أن نقول : إن هذا الطراز
من المؤمنين الكسالى الميالين للإهمال كثيرون
جداً في المجتمع الإسلامى ، بل هم غالبية
في أيماننا التي تجد الناس فيها كسالى ،
مهملين رغم إيمانهم ، وهؤلاء تحت عفو
الله وغفرانه كما يقول ابن كثير .

ثم تجيء بعد ذلك الآية ١٠٣ وهى
الآية التي تهتم أى دارس للإسلام اهتماماً
خاصاً ، فهى تعين دور الزكاة في أمواله
وتبين كيف أنها رئيسية لكل مؤمن ، فإننا
نعلم هنا أن الزكاة لاتعين المسلم الفقير
المسكين العاقر فحسب ، بل إن فائدتها
لأن يؤديها أعظم ، فهى تطهرهم وتطهر

أموالهم وتزكيهم ، فإذا طهر مال المسلم
وركت نفسه بعد أداء الزكاة أصبح في
حالة يستحق فيها أن يصلى الرسول عليه ،
أى يطلب له الرحمة من الله ، وهذه الصلاة
في ذاتها تملأ نفسه أمناً وسكناً لأنه يحس
أنه أصبح من المؤمنين الصادقين القريبين
من رسول الله المرضى عنهم وهم أهل
لصلاته .

ونحن في يومنا هذا نذكر هذه الآية
في بحثنا عن النظام المالى الإسلامى ، فإن
الإسلام يقول : إن المال كله لله سبحانه
وهو يستخلفنا فيه ، ومن واجبنا أن نعمل
على إنمائه فإذا نما المال كان على صاحبه
أن يؤدى زكاته حتى يطهر ماله وتزكو
نفسه ، وبدون هذا يظل ماله غير طاهر
ولا يحوز له الاستمرار في ملكيته وهذا
يخالف ما عاينه معظم الناس من استثمار
أموالهم في المصارف وهم في معظم الحالات
لا يهتمون بالزكاة ، فيظل مالهم غير طاهر
أى غير حلال ، ثم تجيء أرباح البنوك
فتزيد من سوء وضع الإنسان وتزيد حرامه
وقد قررنا هذا كله فيما كتبناه عن الربا .

* * *

وتلى ذلك في هذه السورة الجليلة آيات عظيمة القيمة من الناحية الإسلامية والفقهية ولكنها لا تقدم لنا مادة تدخل في موضوع هذا البحث وهو الإطار التاريخي لسورة براءة .

وسأستعرض هذه الآيات الباقية من السورة لنرى إن كان فيها إلى جانب ما ذكرنا مادة تنفعنا في رسم الأحوال السياسية والدينية لأهل المدينة وبقية الجزيرة العربية .

الآيات من ١٠٢ إلى ١٠٩ تدور كلها حول مسجد الضرار الذي بناه في قباء نفر من المنافقين من بنى عمرو بن عوف من الخزرج من آل قباء ، وكان غرضهم المطوى في نفوسهم من إنشائه هو أن يكون مركزاً من مراكز تجمعهم ونشاطهم المعادي - للإسلام .

وقد أرادوا أن يعطوا مسجدهم أهمية كبيرة فطلبوا إلى رسول الله ﷺ أن يصلى فيه التماساً للبركة كما قالوا .

وكان في نفس رسول الله شيء من أمر أولئك الناس فأرجأ الاستجابة إلى ما بعد

غزوة تبوك ، وعندما فرغ من الغزوة وسار في طريق العودة جاءه من الله ما يكشف له خطيئة هذا المسجد وأهله .

وبهذه المناسبة نقول : إن أهل الفقه والحديث يدكرون هذا أبا عامر الذي كان يوصف قبل الإسلام من جانب أصحابه بالراهب ، ولقبه المسلمون بالفاسق ، وكان هذا الرجل من الخزرج ، ولكننا لانعرف إن كان من بنى عمرو بن عوف أهل قباء ، ولكن الظاهر أنه كان منهم .

وكان فيما يقال نصرانياً وكان يرجو أن تكون له مكانة كبيرة في المدينة بسبب حماسه لهذا الدين ، ولكننا لانحد له أتباعاً من النصارى في المدينة ، ولانسمع أنه فكر في إقامة كنيسة وإحضار الأنجيل إليها ، وغاية ما نستطيع قوله أنه كان يتمتع بمركز لا بأس به في المدينة ويرجو أن يزداد مع الزمن ، ولعله كان مثل عبد الله ابن أبي بن سلول .

فلما جاء رسول الله ﷺ إلى المدينة ودخل الناس في الإسلام وتحمسوا له ضاع أمر أبي عامر ، فحقق على الإسلام ونبيه .

قال ابن كثير : (شرق اللعين أبو عامر
بريقه وبارز بالعداوة وظاهر بها . ويطهر
أنه لم تكن له مكانة في قومه كما كان
لابن أبي في قومه فخرج فاراً إلى مشركى
قريش وألبهم على حرب رسول الله ﷺ
فاجتمعوا بمن وافقهم من أحياء العرب ،
وقدموا عام أحد ، فكان من أمر المسلمين
ما كان وامتحنهم الله وكانت العاقبة
للمتقين (ص ١٤٩) .

: ثم يذكر ابن كثير أن هذا الرجل
حفر حفراً فيما بين الصفيين وفي إحدى هذه
الحفر وضع رسول الله ﷺ وأصابه -
ما نعرف وتقدم أبو عامر من قومه ودعاهم
لتأييده ، فلما عرفوا كلامه قالوا : لا أسمع
الله بك عيناً يا فاسق يا عدو الله ! فرجع
وهو يقول : والله لقد أصاب قومي بعدى
شر وكان رسول الله ﷺ قد حاول هدايته
فأبى فدعا عليه رسول الله ﷺ أن يموت
طريداً شريداً ، فنالت هذه الدعوة ، لأنه
بعد ما حدث في أحد من نفر المسلمين آخر
الأمر ورفضهم إياه ذهب إلى هرقل -
يستنصره على النبي ﷺ فوعده ومناه ،
فظل مقيماً عنده فكتب إلى أنصاره في

المدينة يبشرهم بأن قيصر سيؤيده ، وطلب
إليهم أن يتخذوا معقلاً يقدم عليهم فيه ،
فبنوا ذلك المسجد ورعموا أنه للمسلمين
وسألوا الرسول ﷺ أن يصلى فيه ،
فأنظرهم إلى ما بعد تبوك ثم كشف الله
أمرهم ، فلما اقترب من المدينة وهو عائد
من تبوك ، فدعا مالك بن الدخشم أخا
بنى سالم بن عوف ومعن بن عدى وأخاه
عامر بن عدى أخا بنى العجلان ، وأمرهما
أن يمضيا في أصحابهما إلى هذا المسجد
فيحرقاه ويهدماه ففعلا

ثم نزلت الآية ١٠٨ من سورة التوبة
تؤكد أن هذا المسجد كان مركز ضرار
وكفر وتفريق بين المؤمنين وإرصاداً لمن
حارب الله ورسوله :

« وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَى
وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ * لَا تَقُمْ فِيهِ
أَبَدًا لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ
يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ
أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ » .
(سورة التوبة ، الآيتان ١٠٧ ، ١٠٨)

والمسجد الذى أُسس على التقوى من
أول يوم ، وقد أصبح مكان هذا المسجد

مزملة وقتاً طويلاً بعد ذلك ثم زال -
(ابن كثير التفسير ٤ - ١٤٩) .

ثم تأتي بعد ذلك الآية ١١١ من سورة
التوبة وهي مشهورة وهامة جداً وفيها بيان
أن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم ،
وأموالهم بأن لهم الجنة ، وأنهم يقتاتلون
فيقتلون ويقتلون وأن هذا وعد من الله
سبحانه للمتقين وهذا الوعد وارد في
التوراة والإنجيل والقرآن :

« وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا
بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْرُ
الْعَظِيمُ » .

والآية ١٢٠ تقول : « مَا كَانَ لِأَهْلِ
الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ
يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنفُسِهِمْ
عَنْ نَفْسِهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ
وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ
وَلَا يَطْئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ
مِنْ عَدُوٍّ نِيلاً إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ
إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ » .

وقد صدق الله تعالى ، فإن أهل المدينة
ومن حولهم من الأعراب أقبلوا على الجهاد

راضين ولم يصيبهم ظمأٌ ولا نصب
ولا مخمصة طوال العهد النبوي ، وفي
ختام الكلام في تفسير هذه الآية يقول
ابن كثير : (وقال الحوفي عن أبيه عن
ابن عباس في هذه الآية : كان ينطلق
من كل حي من العرب عصابة فيأتون
السبي عليه السلام فيسألونه ما يريدون من أهل
دينهم ويتفقون في أمر دينهم ويقولون ،
لنبي الله . ما تأمرنا أن نفعله وأخبرنا
ما نقوله لعشائرننا إذا قدمنا وانطلقنا إليهم .

قال : فيأمرهم نبي الله بطاعة الله وطاعة
رسوله وبيعهم إلى قومهم بالصلاة والركاة
وكانوا إذا أتوا قومهم نادوا : إن من أسلم
فهو منا وينذرونهم حتى إن الرجل ليفارق
آباه وأمه وكان رسول الله يخبرهم وينذرون
قومهم ، فإذا رجعوا إلى قومهم يدعونهم
إلى الإسلام وينذرونهم النار ويبشرونهم
بالجنة (ابن كثير ٤ - ١٧٣) .

والكلام هنا غير متصل تماماً ، ولكن
هكذا نقله من الأصل الرجال الذين أشرفوا .

والسورة غنية بعد ذلك بالآيات التي
تؤكد روعة القرآن الكريم في التفسير

وتأكيداً للمعنى مرة بعد أخرى مع اختلاف النص في بعض الأحيان ، وإذا تشابه النص فإن الإنسان لا يلبت أن يدرك أن هذا التشابه طاهري وأن القرآن يقدم في كل آية معنى جديداً ، نخذ مثلاً الآيات من ١٠٤ - ١٠٥

« أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ » (٩ - ١٠٤) .

والبلاغة القرآنية هنا مبينة في كل لفظ ، فانظر مثلاً قوله إن الله يقبل التوبة عن عباده ، فحرف « عن » هنا عظيم الدلالة والمعنى هنا يختلف كل الاختلاف عن معناه إذا قال : « من » عباده ثم انظر بعد ذلك إلى قوله تعالى : (وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ) والمعنى هنا جديد جداً ، فقد رأينا مصارف الصدقات فيما سلف ، ولكننا نرى هنا أن الله يأخذ الصدقات ، أى أنها مهما اختلفت مصارفها فإنها كلها تصير إلى الله سبحانه فإن المسلم هنا يتعامل مع الله مباشرة - مما يزيد جلال الله ويرفع من قدر المؤمن ، والحال هنا هو نفس الحال مع الصلاة ، فسنح في الصلاة نقف بين يدي

الله فيرتفع مكاننا ، وهو يقبل صلاتنا - إذا قبلها - فيزداد جلاله سبحانه وكذلك الحال مع الصيام ، ومع ذلك فإن المسلمين لهم أيضاً نصيب في عمل كل مسلم ، فإنهم لا بد أن يروا نتيجة عمله ويحسوا بها وبعد ذلك نرد جميعاً إلى عالم الغيب والشهادة - وهو الله - فينبئنا بما كنا نعمل :

« وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ » (٩ - ١٠٥) .

وبعد ذلك تجيء الآية ١١٧ فترينا كيف « تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ » (٩ - ١١٧) .

وأنت ترى هنا أن الله يضع رسوله فيمن تاب عليهم قبل المهاجرين والأنصار ، لأن الرسول أذن لبعض ضعاف الإيمان أن يتخلفوا عن الخروج معه إلى تبوك وطلب المغفرة لرجل كافر القلب مثل ابن أبي وأعطى ابنه قميصه ليلبسه إياه في ساعة الموت إلتاماً للرحمة ،

ثم صلى عليه واشترك في دفنه دون أن يأذن له الله في ذلك .

ثم جاء بعد ذلك عتاب الله الحميل للرسول ثم أمره إياه بالألا يأذن لأحد منهم في التخلف إلا إذا جاءه إذن بذلك من الله .

وفي سورة أخرى يعطى الله رسوله الكريم الحق في الإذن لمن يرى أنه يستحق الإذن له في التخلف ثم يتوب الله على المهاجرين والأنصار من بعد ما كاد يزيغ قلوب منهم لأنه سبحانه رؤوف رحيم .

وفي الآية ١١٨ إشارة إلى الثلاثة الذين تخلفوا دون مبرر مقبول عقلاً وشرعاً وقعدوا عن الخروج ، وقد رووا بعد ذلك قصصهم وهي تدل على أنهم لم يكونوا أهل كفر بطلبهم ، ولكن الكسل والانصراف إلى مشاغل الحياة قعد بهم ، فغضب الله سبحانه عليهم ثم تاب عليهم وهم كعب بن مالك ومرارة بن الربيع العامري وهلال بن أمية الواقفي .

ويلاحظ أنهم كلهم كانوا من خمسة قبائل من الأوس توقفوا عن الدخول في الدعوة فسموا أوس مناة ، ثم تابوا ودخلوا

في الدعوة عن إيمان فسموا أوس الله ، وبهم تم إيمان الأوس وإسلامهم جميعاً (انظر تفسير ابن كثير ٤ - ١٦٥ - ١٧٠) .

« وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خَلَفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَلَّا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ، ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ » (١١٨-٤) .

ثم تهجى بعد ذلك الآيات ١٢٠ - ١٢٢ وفيها ذكر التوبة العامة على المؤمنين من أهل المدينة ومن حولهم من الأعراب ممن لم يتخلفوا عن رسول الله ولم يرغبوا بأنفسهم عن نفسه .

« ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطْشُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نِيلاً إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (٩-١٢٠) وَلَا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٩-١٢١) وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ

طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ
إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ (٩-١٢٢).

والكلام في هذه الآيات ينطبق على
المهاجرين والأنصار والأعراب الذين عاصروا
رسول الله ﷺ ولكنه أيضاً ينطبق على
المسلمين في كل عصر بعد ذلك ، فما كانت
غزوة تبوك ثم سورة التوبة من بعدها إلا درسا
عظيماً للمسلمين في كل العصور فإن المسلم
المجاهد مهما لقي من متاعب من ظمإٍ وتعَبٍ
وجوع ، ومهما تحمل في سبيل الإسلام
من لقاء الأعداء فإن له ثواباً خاصاً من الله
على كل شيء من ذلك إلى جانب ما ترزقه
الجماعة إياه من أجر أو مكافأة ، فإن أجر
الناس شيء وأجر الله شيء ، وهذا الأخير
هو الأعظم والباقي .

ومعاني هذه الآيات غاب عن النفر الذين
تجمعوا في المدينة في منتصف خلافة عثمان ،
وقد أتوا إليها ليطالبوا عثمان بالجزاء والمكافأة
ولم يكن لدى عثمان ما يكافئهم به ، وقد
حاول عثمان أن ينصحبهم ويلفت نظرهم إلى
أن المكافأة الحقيقية تأتي من عند الله سبحانه
وأن مكافأة الناس للمجاهد لاتعد شيئاً إلى
جانب مكافأة الله ، لأن الله سبحانه أعلم

بما تحمله كل مسلم على حدة وما أنفق كل
منهم من ماله مما لا يعلمه الناس ، ولكن
الله يعلمه ويكافئ عليه

أقول لو علم معاصرو عثمان بالمعاني
العظيمة التي تضمنتها هذه الآيات العظيمة
لما أصروا على مطالبة عثمان ولما كانت الفتنة
الكبرى التي نظر فيها رجال مثل معاوية
إلى ما يمكن أن يصيبهم من الدنيا من
ورائها ، فعرضوا على عثمان أن يخرج
إليهم - إلى دمشق مثلاً - ، من المدينة
فإن لديهم هناك الرجال والأموال ، وهم
يستطيعون نصرة عثمان - والحكم باسمه
لأن ذلك لم يكن في يده في المدينة ولكن
عثمان رفض أن يترك مدينة رسول الله ﷺ
في سبيل الحكم أو أي عرض من أعراض
الدنيا انظر التفاصيل في تفسير ابن كثير
الجزء الرابع .

* * *

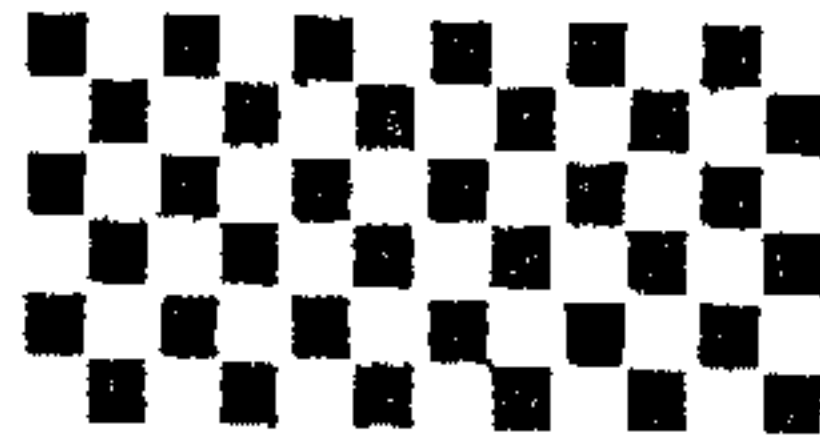
وبعد أن تأتينا السورة بإشارات بالغة
البلاغة والحكمة عن كفر الكافرين ونفاق
المنافقين ، وما أعد الله لهؤلاء وأولئك
من سوء العذاب تحيىء نهاية هذه السورة ،

وهما آيتان مشهورتان ولا يزال المسلمون
يكررونهما في شتى ما يلزم بهم من ظروف
نظراً لما فيهما من الحكمة العظيمة والبلاغ
الكامل ، وما تضيفانه على قلب المؤمن
من إيمان بالله وسعادة بهذا الإيمان :

« لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ
عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ
رَءُوفٌ رَّحِيمٌ » (٩ - ١٢٨) فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ
حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ
وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (٤ - ١٢٩) .

فإن المسلم في كل عصر أو زمان أو مكان
لا يزال يتشعر بأن الله أرسل إلينا رسولا من
أنفسنا يتشاركنا آلامنا ومتاعبنا ، إذ
يصعب عليه رؤية ما نعاني ونقاسي ، وهو
صلى الله عليه وسلم لا يزال يدعو للمؤمنين
بالمغفرة والمعونة فيستجيب الله له في
حالات المؤمنين الصادقين أما غير المخلصين
الذين يتولون عن الرسول ودعوته فإن
الرسول يتركهم إلى الله سبحانه ، وهو
حسبه «عليه توكلا وهو رب العرش العظيم» .

حسين مؤنس
عضو المجمع



المصادر والمراجع

المصادر المخطوطة :

البلاذرى : أحمد بن يحيى بن جابر :

أنساب الأشراف ج ٩ ، ١٠

مصور نسخة دار الكتب المصرية - القاهرة رقم ١١٠٣ أنساب الأشراف ح ٤ .

مصور نسخة الخزنة الملكية فى الرباط رقم ٢٥١٨

مصور الخزنة العامة فى الرباط رقم ٦٩١٤

الكلاعى البلنسى . سليمان بن موسى ، أبو الربيع :

الاكتفاء من مغازى رسول الله ﷺ والثلاثة الخلفاء .

مصور نسخة جامعة الكويت ج ١ رقم ٢٥٥ ، ج ٢ رقم ٢٥٦

ابن الكلبي : هشام بن محمد ، أبو المنذر :

جمهرة النسب

مصور نسخة المتحف البريطانى ج ١ رقم ٢٣٢٩٧ ، ج ٢ رقم ٢٢٣٧٦

المصادر المطبوعة :

ابن الأبرص : عبيد ، أبو زياد الأسدى :

(ديوان عبيد بن الأبرص) ، تحقيق حسين نصار ، مصطفى البابى الحلبى ، القاهرة ،

طبعة ١ - ١٩٥٧

ابن أبى الحديد : عبد الحميد بن هبة الله بن محمد ، عز الدين :

(شرح نهج البلاغة) ، تحقيق حسن تميم ، دار مكتبة الحياة ، بيروت ١٩٦٣ ،

٥ أجزاء .

ابن الأثير : علي بن محمد ، أبو الحسن عز الدين الحزري :

(أسد الغابة في معرفة الصحابة) ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت (ب ت)
٥ أجزاء

(الكامل في التاريخ) ، دار صادر ، دار بيروت ، ١٩٦٥ . ١٣٠ جزءا
(اللباب في تهذيب الأنساب) ، دار صادر ، بيروت ، (ب ت) ٣ أجزاء .

ابن أعثم : أحمد بن أعثم ، أبو محمد الكوفي :

(كتاب الفتوح) ، دائرة المعارف العثمانية ، حيدر آباد الدكن ، الهند - ١٩٦٨ -
١٩٧٥ ، ٨ أجزاء .

الباقلاني : محمد بن الطيب ، أبو بكر :

(إيجاز القرآن) ، تحقيق أحمد صقر دار المعارف بمصر ١٩٦٣

البخاري : إسماعيل بن إبراهيم الجعفي ، أبو عبد الله :

(كتاب التاريخ الكبير) ، مؤسسة الكتب الثقافية - بيروت . ١٩٨٦ . ٨ أجزاء

ابن بدران : عبد القادر بن أحمد :

(تهذيب تاريخ دمشق) ، مطبعة الترقى بدمشق ، ١٣٢٩ - ١٣٥١ هـ ، ٧ أجزاء .

البسوي : يعقوب بن سفيان ، أبو يوسف :

(كتاب المعرفة والتاريخ) ، تحقيق أكرم ضياء العمرى ، مطبعة الإرشاد ، بغداد ،
عام ١٩٧٤ - ١٩٧٦ ، ٣ أجزاء .

البغدادى : عبد القادر بن عمر :

(خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب) ، المطبعة السلفية . القاهرة ١٣٤٧ هـ ،
٤ أجزاء .

البلاذرى : أحمد بن يحيى بن جابر :

(أنساب الأشراف) ج ١ ، تحقيق محمد حميد الله ، دار المعارف بمصر ، ١٩٥٩
(فتوح البلدان) ، تحقيق صلاح الدين المسجد ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ،
عام ١٩٥٦ - ١٩٥٨ ، ٣ أجزاء

- الشيخان ، أبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب وولدهما ، من كتاب الأنساب ،
تحقيق إحسان صدقي - الكويت ، ١٩٨٩

البيهقى : إبراهيم بن محمد :

(المحاسن والمساوى) ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، مكتبة النهضة مصر ،
القاهرة ، ١٩٦١ ، ٢ ج .

التبريرى : يحيى بن على ، أبو زكريا :

(شرح ديوان الحماسة لأبي تمام) ، تحقيق محمد عبد القادر سعيد ، مكتبة النورى
دمشق (ب ت) .

الترمذى : محمد بن عيسى السلمى ، أبو عيسى :

(سنن الترمذى) ، دار الفكر ، دمشق ، ١٩٧٨

ابن تغرى بردى : يوسف ، أبو المحاسن :

(النجوم الراهرة فى ملوك مصر والقاهرة) ، هيئة الكتاب بالقاهرة ، الطبعة الثانية ،
١٠ أجزاء .

الجاحظ : عمرو بن بحر ، أبو عثمان :

(البيان والتبيين) ، تحقيق عبد السلام هارون ، مكتبة الخانجى فى القاهرة ،
مكتبة الهلال فى بيروت ، طبعة ١٩٦٨ / ٣ ، ٤ أجزاء .

ابن الجورى : عبد الرحمن بن على بن محمد ، أبو الفرح

(صفة الصفوة) ، تحقيق محمود فاحورى ، دار الوعى . حلب . طبعة ١ / ١٩٦٩ .
٢ ج .

(مناقب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب) ، تحقيق زيب إبراهيم القاروط .
دار الكتب العلمية ، بيروت ، طبعة ٢ / ١٩٨٢

حاتم الطائى . حاتم بن عبد الله ، أبو عدى :

(ديوان حاتم الطائى) ، تحقيق كرم رستاقى . دار صادر . دار بيروت . ١٩٦٣
ابن حبيب البغدادى محمد بن حبيب بن أمية .

(كتاب المحبر) ، تحقيق أيلرة ليحتن شتيتير . دائرة المعارف العثمانية . حيدر آباد
الدكن ، الهند ، ١٩٤٢

(كتاب المنق فى أخبار قريش) ، تحقيق خرر شيد فاروق . دائرة المعارف العثمانية .
حيدر آباد الدكن ، الهند ، ١٩٦٤

ابن حجر . أحمد بن على ، أبو الفصل ، شهاب الدين . العسقلانى :

(الإصالة فى تمييز الصحابة) ، دار إحياء التراث العربى . بيروت . مصور الطبعة
الأولى ، ١٣٢٨ هـ ، ٤ أجزاء .] .

(تهذيب التهذيب) ، دائرة المعارف النظامية . حيدر آباد الدكن . الهند .
عام ١٣٢٥ هـ ، ١٢ جزءاً .

(فتح البارى بشرح البخارى) ، مطبعة مصطفى السانى الحلنى . القاهرة . ١٩٥٩ ،
١١ جزءاً .

ابن حزم : على بن أحمد بن سعيد ، أبو محمد .

(جمهرة أنساب العرب) ، تحقيق عبد السلام هارون . دار المعارف بمصر . ١٩٦٢

حسان بن ثابت :

(ديوان حسان بن ثابت) ، دار مصادر ، بيروت ، ١٩٦١

الحميري : محمد بن عبد المنعم ، أبو عبد الله :

(الروض المعطار في خبر الأقطار) ، تحقيق إحسان عباس ، مكتبة لبنان ، -
بيروت ، ١٩٧٥

الحميري : نشوان بن سعيد ، أبو سعيد :

(الحور العين) ، تحقيق كمال مصطفى ، دار آزال ، بيروت ، طبعة ٢ ، ١٩٨٥

ابن حنبل : أحمد بن محمد ، أبو عبد الله :

(مسند الإمام أحمد بن حنبل) ، المكتب الإسلامي للطباعة والنشر ، دار مصادر ،
بيروت (ب ت) - وطبعة دار المعارف بالقاهرة ، تحقيق الشيخ أحمد محمد
شاكر ، ١٥ جزءا .

الخطيب البغدادي : أحمد بن علي ، أبو بكر :

(تاريخ بغداد) ، دار الكتاب العربي ، بيروت (ب ت) ، ١٤ جزءا .

ابن خلدون : عبد الرحمن بن محمد ، أبو زيد .

(كتاب العبر وديوان المبتدأ والحبر .) ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت ، ١٩٥٨ -
١٩٦٧ ، ٧ أجزاء على أساس طبعة بولاق - القاهرة .

ابن خلكان . أحمد بن محمد ، أبو العباس ، شمس الدين :

(وفيات الأعيان وأنبياء أبناء الزمان) ، تحقيق محمد عبد الحميد ، مكتبة النهضة
المصرية ، القاهرة ، ١٩٤٨ ، ٦ أجزاء .

ابن خياط : خليفة بن خياط العصفري البصري :

(تاريخ خليفة بن خياط) ، تحقيق سهيل زكار ، وزارة الثقافة والسياحة والإرشاد
القومي ، دمشق ، ١٩٦٧ - ١٩٦٨ ، ٢ ج .

الدميري : محمد بن موسى ، أبو الققاء ، كمال الدين :

(حياة الحيوان الكبرى) ، مطبعة الاستقامة ، القاهرة . ١٩٦٣ . ٢ ج .

الديكار بكري : حسين بن محمد بن الحسن :

(تاريخ الخميس في أحوال أنفوس نفيس) ، مؤسسة شعبان . بيروت . مصور
نسخة المطبعة الوهبية ، القاهرة ، ١٢٨٣ هـ ، ٢ ج .

الدينوري : أحمد بن داود ، أبو حنيفة .

(الأخبار الطوال) ، تحقيق عبد المنعم عامر ، دار إحياء الكتب العربية . القاهرة .
عام ١٩٦٠

الذهبي : محمد بن أحمد بن عثمان ، شمس الدين :

(تاريخ الإسلام وطبقات المشاهير والأعلام) ج ١ ، السيرة النبوية . القاهرة ١٩٧٠
ج ٣ ، تحقيق حسام الدين القدسي ، مطبعة القدس . القاهرة ١٩٧٩
(تذكرة الحفاظ) ، دائرة المعارف العثمانية ، حيدر آباد الدكن . الهند . طبعة
١٩٥٦ / ٣ ، ٤ أجزاء .

(سير أعلام النبلاء) ، مؤسسة الرسالة ، بيروت . طبعة ١٩٨٦ / ٣ . ٢٥ جزء .
(العبر في خبر من غبر) ، تحقيق صلاح الدين المنجد . مطبعة حكومة الكويت .
١٩٦٠ - ١٩٦٦ ، ٥ أجزاء .

الزبيدي . محمد بن محمد ، أبو الفيض ، مرتضى :

(تاج العروس من جواهر القاموس) ، مطبعة حكومة الكويت ، ١٩٦٥

الزبير بن ركار . أبو عبد الله ، القرشي الأسدي :

(الأحبار الموفقيات) ، تحقيق سامي مكى العاني ، مطبعة العاني ، بغداد ، ١٩٧٢

الزبيدي : مصعب بن عبد الله ، أبو عبد الله :

(نسب قريش) ، تحقيق أ . ليفي بروفنسال ، دار المعارف بمصر ، ١٩٥٣ ، وطبعة

عبد السلام هارون ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٦٧

ابن زنجويه : حميد :

(كتاب الأموال) ، تحقيق شتار فياض ، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات

الإسلامية ، الرياض ، ١٩٨٦ ، ٣ أجزاء

السخاوي : محمد بن عبد الرحمن ، شمس الدين :

(الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ) ، تحقيق فرانز روزنتال ، مطبعة العاني ،

بغداد ، ١٩٦٢ ، وطبعة أحمد الصالح علي ، بغداد ح واحد كبير .

السرخسي . محمد بن أحمد ، أبو بكر ، شمس الدين :

(كتاب المبسوط) ، دار الدعوة ، استانبول ، ١٩٨٢ ، ٣٠ جزءا .

ابن سعد . محمد بن سعد بن منيع الزهري :

(الطبقات الكبرى) ، دار صادر ، دار بيروت ، ١٩٥٩ ، ٨ أجزاء .

(الطبقات الكبرى - القسم المتتم) ، تحقيق زياد منصور ، مكتبة العلوم والحكم ،

المدينة المنورة ، طبعة ١٩٨٧ / ٢ ، ٤ أجزاء .

السمعاني : عبد الكريم بن محمد ، أبو سعد .

(الأنساب) ، دائرة المعارف العثمانية ، حيدر أباد الدكن . الهند . ١٩٦٢

السمهودي : علي بن أحمد ، نور الدين :

(وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى) ، تحقيق محمد عبد الحميد . دار إحياء التراث
العربي ، بيروت ، (ب ت)

السيوطي : عبد الرحمن بن أبي بكر ، جلال الدين :

(تاريخ الخلفاء) ، تحقيق قاسم الرفاعي ، محمد العتاي . دار القلم . بيروت
عام ١٩٨٦

(الشماريخ في علم التاريخ) ، تحقيق إبراهيم السامرائي . مطبعة أسعد . بغداد .
عام ١٩٧١

(طبقات الحفاظ) ، تحقيق علي محمد عمر ، مكتبة وهبة . القاهرة . ١٩٧٣ .

ابن شبيهة عمر بن شبيهة النميري البصري :

(تاريخ المدينة المنورة - أخبار المدينة النبوية) ، تحقيق فهم محمد شلنوت ،
دار الأصفهاني للطباعة ، جدة ، طبعة ٢ / ١٣٩٣ ، ٤ أجزاء .

الصفدي . خليل بن أيوب ، صلاح الدين .

(نكت الهميان في نكت العميان) ، تحقيق أحمد زكي . المطبعة الحمالية -
مصر ، ١٩١١ .

(الوافي بالوفيات) ، جمعية المستشرقين الألمانية ، ١٩٤٩ - ١٩٨٢ . فر نر شتاينر -
فريبادن .

الطبرى : محمد بن جرير ، أبو جعفر :

- (تاريخ الرسل والملوك) ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار المعارف بمصر ، ١٩٦٠ - ١٩٦٩ ، ١٠ أجزاء .

- تفسير الطبرى - ٢٠ جزءاً - القاهرة (ب - ت)

العباسى : أحمد بن عبد الحميد :

(عمدة الأحبار فى مدينة المختار) ، تحقيق حمد الجاسر ، طبعة ٥ - ب ت

ابن عبد البر : يوسف بن عبد الله ، أبو عمر القرطى :

(الاستيعاب فى معرفة الأصحاب) ، تحقيق على البجاوى ، مكتبة نهضة مصر ، القاهرة ، (ب - ت) ، ٤ أجزاء .

(بهجة المجالس وأنس المحالس وشحن الذاهن والهاحس) ، تحقيق محمد مرسى الخولى ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، طبعة ٢ / ١٩٨٢ ، ٣ أجزاء .

(الدرر فى احتصار المغازى والسير) ، تحقيق شوقى ضيف ، دار المعارف بمصر ١٩٨٣

ابن عبد ربه : أحمد بن محمد ، أبو عمر :

(العقد الفريد) ، تحقيق أحمد أمين ، أحمد الزين ، إبراهيم الإبيارى ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، ١٩٤٨ ، ٧ أجزاء .

أبو عبيد : القاسم بن سلام :

(كتاب الأموال) ، تحقيق محمد هراس ، مكتبة الكليات الأزهرية ، القاهرة ١٩٦٨

ابن عساكر : على بن الحسن ، أبو القاسم :

(تاريخ مدينة دمشق - تراجم النساء) ، تحقيق سكيئة الشهابى ، دمشق ، ١٩٨٢

العسكري : الحسن بن عبد الله ، أبو هلال :

(كتاب الأوائل) ، تحقيق محمد الوكيل ، مطبعة دار الأمل ، طنجة ، المغرب
الأقصى ، (ب - ت) .

ابن العماد : عبد الحى بن أحمد ، أبو الفلاح .

(شذرات الذهب فى أخبار من ذهب) ، المكتب التجارى ، بيروت ، (ب - ت)
٨ أجزاء .

الغزالي : محمد بن محمد ، أبو حامد :

(إحياء علوم الدين) ، دار الفكر ، مطبعة لجنة الثقافة الإسلامية ، القاهرة ،
١٣٥٦ هـ ، ١٦ جزءا

(التبر المسبوك فى نصيحة الملوك) ، مكتبة الكليات الأزهرية ، القاهرة ، ١٩٦٨

الغسماني : محمد بن محمد بن أبي الحفص :

(كتاب الخذلان) ، نشره شاكر مصطفى على سبع حلقات فى صحيفة القبس
الكويتية ، من ١٩٨٧/١/٢٣ - ١٩٨٧/٣/١٣ ، الأعداد ، ٥٢٨٠ ، ٥٢٩٤ ، ٥٣٠١ ،
٥٣٠٨ ، ٥٣١٥ ، ٥٣٢١ ، ٥٣٢٨

ابن فارس : أحمد بن زكريا الرازى :

(مجمل اللغة) ، تحقيق هادى حمورى ، معهد المخطوطات العربية ، الكويت ،
عام ١٩٨٥ ، ٤ أجزاء .

أبو الفرج الأصفهاني : على بن الحسين الأموى :

(الأغاني) ، دار الثقافة ، بيروت ، طبعة ٣ - ١٩٦٢ ، ٢٥ جزءا .

الفيومي : أحمد بن محمد :

(المصباح المنير) ، تحقيق مصطفى السقا ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي بمصر ،
(ب - ت) ، ٢ ج

القالى : إسماعيل بن القاسم العدادى ، أبو علي .

(الأمل) ، مطبعة دار الكتب ، القاهرة ، طبعة ٢ - ١٩٢٦

ابن قتيبة : عبد الله بن مسلم ، أبو محمد :

(الشعر والشعراء) ، تحقيق أحمد شاكر ، دار المعارف بمصر ، ١٩٦٦ ، ٢ ج .
(عيون الأخبار) ، المؤسسة المصرية للتأليف والترجمة والطباعة والنشر ، القاهرة ،
عام ١٩٦٣ ، ٤ أجزاء .

(المعارف) ، تحقيق ثروت عكاشة ، دار المعارف بمصر ، طبعة ٣ - ١٩٦٩

ابن قدامة المقدسى : عبد الله بن أحمد ، أبو محمد ، موفق الدين :

(التبيين في أسباب القرشيين) ، تحقيق محمد بايف الدايمى ، عالم الكتب
مكتبة النهضة العربية ، بيروت ، طبعة ٢ - ١٩٨٨

القسطلانى : أحمد بن محمد الخطيب ، شهاب الدين :

(إرشاد السارى إلى شرح صحيح البخارى) ، المطبعة الكبرى الأميرية ، القاهرة ،
عام ١٣٢٣ هـ ، ١٠ أجزاء .

القلشندي : أحمد بن علي ، أبو العباس :

(صبح الأعشى في صناعة الإنشا) ، هيئة الكتاب ، القاهرة ، ١٩٦٣ ، ١٤ جزءا .
(قلائد العقيان في التعريف بقبائل عرب الرمان) ، تحقيق إبراهيم الأبيارى ،
دار الكتاب اللبناني ، بيروت ، طبعة ٢ - ١٩٨٣

(نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب) ، تحقيق إبراهيم الأبياري ، الشركة العربية

للطباعة والنشر ، القاهرة ، ١٩٥٩

القلمى : عباس بن محمد رضا :

(الكنى والألقاب) ، المطبعة المحيدرية ، الحجف ، ١٩٥٦ ، ٣ أجزاء .

ابن كثير : إسماعيل بن عمر ، عماد الدين .

(البداية والنهاية) ، مكتبة المعارف ، بيروت ، مكتبة النصر ، الرياض ، ١٩٦٦ ،

١٤ جزءا .

(تفسير القرآن العظيم) ، دار الأندلس ، بيروت ، ١٩٦٦ ، ٧ ج .

الكلاعى البلنسى : سليمان بن موسى ، أبو الربيع :

(الاكتفاء من مغازى رسول الله ﷺ والثلاثة الخلفاء) ، تحقيق مصطفى عبد الواحد

مكتبة الخانجى ، القاهرة ، مكتبة الهلال ، بيروت ، ج ١ / ١٩٦٦ ، ج ٢ / ١٩٧٠

ابن الكلبي : هشام بن محمد ، أبو المنذر :

(جمهرة النسب) ج ١ ، تحقيق عبد الستار فراج ، مطبعة حكومة الكويت ، ١٩٨٣

الكندى : محمد بن يوسف .

(ولاة مصر) ، تحقيق حسين نصار ، دار بيروت ، دار صادر ، ١٩٥٩

الموردى : على بن محمد ، أبو الحسن :

(الأحكام السلطانية والولايات الدينية) ، مطبعة مصطفى البابى الحلبي بمصر . طبعة

١٩٦٦ / ٢

المبرد : محمد بن يزيد ، أبو العباس :

(الكامل) ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، السيد شحاتة ، دار نهضة مصر ،

القاهرة (ب - ت) ، ٤ أجزاء

المحب الطبري : أحمد بن عبد الله ، أبو العباس ، محب الدين :

(الرياض النضرة في مناقب العشرة) ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٩٨٤ ، ٤ أجزاء .

الدائني : علي بن محمد ، أبو الحسن :

(كتاب التعازي) ، تحقيق ابتسام الصفار ، بدرى فهد ، مطبعة النعمان ،
النجف ، ١٩٧١

المرزباني : محمد بن عمران ، أبو عبيد الله :

(معجم الشعراء) ، تحقيق عبد الستار فراج ، دار إحياء الكتب العربية ، القاهرة
عام ١٩٦٠

(الموشح) ، تحقيق علي البجاوي ، دار نهضة مصر ، القاهرة ، ١٩٦٥

المزى : يوسف ، أبو الحجاج ، جمال الدين .

(تهذيب الكمال في أسماء الرجال) ، تحقيق بشار عواد ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ،
طبعة ٤ ، ١٩٨٥

المسعودي : علي بن الحسين ، أبو الحسن :

(التنبيه والأشراف) ، مكتبة خياط ، بيروت ، ١٩٦٥

(مروج الذهب ومعادن الجوهر) ، تحقيق يوسف داغر ، دار الأندلس ، بيروت ،
عام ١٩٦٥ ، ٤ أجزاء .

المعلوف : يويس اليسوعي .

(المنجد في اللغة) ، دار المشرق ، بيروت ، طبعة ٢٠ / ١٩٦٩

المفضل الضبي : المفضل بن محمد ، أبو العباس :

(ديوان المفضليات) ، تحقيق كارلوس يعقوب لايل ، مطبعة الآباء اليسوعيين ،
بيروت ، ١٩٢٠

المنذرى : عبد العظيم بن عبد القوى ، زكى الدين :

(مختصر صحيح مسلم) ، تحقيق محمد ناصر الألبانى ، وزارة الأوقاف والشئون
الإسلامية - الكويت - طبعة ٣ / ١٩٧٩

ابن منظور : محمد بن مكرم ، أبو الفضل جمال الدين :

(لسان العرب) ، الدار المصرية للتأليف والترجمة ، القاهرة (ب - ت) ٢٠ جزءا .

الميدانى : أحمد بن محمد ، أبو الفضل :

(مجمع الأمثال) ، دار مكتبة الحياة ، بيروت ، ١٩٦١ ، ٢ ج .

أبو نعيم الأصفهاني : أحمد بن عبد الله :

(حلية الأولياء وطبقات الأصفياء) ، دار الكتاب العربى ، بيروت ، طبعة ٤ / ١٩٨٥
١٠ أجزاء .

النويرى : أحمد بن عبد الوهاب ، شهاب الدين :

(نهاية الأرب فى فنون الأدب) ، ١٩ جزءا ، تحقيق محمد إبراهيم أبو الفضل ،
الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٧٥

ابن هشام : عبد الملك بن هشام ، أبو محمد :

(سيرة النبى ﷺ - السيرة النبوية) ، تحقيق مصطفى السقا ، إبراهيم الإبيارى ،
عبد الحفيظ شلبى ، مطبعة مصطفى البابى الحلبي بمصر ، ١٩٣٦ ، ٤ أجزاء .

الواحدى : على بن أحمد ، أبو الحسن :

(أسباب نزول القرآن) ، تحقيق السيد أحمد صقر ، دار الكتاب الحديث ،
القاهرة ، ١٩٦٩

الواقدي : محمد بن عمر :

(فتوح الشام) ، المكتبة الأهلية ، بيروت ، ١٩٦٦ ، ٢ ج .
(المغازي) ، تحقيق مارسدن جونسن ، مؤسسة الأعلمي ، بيروت ، مصهور مطبعة
لندن ، ١٩٦٦ ، ٣ أجزاء .

الوشاء : محمد بن أحمد ، أبو الطيب :

(الموتى ، أو الظرف والظرفاء) ، دار صادر ، دار بيروت ، ١٩٦٥

وكيع القاضي : محمد بن خلف بن حيان :

(أخبار القضاة) ، عالم الكتب ، بيروت ، (ب - ت) ، ٣ أجزاء .

ياقوت الحموى : ياقوت بن عبد الله ، أبو عبد الله :

(إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب - معجم الأدباء) ، دار إحياء التراث العربى ،
(ب - ت) ، ٢٠ جزءا .

(معجم البلدان) ، دار صادر ، دار بيروت ، ١٩٥٥ ، ٥ أجزاء .

اليعقوبى : أحمد بن إسحاق بن جعفر بن وهب بن واضح :

(تاريخ اليعقوبى) ، دار صادر ، بيروت ، ١٩٦٠ ، ٢ ج

أبو يوسف : يعقوب بن إبراهيم :

(كتاب الخراج) ، المطبعة السلفية ، القاهرة ، طبعة ٤ / ١٣٩٢ هـ

المراجع :

إبراهيم مصطفى ، أحمد حسن الزيات ، حامد عبد القادر ، محمد علي النجار :

(المعجم الوسيط.) ، مجمع اللغة العربية ، القاهرة ، المكتبة العلمية ، طهران ، (ب ت)

جواد علي :

(المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام) ، دار العلم للملايين ، بيروت ، مكتبة

النهضة ، بغداد ، ١٩٦٨ - ١٩٧٣

حميد الله : محمد :

(مجموعة الوثائق السياسية للمعهد النبوي والخلافة الراشدة) ، دار الإرشاد ، بيروت

طبعة ٣ - ١٩٦٩

الدباغ : مصطفى مراد :

(بلادنا فلسطين) ، دار الطليعة ، بيروت ، ١٩٦٥

الراشد : سعد بن عبد العزيز :

(الربذة) ، جامعة الملك سعود ، الرياض ، ١٩٨٦

الزركلي : خير الدين محمود :

(الأعلام) ، بيروت ، طبعة ٣ / ١٩٦٩ ، ١٢ جزءا .

شيث خطاب : محمود :

(قادة فتح الشام ومصر) ، دار الفتح ، بيروت ، ١٩٦٥

صفوت : أحمد زكي :

(جمهرة خطب العرب) ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي بمصر ، طبعة ٢ / ١٩٦٢ ،

٣ أجزاء .

(جمهرة رسائل العرب) ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي بمصر ، ١٩٣٧ ، ٤ أجزاء .

الطنطاوى : على وناجي :

(أخبار عمر) ، دار الفكر ، دمشق ، ١٩٥٩

عبد الباقي : محمد فؤاد :

(اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان) ، المطبعة العصرية الكويت ، ١٩٧٧ ، ٣ أجزاء .

(المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم) ، دار مطابع الشعب ، القاهرة ، (ب ت)

العلی : عبد المنعم صالح :

(دفاع عن أبي هريرة) ، مكتبة النهضة ، بغداد ، دار الشروق ، بيروت ، ١٩٧٣

كحالة : عمر رضا :

(أعلام النساء) ، المطبعة الهاشمية ، دمشق ، طبعة ٢ / ١٩٥٩ ، ٥ أجزاء .

(معجم قبائل العرب) ، دار العلم للملايين ، بيروت ، طبعة ٢ / ١٩٦٨ ، ٣ أجزاء .

محمد علی أدلبي : محمد عوامة :

(فهرس الأعلام المترجمين في الطبقات الكبرى لابن سعد) ، مؤسسة الرسالة ،

بيروت ، ١٩٨٦

ونسنك . أ . ی :

(المعجم المفهرس لألفاظ الحديث السبوي) ، مكتبة بريل ، لندن ، ١٩٣٦ - ١٩٨٨ ، ٨ أجزاء .

دائرة المعارف الإسلامية ، طبعة ١ (الترجمة العربية) ١٣ جزءاً .

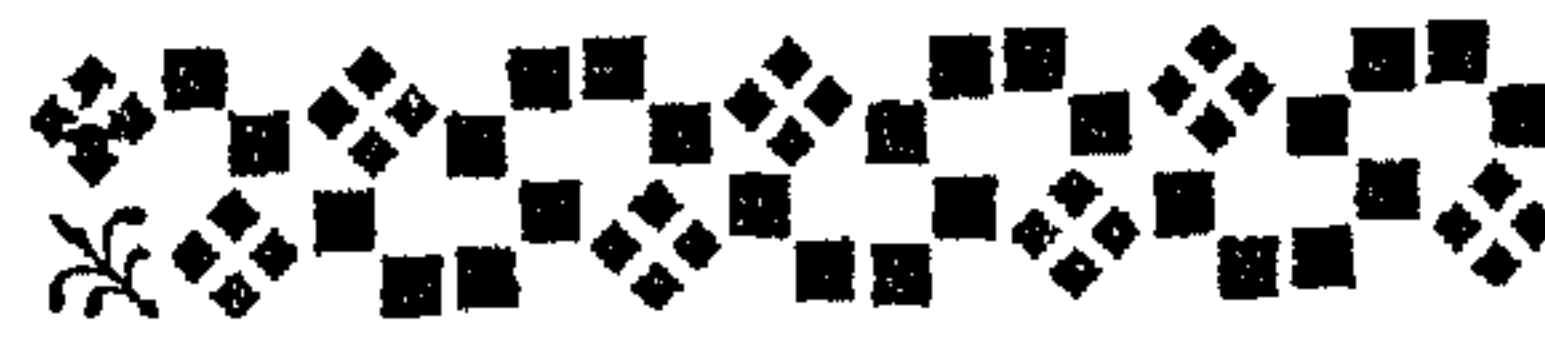
الموسوعة الفقهية : وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية ، الكويت ، طبعة ٣ / ١٩٨٤

فهرس

الآيات القرآنية الواردة بالبحث وفق ترتيب ورودها بالمصحف الشريف

- ١ - يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى .. الآية - سورة الحجرات - الآية ١٣
 - ٢ - يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا ...
سورة النساء ، الآية الأولى .
 - ٣ - نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ .. الآية - سورة الشعراء ، الآية ١٩٣
 - ٤ - وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ حِكْمًا عَرَبِيًّا ... الآية - سورة الرعد ، الآية ٣٧
 - ٥ - قَرَأْنَا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ ... الآية - سورة الزمر ، الآية ٢٨
 - ٦ - إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً ... الآية - سورة الأنبياء ، الآية ٩٢
 - ٧ - إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ . الآية - سورة آل عمران ، الآية ١٩
 - ٨ - مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلِ .. الآية - سورة الحج ، الآية ٧٨
 - ٩ - فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ . . الآية - سورة يونس ، الآية ٧٢
 - ١٠ - وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ ... الآية - سورة البقرة ، الآية ١٢٧
 - ١١ - وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ . . الآية - سورة البقرة ، الآية ١٣٢
 - ١٢ - أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتَ ... الآية - سورة البقرة ، الآية ١٣٣
 - ١٣ - رَبِّ قَدْ عَاقَبْتُنِي مِنَ الْمَلِكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ .. الآية - سورة يوسف
- الآية ١٠١
- ١٤ - يَا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا ... الآية - سورة يونس ، الآية ٨٤
 - ١٥٠ - إِنَّهُ مِنْ سَيِّمَانٍ وَأَنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . . الآية - سورة النمل : الآية ٣٠
 - ١٦ - فَتَبَسَّمْ ضَاحِكًا مِنْ قَوْلِهَا ... الآية - سورة النمل ، الآية ١٩

- ١٧ - وأسلمت مع سليمان ... الآية - سورة النمل ، الآية ٤٤ ﴿
- ١٨ - فلما أحس عيسى منهم الكفر ... الآية - سورة آل عمران ، الآية ٥٢
- ١٩ - ومن يبتغ غير الإسلام ديناً .. الآية - سورة آل عمران ، الآية ٨٥
- ٢٠ - لكم دينكم ولي دين - سورة الكافرون ، الآية ٦؛
- ٢١ - مالك يوم الدين - سورة الفاتحة - الآية ٣
- ٢٢ - يا أيها الرسل كلوا من الطيبات... الآية - سورة المؤمنون ، الآية ٥١ و ٥٢
- ٢٣ - وما كان الناس إلا أمة واحدة ... الآية - سورة يونس ، الآية ١٩
- ٢٤ - لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً ... الآية - سورة المائدة ، الآية ٥١
- ٢٥ - والله العزة والرسولة وللمؤمنين ... الآية - سورة المنافقون ، الآية ٨
- ٢٦ - الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم .. الآية - سورة الأنعام ، الآية ٨٢
- ٢٧ - إن الله يدافع عن الذين آمنوا .. الآية - سورة الحج ، الآية ٣٨
- ٢٨ - ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلاً - سورة النساء ، الآية ١٤١
- ٢٩ - ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا ... الآية - سورة الأعراف ، الآية ٩٦



في آفاق لغة الوحي

للأستاذ حسن عبد الله القترشي

هَفَا النَجْمُ ، يَعْزُو لَأَعْدَاءِهَا وَغَنَى الزَّمَانُ عَلَى بَابِهَا
وَدَانَ لَهَا الْمَجْدُ وَهُوَ الْعَصَى وَأَرْخَى الْعَذَانُ لِحُطَّابِهَا
تَرْقُرُقُ مَسَهَا الضِّيَاءُ الْبَهِيجُ وَشَعَشَعَ فِي أَفْقٍ أَصْحَابِهَا
وَتَوَجَّهَ - اللَّهُ - يَا لِلْجَلَالِ بَوْحَى ! تَجَلَّى بِمَحَرَابِهَا
غَمَائِمُهَا - ثَرَّةٌ بِالْحَيَاةِ وَوَشَّى الرَّبِيعُ بِأَهْلَادِهَا
هِيَ (الضَّادُ) مَا ظَفِرَتْ أُمَّةٌ بِمِثْلِ جَنَاهَا ، وَأَطْيَابِهَا
تَعَهَّدَهَا رَبُّهَا بِالْبَقَاءِ فَهَلْ مُحْدَبٌ فَيُضْ إِنْخِصَابِهَا ؟
تَنَالِقُ فِي صَفَحَاتِ الْخُلُودِ فَتَنْجَابُ ثَوْرَةٌ حُجَابِهَا
وَمَا شَفَّ عَنْ شُرُفَاتِ الْوُجُودِ كَمِثْلِ سَنَا شَعٍّ مِنْ غَابِهَا
فَمَا عَشِقُهَا عَيْرٌ مَوْتٌ بِهَا غَرَامًا لِيَتَهَنَّا بِتَرْحَابِهَا
وَكَمْ يَحْفِرُ الصَّخْرَ صَبٌّ بِهَا لِيَحْظَى بِتَرْشَافِ أَكْوَابِهَا
لِيَنْقَادَ مِنْهَا النَّفُورُ الشَّمُوسُ وَيُسْتَعَذِبُ الْمُرُّ مِنْ صَابِهَا
وَيَنْهَمُرُ السُّدْرُ مِنْ بَحْرِهَا وَيَخْلُدُ الرَّحِيقُ لِشُرَابِهَا
أَنْوَفُ هِيَ (الضَّادُ) أَنْ تُجْتَنَى لِيَغِيرَ صَبُورَ لَانْعَابِهَا
لِلْغَيْرِ مُلِحٌ شَدِيدِ الْمِرَاسِ أَعَمِيقِ الْمَعَانِقِ وَهَابِهَا
يَجُوبُ الدُّرُوبَ احْتِفَاءً بِهَا لِيُسَلِّكَ فِي سِمْطِ أَقْطَابِهَا

* * *

(*) أُلْقِيَتْ فِي الْجُلُوسَةِ الثَّانِيَةِ صَبَاحَ يَوْمِ الثَّلَاثَاءِ ٢ مِنْ شَعْبَانَ ١٤١٠ الْمَوَافِقِ ٢٧ مِنْ فَبْرَايِرِ (شَبَاطِ)

١٩٩٠ م.

وَأَعْرَضَ عَنْهَا قَصِيرُ الْأَدَاةِ وَمَا مِنْهُمْ مَنْ تَغْنَى بِهَا
فَمَا عَبَّاتُ بِالْأُلَى أَعْرَضُوا وَمَا وَصَلَتْهُمْ بِأَنْسَابِهَا

* * *

بني (الضَّادِ) يَا جَمَرَاتِ الْحَيَاةِ لِأَعْدَائِهَا . وَلَسْ أَلَاهَا
وَيَا شُهَبَ الْحَقِّ كَفُّوا الْأَذَى وَرُدُّوا الْبُغَاةَ لَاعْتَابِهَا
هُوَ الدَّمُّ نَادَى (بَنِي يَعْرُبَ) فَهَلَّا تَحْنُ لَأَنْسَابِهَا
عَنَّا الظُّلْمُ مِنْ مَتَحَدَّى الْكِرَامِ حُمَاةَ (يَهُـ وَذَا) وَأَذْنَابِهَا
أَلَمْ يَدَّ عَلَيْنَا وَمَا مِنْهُمْ مَنْ سِوَى خَائِرِ النَّفْسِ هِيَ أَبِهَا
وَأَرْغَمَ جَوْرُ الطَّغَاةِ الْأَبَاةِ لَتَعْنُوا وَلِصَوْلَةِ إِرْهَابِهَا
فَمَا مِنْ (مُثَنَّى) يَسُوقُ الْحُتُوفَ وَ (مُعْتَصِمٍ) دُونَ أَنْيَابِهَا
وَمَا مِنْ (صَلَحٍ) يَرْضُ الصُّفُوفَ فَ وَيُقْصِي الْعُرُوبَةَ عَنْ عَابِهَا
تَفَرَّقُهَا قَادَهُـا لِلْكَالِ وَطُولِ التَّنَاحِرِ أَوْدَى بِهَا
تَمَادَى الْعَدُوُّ نَكَالًا بِهَا فَجُنَّ الْهَوَانُ بِأَلْبَابِهَا
وَلَا مِنْ نَصِيرٍ وَأَيْنَ النَّصِيرُ لِيَخَازِلَ نَفْسٍ فَأَزْرَى بِهَا ؟
تَنَاسَتْ مَعَ الدُّلِّ تَارِيخُهَا لِلَّهِوَ الْحَيَاةِ ، وَالْعَلَا بِهَا
فَلَمْ تَسْتَجِبْ لِصُرَاخِ النَّذِيرِ وَلَمْ تَسْتَشِفْ لَظَى مَا بِهِـا
فَلَجَّ الصَّـدِيقُ بِتَجْرِيجِهَا وَهَامَ الْعَدُوُّ بِأَغْضَابِهَا
وَمَا هِيَ إِلَّا جَنَى التَّضَحِيَاتِ وَإِنْ لَبِستُ غَيْرَ أَثْوَابِهَا
فَهَلْ يَا بَنِي (الضَّادِ) مِنْ وَثْبَةٍ تَرُدُّ الْكِمَاةَ لِأَسْرَابِهَا !

* * *

وَيَا (مَجْمَعُ الضَّادِ) مِنْ صَفْوَةٍ	فَخَارَ النُّجُومُ لِأَخْصَابِهَا
عَلِمْتُ بِالنُّهْيِ فَوْقَ هَامِ الدُّنَى	وَعَزَّتْ بِجَوْهَرِ آرَابِهَا
تَسَامَتْ عَلَى تُرَّهَاتِ الزَّمَانِ	فَلَمْ تَسْتَرْقْ لِأَوْصَابِهَا
وَقَدِّمْتَ الشَّهَدَ ، كَمْ غَادَرَتْ	حُطَامَ الْحَيَاةِ لِأَنْصَابِهَا
وَكَمْ قَدْ أَرَاكَ ضِيَاءَ الْعُيُونِ	فِدَى (الضَّادِ) قُرْبَى لِأَخْبَابِهَا
تَسْتُجْزِي بِمَا بَدَلْتُ فِي غَدٍ	جِنَانًا تَهْشُ لِطُؤَالِهَا
وَتُزْهِى بِهَا غُرُفَاتُ النَّعِيمِ	فَدَارُ الْبَقَاءِ لِأَرْبَابِهَا !

حسن عبد الله القرشي
(عضو المجمع المراسل من السعودية)



شارك في مراجعة تجارب الطبع مع أمين التحرير

السيدة / سميرة صادق شعلان

المحرر الثاني بإدارة التحرير والشئون الثقافية

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الاميرية

رئيس مجلس الادارة
رمزى السيد شعبان

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٩٣/٦٣٢

الهيئة العامة لشئون المطابع الاميرية
٧٣٢٦ — ١٩٩٠ — ٣٠٠٢

